سلسلة التواريخ والرحلات
٣

الرحلة الشامية

تأليف

محمد علي باشا

دار الرائد العربي
ص.ب ٦٥٨٥
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا بر الا من بره ولا جود الا من جوده ، الموجود الأول الذى لا أول لوجوده والمشهود الآخر الذى لا آخر لشهوده والصلاة والسلام على أفضل رسله الكرام سيدنا ومولانا محمد المرسل رحمة لجميع الأنام وعلى آله وأصحابه نجوم الهداية ومصابيح الظلام (وبعد) فهذه رحلتى الشامية أقدمها لقراء العربية تحفة مرضية مستعينا بالله وهو حسبي ونعم الوكيل

المقدمة

قضيت نحو ثلاثين صيفا فى جو البلاد الاوربية حيث تربيت فى مدارسها صغيرا ، ثم تجولت فى سياحتها كبيرا . وتطوفت حول حواضرها وقراها كثيرا حتى انى بمعونة الله لم أدع شيئا من آثارها التاريخية ومعاهدها العلمية ومعاملها الصناعية الى غير ذلك مما يهم السائح أن يتعرفه فى تلك البلاد إلا زرته وأخذت منه بالقدر الأوفى والنصيب الأوفر ، ثم مامن مرة كنت أزور فيها هذه البلاد الا وكنت أجتمع بملوكها وأمرائها وأعيانها ووجهائها والا كنت أردد النظر حول رياضها المنسقة ومناظرها البديعة ، ولقد ساعدنى حُسن الحظ

أخيرا على زيارة بلاد اليابان والصين، وهناك وضعت رحلتى اليابانيـة التى فصَّلت فيها سياحتى لقرّاء العربية تفصيلا، وقد كنت إبّان هذه الرحلات العديدة والاسفار المفيدة أذكر بعض البلاد الاسـلامية التى لاتزال حتى اليوم مسـتقلة فى أيدى المسلمين وتحت سـيطرتهم، فكنت أحن اليها حنين الشارف على ولدها، وأودّ من صميم قلبى لو أن يجعل الله لى نصيبا من زيارتها، بل كثيرا ماهممت بمشارفتها ونهضت لذلك نهوضاً لولا أن صعوبة المواصلات وما لعله يكون من بعد الشُّقَّة وعدم توفـر وسائل الراحة ووسائط الرَّفاغة، كانت يومئـذ عقبة كؤدا فى طريقى، ولولاها ما كان أحوج مسلما يحب المسلمين ويصبو الى بلادهم أن يشدّ رحاله الى بغداد مدينة السـلام، ودمشق عاصمـة الشـام، كيلا يحرم من مشاهـدة مدينتين نخيمتين كانتا أكبر عواصم الاسلام وأعظمها حضارة. وناهيك بهما فى عهدى الدولة الأموية والعباسية وعلى الخصوص فى عهد المأمون عهد الحضارة الشرقيـة والنور، يوم كانت بغداد هذه محط رحال العرب ومنبعث أشعة الحكمة والأدب، على أنى مالبثت قليلا حتى قيض الله لى نفرا من أصدقائى الكرام وعِلْية القوم فى بلاد الشام فطلبـوا إلىّ أن أزور بلادهم، وقد كنت لا أزال أخشى من حصول ماعساه يعترض المسافر ممـا ربما

مس بالصحة أو أساء الى الكرامة. فكاشفت هؤلاء الصّحب بما كان
يجيش به صدرى من ذلك وغيره لعلى كنت ابلغ من لدنهم عذرا
أو أستطيع الى السفر سبيلا. فما زالوا يجهدون أنفسهم فى إقناعى بضد
ما كنت أظن حتى لقد حببوا الىّ الرحلة وأوقعوها من نفسى بحيث
صارت عزيمتى اليها أشدّ منها الى ماسواها خصوصا بعد ماأنهم تكفلوا
براحتى فيما كنت أتوقع التعب من ناحيته أكثر من المعتاد فى أسفارى .
وما كان ليخامرنى ريب فى صدقهم اذ كنت أقرأ على صفحات
وجوههم البيضاء آية الاخلاص والوفاء . وحينئذ طويت العزم على
ارتياد بلاد سورية وفِلَسْطِينَ والعراق فرحا مسرورا بتحقيق رجائى
القديم من زيارة بلاد طالما تاقت نفسى أن تراها وتشاهد فيها أهلها
على الأزياء الفطرية والعوائد الشرقية التى لاتزال الى اليوم حافظة
ما كانت عليه منذ العصور المتقدمة بفضل مايُعرَف فى أهلها من
الغيرة عليها وحرصهم على أن لاتختلط بتقاليد الغربيين وعوائدهم. وقد
كنت كلما سمعت الناس يمتدحون طقس هذه البلاد وما وهبها الله
من جمال المنظر ونضارة البقعة وبهاء الطبيعة فضلا عن اتساع مساحتها
وخصوبة تربتها وعذوبة مياهها وغضارة رياضها يزداد شوقى نحوها
ويتأكد عزمى على ارتيادها. وكان يجىء فى غضون حديث القوم عن

وصف تلك البلاد ذكر الخيل المحكمة الخلقة الكريمة الأصل وأنها في تلك الجهات تمتاز كثيرا عن غيرها بسرعة العدو واعتدال الصورة وكبر القامة. فكان ذلك يزيد في تنشيطي ويقوّي من عزيمتي سيما واني مولع بالخيل ولي غرام عظيم باقتنائها، كما أني أميل كلَّ الميل الى الشجاعة والشجعان وأحب ملء قلبي الفروسية والفرسان. وكان فيما سمعته من غير واحد أن بعض الطوائف في تلك البقاع يحسنون اختيار الخيل ويجيدون ركوبها على أتم ضروب الفروسية وأكمل خواصها، وأن أخصهم في هذا المعنى وأشهرهم به فوارس الدنادشة وأبطال العكاكرة.

(الدنادشة والعكاكرة)

هما قبيلتان، يقال ان الأولى منهما أصل جدّها من اليمن ونزل حُوران منذ ثلاثة قرون ثم هاجروا حوران وسكنوا برج الدنادشة فوق تل كلخ مقرّهم الحالي. وكان زعيمهم اذ ذاك يسمى الشيخ اسماعيل ولقَّبه التركمان جيرانه باسم دندشلي لانه كان يزين خيله بعذبات مرسلة، تسمى دنادش. ثم رحل شقيقه مع بعض قبيلته الى حُوران وهم الفُحيليون الى الآن، وزعيمهم مقيم في تل كلخ، ثم هم مسلمون سنيون ولهم ولع غريب بالفروسية، ولهم أيضا عقارات

واسعة فى سهل البقيعة .وهناك طائفة من المتاولة تسمى الدنادشة أو بنى دندش ويقيمون فى عكّار وما يجاور الهرمل وحمص، ولعل العكاكرة قبيلة من هؤلاء تنسب الى عكار البلد المذكور هذا.وكم كنت أشعر بارتياح نفسى وانشراح صدرى حينما كنت أذكر مرورى بين آثار المتقدمين وما عساه أن يكون قد غفَلَتْ عنه عين الدهر وأخطأته يد الدّمار من مخلفات الحروب التى تعاقبت على تلك البلاد زمنا طويلا خصوصا من يوم أن فتحها المسلمون الى أن صارت فى أيدى العثمانيين .نعم ولعلى أستطيف حول مواقع الحروب الصليبية لأنظر تلك القلاع المتينة ، والحصون المكينة التى لاتزال تنمّ على فضل مؤسسيها نم الزجاجة على مافيها .وهناك تجلى مدنية الشرق أول أمرها فيما لايزال يناطح الدهر الى اليوم بل حتى آخر الزمان من آثار العمالقة الاولى ومخلّفات الرومان، وما بقى يحكى قوة الاشوريين، ويذكر بسلطان الفينيقيين، وعظمة البيزانطيين. وتبدو حضارة الاسلام فيما جدّدهُ بعد ذلك غزاته الفاتحون وملوكه السالفون، وهو مابه يسطع نور الحجة على عظم صولتهم وكبر دولتهم وهمتهم وسعة علمهم وغزارة حكمتهم

تلك آثارنا تدل علينا ۞ فانظروا بعدنا الى الآثار

وعندئذ ما كان أدعانا أن نحمد الله الى هؤلاء القوم ونشكرلهم

سعيهم الجميل بل نحمد الله الذى هـدانا لهذا ووفقنا له وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

ونعود بجميل الثنـاء وجزيل الشكر لسمو الجناب العالى الخديوى الذى ما كدت اعرض على سموه الأمر، وألتمس اذنه الكريم بالسفر حتى تفضـل حفظـه الله فزاد على اذنه بذلك أن أتحفنى بمرافقة حضرة الفاضل احمد بك العريس لمناسبة أن حضرته من أهل الشام وله مكانة كبيرة من صدور الشاميين، فضلا عن كونه من أصحاب البيوت العتيقة فى المجد والشرف، وعلى علم تام من أخلاق القوم وعوائدهم، وكذلك تفضل الجناب العالى حفظه الله فارسل معنا حضرة محمود خيرى افندى، أحد ضـباط الحرس الخديوى، ياورا خاصا لنا مدة هذه السياحة، ثم انى قبل السـفر ببضعة أيام كنت طلبت الى شركة كوك أن تبعث الينا رسولا من قبلها لنستعلمه عن كيفية السفر وبالأخص عن كيفية السـير الى بغداد من طريق حلب، فاخبرنا بأن الطريق من حلب الى بغداد من الطرق التى لم تمسها يد الحضارة الى الآن، وانه بلغ من الطول بحيث ان المسـافر فيه يظل خمسة عشر يوما راكبا على متون الدواب لأنه لا مركب ثمت الا الخيل، أو عربات البريد، وهذا مركب صعب شـاق خصوصا اذا كان المسافر ممن لم يتعودوا السفر فى غير طريق

السكة الحديدية،وعند ذلك لم يسعنى غير أن عدّلت خطتى الاولى وتركت زيارة عاصمة العراق الى أن يذلِّل الله المصاعب ويسهِّل للمسافر الطريق

السفر من بور سعيد

من حسن الاتفاق أن سفرنا من ميناء بور سعيد كان يوم الجمعة ٢١ ربيع الاول سنة ١٣٢٨ فكان يوما ميمون الطلعة حسن الفأل وكان أول طوالع البر والخير لهذه الرحلة السعيدة ،فبعد أن أدّينا فريضة الجمعة فى الجامع العباسى،وتناولنا طعام الغداء لدى سعادة محافظ المدينة توجهنا على بركة الله الى الباخرة الفرنسية وهى احدى بواخر شركة (مساجرى)،وكان يودّ عناجم غفير من رجال الحكومة وأعيان البلد ومظاهرها يتقدّمهم مع حضرات العلماء سعادة المحافظ ،وحينما وصلنا الى الباخرة ألفينا رئيس الشركة فى انتظارنا من أجل أن يَهْدينا الى المخدع الذى أُعدّ لنا هناك ،ثم ما كدنا نسكن الى مجالسنا من المكان حتى استدعى الرئيس قبطان السفينة،وأخذ يلقى عليه من الأوامر والتعليمات اللازمة لراحتنا فى هذا السفر ماشاء الله أن يلقى،وكان القبطان يلبى رئيسه الى ذلك طائعا مسرورا ،ولم يمض علينا من وقت وصولنا الى المركب الانصف الساعة تقريبا حتى بارحنا الميناء مودعين من جناب

المحافظ ومن كان معه بغاية الحفاوة والاكرام، وما زلنا مسافرين والباخرة تنفذ فى أكباد البحر وتمزق أحشاء الماء حتى القت مراسيها فى وسط ميناء بيروت حيث دخلناها فى صباح يوم السبت ٢٢ ربيع الاول وهنـاك وقع نظرنا لأول مرة على الجهات الشامية الجميـلة وحينئذ لاتسل عما كان يتجدّد فى صـدورنا من الانشراح والسرور بمشاهدة تلك البقاع التى لها فى تاريخ الاسلام ذلك المكان المعروف خصوصا عند مارأينا جبـل لبنان مشرفا على بيروت وضواحيها إشراف الملك على رعيته والقائد على جنده، وكأنه لم يكتف بأن يشرف على الدأماء حتى أراد أن يعانق الجوزاء ، ومما نشكر الله له ونحمده عليه أننا مالقينا من سفرنا هذا نصبا لأن الجوّ كان فى غاية الاعتدال وكان البحر بالمصادفة ساكنا هادئا يهدى الينـا فى طيات ابراد النسيم تحيـة نَدِيَّة وسلاما مزاجه من تسنيم، ولقد لمحنا أثناء وقوفنا مركبا حربية صغيرة من مدرعات الحكومة العثمانية كانت راسية فى مياه الميناء الى ناحيـة من الشاطئ، وكان يلوح لنـا من شكلها أنها من ضمن المراكب التابعة لمصلحة خفر السواحل ولمـا كان من العوائد المتبعة قديما فى هـذه البلاد أن الوافدين على بيروت من أمراء الحكومة العثمانية وغيرهـا، يسـتأجرون زوارقهم من هـذه السفينة ويدفعون فى أجرة الزورق

الواحد مالا يقل عن عشرة جنيهات وانما كان هذا ليمتاز الامراء عن غيرهم من عامة الناس ولكى تظهر أبهتهم وعظمتهم حيث يوجد فى هذه الفلك من النظام والجند ماليس يوجد فى غيرها مما يشبه الرسميات ، وقد كنا نسمع بهذه العادة من قبل وأن أحد أمراء مصر كان قد استأجر زورقا من هذه السفينة حينما زار بعض جهات الشام رأينا أن نتبع سبيله فى ذلك ونجرى على تلك العادة اذ لامانع منها وهى علينا سهلة يسيرة ، وبينما نحن فى الباخرة ننتظر مجىء الزورق اذ رأينا مايقارب الخمسة زوارق آتية تتعاقب فى البحر بنظامها قاصدة الى موقفنا من الميناء وما اوشكت أن تدنومنا حتى رأينا فيها جملة أناس من الموظفين بين ملكيين وعسكريين فما ارتبنا وقتئذ فى أن هؤلاء قد أوفدتهم الحكومة المحلية لاستقبالنا فى مرسانا وقد كان ادرك هذه الغاية من مجىء هذا الوفد حضرة عزيزنا احمد بك العريس فأسرع الى مقابلتهم ثم جاء بهم الينا وأخذ يقدمهم واحدا واحدا ، وكان أول من عرفته منهم جناب كاتب أول أسرار الولاية وقومندان الجندرمه ومندوب الحكومة العثمانية لدى شركة السكك الحديدية ثم ناموس متصرف جبل لبنان ثم بعض أعيان مدينة بيروت وآخرين من أعضاء المجلس البلدى فيها ، وبعد أن استقربهم المجلس وقدمت لهم لفائف

التبغ، وتُبودلت بيننا و بينهم عبارات التحية والسلام، أخبرنا جناب كاتب أسرار الولاية بأن دولة ناظم باشا الوالى، وأركان الولاية وأعيانها، جاؤا لانتظارنا على المرفأ، وعندئذ لم يسعنا سوى أن نسرع فى الذهاب اليهم حتى لانشق عليهم بطول الانتظار، فنزلنا فى الزوارق بعد ماشكرنا للقبطان تيقظه فى خدمتنا واهتمامه المزيد براحتنا مدة سفرنا فى البحر غير أنّا كنا تركنا متاعنا فى عهدة أتباعنا الذين كانوا لايزالون فى الباخرة ومعهم أحد ضباط الجندرمه الذى كان قد خصص بمساعدتهم فيما عسى أن تستدعيه حاجتهم و يقتضيه ترحالهم. وكانت المسافة من حين نزولنا من الباخرة الى حين وصولنا الى الرصيف لا تزيد عن عشر دقائق مررنا فى أثنائها على السفينة الحربية التى أسلفنا أنها للحكومة العثمانية. وقد أديت لنا من أهلها مراسم التجلة واشارات التعظيم، وعند ماحاذينا المرفأ تقدّم الينا فى أول المتقدمين صاحب الدولة ناظم باشا الوالى فبادرنا بتحية القدوم وحييناه كذلك وشكرنا له معروفه وحسن عنايته. وبعد ذلك شرع يعرّفنا بمن كانوا فى انتظارنا مع دولته من عِلْية القوم ويقدّمهم لنا واحدا بعد آخر، ونحن نستقبل الكل بما يليق بمكانتهم من الاحترام فكان من بينهم جناب قومندان الموقع العسكرى و بعض العلماء يتقدمهم حضرة قاضى المدينة ورئيس المجلس البلدى

وبعض الرؤساء الروحيين ،ثم كان مصطفا على الرصيف فرقة من الجند النظامى ومعها موسيقاها، وبعد أن تصافحنا وشكرنا لحضرات المحتفلين لطفهم وحفاوتهم ركبنا مركبة دولة الوالى الخاصة التى قدمها الينا دولته وكان هو صاحبنا فيها وكان أمامنا اذ ذاك جنديان من السوارى ووراءنا أربعة منهم أيضا. وخلف أولئك كانت مركبة عزيزنا احمد بك العريس ومعه الياور محمود خيرى افندى ومركبات أخرى لبعض المستقبلين .وما زلنا نسير على هذه الهيئة الرسمية حتى وصلنا الى فندق (أوربا).وكان الطريق من الرصيف الى ذلك الفندق غاصا بالأهالى من طبقات عديدة، وقد كان سرنا جدّا من هؤلاء المحتشدين ما كنا نلاحظه أثناء السير من حفاوتهم بمَقْدَمنا وسرورهم الحقيقى القلبى الذى ما كنا لنرتاب فيه وانا لنرى البشر كان يتألق سناه على وجوههم جميعا فكنت أحييهم كثيرا نظير ما كنت اجده بين حين وآخر من ترحيبهم وحسن وفادتهم .

(فى الفنـــدق)

دخلنا الفندق وكان ينتظرنا عند مدخله صاحبه ومديره ومندوب من قبل شركة كوك وهؤلاء أرشدونا أوّلا الى الحجرات التى خصصت لأجلنا هناك حيث كنا أرسلنا قبل قيامنا من مصر اشارة برقية الى

صاحب هذا الفندق باعداد الغرف اللازمة لنا فيه. وبعد ذلك دخلنا البهو ومعنا دولة الوالى الذى كان لايزال مرافقا لنا بمجلسنا نتبادل من الحديث ما كان لايتجاوز الترحيب منه بنا والشكر مناله، وما لبثنا الا ريثما تناولنا القهوة مع دولته، حتى وفد الينا ثانية جميع الذين كانوا قد خرجوا لمقابلتنا فى الباخرة وعلى رصيف الميناء فاستقبلناهم بغاية الحفاوة شاكرين لهم تكرر الزيارة معترفين، لأصغرهم قبل أكبرهم، بذلك الجميل العظيم والمعروف الكبير، ثم مكثنا طويلا نتحدث وقد تناول حديثنا أطرافا عامة كان منها أن سألونا عن المدة التى قدرناها لزيارة مدينتهم وما كدت أن أخبرهم بأنى سأبارحهم ثانى يوم قاصدا الى مدينة دمشق، حتى نهضوا جميعا مستغربين ذلك الخبر وأخذوا يلتمسون منا بالحاح شديد أن نطيل اقامتنا بينهم، وأن أقل مايرجونه من المكث فى ضيافتهم هو أربعة أيام. واذ وجدت أن هذه المدة كبيرة لاتتفق هى وما كنت رسمته فى خطتى من قبل أسفت كثيرا لأنى لم أستطع اجابتهم على وفق غرضهم حيث كان الوقت ضيقا وكان السفر أمامنا طويلا، على أنى وعدتهم بالاقامة فى بلدهم يومين عند العودة ان شاء الله اجابة لملتمسهم ومكافأة لهم على صدق محبتهم لنا وحسن شعورهم وأميالهم نحونا، ثم استأذننا دولة الوالى فى الانصراف فرافقناه الى أن ركب

العربة شاكرين له ماأبداه لنا من العناية والاهتمام.وقد انصرف على أثره حضرات الزائرين أيضا مودّعين منا بمزيد الشكر والثناء،كل هذا والخدم لم يزالوا متأخرين وما ندرى وقتئذ اذا كانوا فى الطريق أم مابرحوا موجودين فى الباخرة.وكان يهمنا حضورهم سريعا بالمتاع وفيما نحن ننتظرهم بفروغ الصبر اذ رأيناهم يصعدون على سلم الفندق وبينهم عبد أسود كان يحمل وحده صندوقنا الكبير فعجبنا من قوة ذلك العبد لأن الصندوق كان قد وصل من الثقل الى حيث لم يتصور أن يحمله واحد فقط ولذلك أعجبنا بهذا الأسود القوى اعجابا عظيما وحينئذ مالت نفسنا أن نخاطبه ببعض كليمات ترتاح اليها نفسه ويأنس بها طبعه على عادتنا مع كل شجاع نشيط حيث إن لنا ميلا خاصا الى الشجعان الأقوياء؛ نخاطبناه بما دل على أميالنا نحوه على أننا كافأناه وأجزناه فوق اجره بما شرح صدره وسر خاطره ٠

(رد الزيارة)

وقد كنا طوينا العزم على ردّ بعض الزيارات فى هذا اليوم لمن كانوا قد خفّوا لاستقبالنا وزيارتنا مرة بعد أخرى.ورأينا أن نبادر بذلك حتى لايفوتنا أداء مااستحقه علينا أولئك القوم تلقاء مالاقيناه من حفاوتهم وكرمهم وحتى نتفرغ لمشاهدة مايهمنا أن نطلع عليه فى تلك

المدينة اذ ليست مدة اقامتنا فيها الا ساعات لذلك أوعزنا الى الفندق أن يشعر بعزمنا هذا دولة الوالى الذى استحسنا أن نرد زيارته فى دار الحكومة ودولةَ متصرف جبل لبنان الذى كان فى هــذا الحين مقيما فى مدينة بيروت وجنابَ قومندان العسكر الشاهانية وقد رأينا أيضا أن نزور هذا الأخير فى مقر سلطته وانما أشعرناهم بذلك لكى يستعدوا لمقابلتنا فى المواضع التى تخيرنا زيارتهم فيهـا ثم انى طلبت الى بعض خدمى احضار الملابس المعتادة فى الزيارات الرسمية فلبستها وكنت قد استوفيت استعدادى كله لهذا الغرض فى مسافة لاتزيد عن ربع السـاعة

نزلنا من الفندق وكنا نحسب أننا سنذهب على تلك المركبات العامة التى يستأجرها النزل لمعامليه فى ضمن مايلزمهم ولكنا وجدنا جملة عربات خاصة قد أرسل بها الينا بعض أعيان المدينة الكرام فركبت احداهــا وكان معى حضرة الفاضل احمد بك العريس وركب عربة ثانية البكباشى خيرى افندى وذلك الضـابط الذى أســلفنا أنه مندوب الحكومة لخدمتنا وكانت لنا الكفاية من هاتين العربتين ولعل السبب فى ارسال تلك العربات أنهم لم يجدوا من مركبات الايجار ما كان يوافق ركابنا فى حفلة حافلة تشخص اليهـا أبصار المحتشدين على طول الطريق

وعرضه . أما الموكب فكان رسميا منتظما حيث كان يسير خلفنا وأمامنا بعض الجند السوارى على الهيئة التى وصفناها حال حضورنا من الميناء حتى الفندق، وكان طريق مرورنا من وسط شوارع المدينة التى كانت غاصة من الجانبين بالأهالى على اختلاف أعمارهم وتفاوت أقدارهم وكان سرورى يتجدد كلما كنت أرى أولئك النــاس متشبثين بالعوائد الشرقية ومتمسكين بالملابس القديمة والأزياء الفطرية ، ثم كنت أشاهد كثيرا من العــامة يتخذون مجالسهم من المحال العمومية كالقهــاوى والحوانيت التجارية ويتعاطون من المكيفات المباحة ماجرت به عوائد معظم الناس فى جميع الجهات تقريبا ، فمنهم من كان يدخن بالانابيب التى تصنع عادة من أغصان الياسمين وتحلى مباسمها غالبا بالكهرمان الاصفر الجميل ، وهى عين ما كان يستعمله المصريون للتدخين من عهد غير بعيد ويسمى فى متعارف أصحاب الكيوف بالشبك ومنهم من كان يدخن بالنارجيل على نحو مايشاهد فى القهاوى فى مصر غير أن استعمال هذا النوع فى بلاد الشام أكثر منه فى البلاد المصرية ، وبعضهم كان يتعاطى القهوة وآخر يشرب الشاى الى غير ذلك ممــا يشبه أن يكون نسخة طبق الأصل من عوائد المصريين فى بلادهم ، ولهــذه المناسبة نذكر هنا كلمة عن الاخلاق مما تعرفناه فى تلك الرحلة لعل

القارئ يدرك منها نسبة مابين العناصر الشرقية بعضها الى بعض على
مابينها من تباعد المواطن وشتات الاماكن وتباين الأسباب والعلل
واختلاف الملل والنحل ثم نعود فنذهب فى طريقنا ان شاء الله

استطراد فى الطريق الى بحث أخلاقى

ان ماصادفناه من عوائد أولئك الشاميين فى محافلهم ومجالسهم ليس
فى الغالب مما يختص بالشاميين دون سواهم بل هو يكاد يكون عاما
يشاهده الانسان فى جهات كثيرة ويعرفه فى عوائد أكثر الآدميين
الشهيرة . غير أن الناقد الذى يتبين فاضل الاشياء من مفضولها ويميز
أجناسها من فصولها ويرجع بفروعها الى أصولها عند مايعنى بالتنسيب
ويقايس بين اخلاق أهل الشام وبين اخلاق أهل مصر لايجد من
مسافة الفرق بينهما بعد مايجده من غيرهما ولا نستغرب أن نجد أن
مجموعة العوائد والأخلاق فى الشام تشبه من معظم الوجوه مجموعتها
فى مصر اذ كان الشرق أبا القبيلين ومربيهما معا . على أن علة اكتساب
الأخلاق والصفات لابد أن ترجع الى اختلاط الناس وامتزاجهم
بعضهم ببعض مهما اختلفت مطالع الشموس وتباينت منازع النفوس
وانه كما قد تتقوى العلائق وتتوثق الروابط بين الناس وتتضاءل
وتضعف على نسبة مايكون من المعاشرة ويقع من الاختلاط قوة

وضعفا وكثرة وقلة، كذلك يكون الحال فى تشابه أخلاق الناس وعاداتهم سواء فى ذلك ما كان من التشابه بين الآحاد والأفراد وما كان منه بين الأمم والجماعات. ومن أجل هذا نشاهد أن كثيرا من الغربيين قد أكسبهم طول العشرة لأهل الشرق خُلُقا غير خُلُقهم وعادة خلاف عادتهم حتى تراهم فلا تكاد تفرق بينهم وبين الشرقيين الا فى قليل مما قويت فيه ملكاتهم وفُطِرت عليه غرائزهم، كما أنا نرى مثل ذلك فى كثير من أبناء الشرق وما كان يكون هذا أصلا لولا شدة الاختلاط وطول المعاشرة، وان كنا لا ننسى أيضا أن من المراجع القوية والأسباب المهمة فى ذلك عشق العادة والميل الى تقليدها فى الغير كما يشاهد فى كثير من المقلدين الذين بالغوا فى تقليد الأجنبي الى حدّ أنهم عادَوْا عوائدهم وكرهوا تقاليدهم على أنه كثيرا ما ينطبع فى بعض الناس خلق غيره ويقوى فيه الى درجة أن يصير منه بمنزلة طبعه وسجيته وعَدْوى الطبائع معروفة، كعدوى الأدواء سريعة الانتقال صعبة الزوال. ومن ثم كان ينبغى أن يحتاط الانسان ما أمكنه من مجالسة ذوى النفوس الخبيثة والاخلاق الرديئة وأن يتخير أصحابه وذوى مجلسه دائما من الحكماء والأدباء وأرباب النظر البعيد والرأى السديد، فانه ما أخلق صاحب هؤلاء أن يستفيد دون أن يخسر، وأجدر جليس

الجهال والسفهاء أن يخسر دون أن يستفيد ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر العربى :

مجالسة السفيه سِفاه رأى ❁ ومن عقلٍ مجالسة الحكيم
فانك والقرين معا سـواء ❁ كما قُدَّ الأديم من الأديم

ويقول آخر :

لا تصحب الكسلان فى حالاته ❁ كم صـالح بفساد آخَرَ يفسـد
عدْوَى البليد الى الجليد سريعة ❁ والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

وبالجملة فان الانسـان من حيث هو انسان له من أصـل فطرته استعداد تام لقبول كل مايدخل عليه من خير أو شر فمثله كمثل المرآة تنطبع فيها صورة مايعرض عليها من حسن أو قبيح ، لذلك هو يستطيع أن يتحوّل كيف شـاء متى شاء ، فالشرقىّ الذى نبت فى صميم الشرق وتربّى على مبادئه يمكنه أن يكون وقتا ما مضاهيا لأبنـاء الغرب حتى كأنه رضع مع ابن الغربية من ثدى واحد ، وما كنا لنستغرب أن نرى أبناء الشام يشبهون أبناء مصر فى تقاليدهم وعوائدهم ونحن ندرك مابين الشعبين من كثرة الاجتماع وشدّة الاختلاط لأسباب ووجوه متعدّدة منها تبادل التجارات الشرقية واتحاد اللغـة وقرب الجوار ذلك فضلا عن كونهما من الحكومة العثمانية بمثابة عضوين من جسم واحد .

عود الى بدء

هذا وقد كنت أرى قطرات من الخيل تمر فى طرق المدينة مثقلةً بالاحمال، كما تسير قطرات الابل فى بلاد العرب فأستأنس بهذا المنظر الشرقىّ وأرتاح له ارتياح الظمآن عندرؤية المـاء،حتى اذا نحن وصلنا الى سراى الولاية التى كانت واقعة فى وسط المدينة (وقد ألفيناها من الخارج كبيرة الحجم ضخمة البنـاء الا أنها كانت بسيطة المنظر لايرى عليها من الوشى والزخرف ولا من جمال الزينة ماتحلى به عادة قصور الحكام وبيوت الأمراء) أشرنا الى من كان معنا من الجند بانتظارنا لدى الباب الذى دخلنا منـه حيث هناك كان القراه قول يؤدى لنـا مراسم التحية والاجلال وما أوشكنا أن نصعد على سُلَّم السراى حتى كان قد استشعر دولة الوالى بقدومنا فخرج لاستقبالنا فى الحال وسار بنا الى البهو الكبير حيث جلسنا هناك وقتا نتحدث بعـدأن قدم لنـا دولة الباشا الوالى جملة من كبار الموظفين فى دائرة الحكومة،وقد تناول حديثُنا مع دولته عدّة مواضع أذكر أنى سألته فى خلالها عما اذا كان يحسن بمثلى أن يطوف على بعض جهات المدينة ليرى آثارها وعجائبها، وأن يختلط فى هـذه البلاد ببعض القوم اذا هو أراد أن يجاملهم بردّ زيارة أو اجابة دعوة أو مايشبه ذلك مما قد يحصل عادة بين الضيف

والمحلى .على أنى ماقصدت من رحلتى الى بلاد سوريا سوى تبديل الهواء والتنزه طلبا للصحة والوقوف على آثار الشام وغرائبها لكى أضم ماأعرفه منها الى ماسبق لى أن عرفته من البلاد الأخرى .وانى أخشى اذا أنا فعلت شيئا مما ذكرته أن تتشوش الحكومة العثمانية منه أو أن ينالنا من قبلها شئ ،وقد بادرنى دولته بانى أكون مطلق السبيل فى سياحتى وأن ليس على حرج أن أزور من الناس من أحب وأن أتجول من جهات المدينةوضواحيها فيما أريد ،وحينئذ تبادلنا عبارات الشكر والثناء .أما دولة ناظم باشا فقد رأينا منه فى ذلك المجلس الصغير رجلا رشيد السياسة سديد الرأى غاية فى الذكاء والفطنة وديع النفس لين العريكة لايشك محدثه فى أنه تربى فى حجر الفضيلة تربية صحيحة واستفاد من احتكاكه بسياسة الشعوب وتقلبه الكثير فى أرقى مناصب الحكومة خبرة واسعة وعلما غزيرا.وبالجملة فانه من أعظم رجال الحكومة العثمانية كفاءةً واستعداداً الادارة شؤن البلاد وسياسة الرعية .ثم اننا وجدنا فى تلك السراى من كثرة المستخدمين والزائرين ما كان يدل على شدّة الحركة وتواصل العمل

(زيارة متصرف جبل لبنان)

بعد ماانقضت زيارتنا لدولة الوالى توجهنا مودّعين من دولته بكل

حفاوة الى دار صاحب الدولة يوسف باشا متصرف لبنان.وهى مكان
جميل المنظر قائم على مرتفع من الارض فى بقعة من بيروت تعرف
بالروميلى.وهناك توجد أيضا مساكن قناصل الدول وكراة المسيحيين
وأعيانهم ثمَّ استُقبِلْنا عند مدخل السراى بفرقة من العساكر ومعها
موسيقاها.وقد أعجبتَ كثيرا بارتداء هؤلاء الجند السلط والسراويل
وبأنهم رجال ضخام الاجسام طوال القامة تبدو عليهم علائم القوّة
والشجاعة حتى لايرتاب رائيهم فى أنهم من نخبة الشجعان وصفوة
الفرسان.وكان أوّل من استقبلنا عند الدخول دولة المتصرف وكاتب
أسراره حيث دخلوا بنا فى ردهة الاستقبال،واذ ذاك عرف الينا قرينته
على عادة الغربيين فى التعارف .أما هذه السيدة المصونة فكانت ذات
جمال نادر وذكاء باهر وبين جنبيها نفس مهذّبة وأخلاق كريمة
وأما دولة الباشا فقد كان يزيد على اللطف والوداعة محبة واخلاصا
لنا ولعائلتنا مما استوجب شكرى لها وامتنانى منهما.وكان دولته يودّ كثيرا
أن تطول اقامتنا فى جبل لبنان ليكرم وفادتنا ويحسن ضيافتنا هناك
فسررت منه جدّا خصوصا عند ماعرفت منه رجلا فاضلا محنَّكا قد
اكتسب بالتجارب الكثيرة والتقلب فى خدمات الحكومة خبرة تامة
وسياسة رشيدة كما أنه قد استفاد من التربية الصحيحة والتعليم العالى

لطفا وأدبا غير أن الظروف كانت لاتسمح لى بأكثر من اجابته الى تناول طعام الغداء عند دولته فى ظهر اليوم الثانى ثم بارحنا دارهم حيث كانت تحيينا الجنود فى الوداع بمثل ما كانت حيتنا به عند الاستقبال مودّعين من لدن دولة المتصرف وجميع من كان معه بغاية الحفاوة والاحترام .

(زيارة القومندان)

ومن هناك ذهبنا الى القشلاق حيث فيه مركز جناب قومندان الموقع العسكرى فى حكومة بيروت، وهو بناء فخم جميل واقع على ربوة . وحينما وصلنا الى هذه الثكنة حيتنا الجنود عند مدخلها وأدّت لنا مراسم التعظيم كالعادة وقد أخذنا مجالسنا فى البهو الكبير منها، وهناك رأينا ساعة كبيرة تدق للساعات العربية والافرنكية، ووجدنا أيضا صورة امبراطور الالمانيين ملونة بالزيت على جرمها الطبيعى يحيط بها إطار يقرب طوله من ثلاثة أمتار وعرضه من مترين ونصف . فاستغربت جدّا أن أرى فى هذا المكان صورة امبراطور المانيا ولا أرى صورة ملك البلاد وسلطانها وليس موضع الغرابة من هذا إلا أن القوم مسلمون من حكومة سلطانها مسلم، وهم مع ذلك يحتفلون بصورة غير سلطانهم ويعلقونها على جدار ذلك القشلاق فلم يسعنى حينئذ

غير أن أسأل جناب القومندان لماذا وجدت هنا هذه الصورة دون صورة السلطان. فقال ان جلالة الامبراطور حينما ساح سياحته فى البلاد الشامية وجاء الى بيروت تخير منزله فى تلك الثكنة حيث أعدّله مكان خاص أقام فيه مدة وجوده فى هذه المدينة وقد منح جلالته المكان هـذه الصورة لتكون تذكارا له فى ذلك القشلاق هذا وأقول لعل جلالة الامبراطور قدراق لعينيه ضخامة المحل ونخامة شأنه فلم يشأ أن يبارحه بذاته و يفارقه بجسمه حتى يحل فيه بصورته ورسمه ثم بارحنا جناب القومندان بعد أن وُدِّعنا منه ومن رجاله بمثل ماقوبلنا به حيث قصدنا الى الفندق، وقد كان جاء ميعاد الغداء الذى ما كدنا نستريح بعده حتى وفد الينا جمهور كبير من المسافرين بقصد زيارتنا

(حديث مع بعض التلاميذ)

وكان بين أولئك الوافدين بعض طلبة المصريين فى كلية الامريكان ومدرسة اليسوعيين، فاستقبلناهم بما يليق بهم من الحفاوة والاكرام، وقد مكثوا فى مجلسنا زمنا غير قليل كان حديثنا فى أثنائه يدور غالبا على نظام التدريس والتعليم فى المدارس والكليات النظامية، وكنت أشجعهم على طلب العلم، وأحثهم على المثابرة والجدّ فى تحصيل الواجبات المدرسية على شريطة أن يقرنوا خُطاهم فى سبيل تلك الغاية

الشريفة بالنية الصحيحة والفكرة الصالحة وهناقلت لهم: ان طلب العلم وان كان فى حدّذاته هو أسنى مطالب الانسان وأسمى رغائبه فى تلك الحياة بل العلم هو وحده الأساس الذى لا اعتماد للسعادة إلا عليه والأصل الذى لا استناد للفضيلة الا اليه غير أنه لما كانت منافعه متعدّدة وفوائده متفاوتة كانت نوايا الناس اليه مختلفة ومقاصدهم نحوه متباينة . فمن فريق يطمح الى تحصيل الأعراض الزائلة والأغراض السافلة . ومن فريق آخر يطمع فى تكميل عقله وتثقيف فكره الى غير ذلك من المطالب الكثيرة . فمثل العلم كمثل الشجرة العظيمة اذ يقصد اليها جماعة من الناس وكل له منها مقصد معين فواحد يريد ظلها وآخر يبتغى أغصانها وآخر يطلب ثمرها ولقد يصدق على الجميع أنهم يطلبون الشجرة ، ولكن شتان ما بين طالب الظل منها وبين طالب الثمرة . فأنا أنصح لكم معشر التلاميذ النجباء أن تصرفوا كل همتكم الآن فى تحصيل المعارف والعلوم التى حبستم عليها شبابكم والتى من أجلها هجرتم أوطانكم وتركتم أهلكم واخوانكم . وأن لا يبرح عن فكركم أبدا أن لأمتكم عليكم حقوقا يجب أن تجعلوها دائما نصب أعينكم وأن تجتهدوا مااستطعتم لأدائها عند ما تطلب منكم ، وأن لا تجعلوا لزخارف الدنيا وأعراضها سلطانا على أنفسكم فتملككم وتغلبكم على أمركم . وأن تشتغلوا بالعلم

قصدا اليه نفسه وحبًّاله لذاته لا لأن يكون وسيلة الى غاية منحطة ولا مقدّمة الى نتيجة فاسدة فانكم أفطن من أن ألفتكم الى أن العلم ليس مفيدا حيثما كان بل قد يكون مضرا فى بعض الأحيان، وكثيرا ما يتجاوز ضرره صاحبه الى غيره . وأنتم أيضا، فوق أن تنبهوا الى ما كان من علماء الغرب الذين ظهرت فوائد علمهم الغزيرة وثمراته الكثيرة فى الاقتراحات العديدة، والاختراعات المفيدة التى نحن الآن متمتعون بها فى كثير من أمور حياتنا الفردية والاجتماعية ، مما جعل هؤلاء العلماء تفتخر بهم بلادهم وتشتهر بأسمائهم جهاتهم حتى استحقوا أن يحمدوا ويشكروا من كل من عرف قيمة الحياة وأدرك سر الاستعمار، ثم قلت لهم انه يسوءنى كثيرا أن أرى أناسا يضيعون زهرة شبابهم فى التعليم على قصد أن يكونوا يوما ما مستخدمين فى الحكومة، أو من أهل الثروة واليسار فى البلاد، أو ممن يطمعون فى الامتيازات العرضية كالرتب والنياشين والألقاب. نعم يسوءنى ذلك لأنى أجد القسم الاول لم يستعمل فكره ومواهبه الا فيما تقتضيه منه شؤون الحكومة، فتتضاءل مداركه وتتعطل مواهبه ثم لا يلبث أن تنحصر معلوماته الواسعة فى دائرة أضيق من صدر الأحمق . وأما القسم الثانى والثالث فقد أرادوا غاية دون ما كان ينبغى أن يطلب بالعلم ويذهب اليه من طريقه اذ أن الرتبة

مثـلا اذا لم تكن عنوان ما فى نفس صاحبهـا وشعارا للتربية النافعة
والتعليم الصحيح، فلا قيمـة لها حتى ولا بين قومه وعشيرته .أما الذى
يضمن للمرء عزه فى كل مكان ويستوجب احترامه من كل انسان
ويجعله دائما فى الصف الاول، ومن العز فى المحل الأرفع والمكان الذى
لايتحوّل فانما هوالعلم الصحيح .أقول الصحيح لأن كثيرا من العلماء لم
ينفعهم علمهم فى تحصيل ما قد أرادوه من سبيله فاتخذوا منه مطية
الى الشقاءوسبيلا الى الضلال .ومن أمثال هؤلاء تستنبط الحيل وتدبر
المكائدالتى بها تفشو المضـارّ وتكثر المفاسد .وأنه لا غرابة أن يكون
العلم سببامن أسباب الشقاء وهو بعينه أصل السعادة وطريقها مادامت
تختلف عليه نوايا العاملين وتتفاوت فى طلبه مقاصـد العالمين .وانى
لاأحدثكم بألذ من عيش العالم العاشـق للعلم فلقد تمرّ عليه الحوادث
والعاديّات فيطلع عليها وهى لاتنال منه الا ريثما تنال الصور المتحركة
والخيالات العـادية عن الحقائق .فمثل هذا يعيش ما قدر له أن
يعيشه فى هذه الدنيامرتاح القلب مطمئن النفس لا يفرح بشئ يأتيه
كما لا يأسف على شئ يفوته، لأن ثروته كلها فى العلم فهو به فى غناء عن
كل ماعداه وهكذا كنت أبث نصائحى للتلاميذ كلما دخلت مدرسة
من مدارس الشـام وقد كنت ألفتهم الى ما كان للشرق فى التاريخ

الأول من المجد والعز وسعة نطاق المعارف وكثرة الصنائع والحرف مبينا لهم أن بناء الشرق الشامخ وشرفه الباذخ لم يكن قائما الا على أساطين الحكمة وعماد الفضيلة، فاذا كنا نحس الآن بنقص عظيم فى علومنا الحيوية وحاجاتنا الضرورية فانما ذلك لأن الشرق ما زال لم يعوّض ما كان فقده من علمائه وحكمائه الذين أخلصوا فى خدمته وتفانوا فى العمل على سعادته الى أن قلت لهم إذًا يجب عليكم بوصف أنكم رجال المستقبل، أن تستصحبوا دائما فى عملكم نية أن تكونوا أوّل العاملين على رقىّ البلاد واعلاء شأنها، وأن تسدّوا منها هذا الفراغ العظيم وتكملوا فيها ذلك النقص الكبير وما ذلك على همتكم ونشاطكم بعزيز، هذا خلاصة ما دار بيننا وبين الطلبة من الحديث، وقد سرنى منهم كثيرا أنى كنت أجدهم مصغين غاية الاصغاء لما أقول وان نصائحى نالت من نفوسهم غاية الاستحسان والقبول، وقد زادنى اعجابا بهذه النشأة الطيبة ما أظهروه لنا من المبالغة فى حب عزيزهم أمير البلاد وتعلقهم الشديد بعرشه السامى واخلاصهم الكبير لذاته الكريمة كما هو الواجب على كل شعب لأميره وحاكمه نعم وكما هو الواجب الذى ينبغى أن تتربى عليه النفوس من صغرها حتى ينتقش فيها ذلك فلا تحته الدسائس ولا تنحته الوساوس، ثم انهم عند ما هموا بالانصراف قدّموا الينا قانون جمعيتهم

معنونا بقـانون جمعية التلاميذ المصريين فى كلية الأمريكان ومصدّرا بصورة سمو الجناب العالى الخديوى،وسنذكر ان شاء الله هذا القانون بنصه فى خاتمة الرحلة ليعرف منه حضرات القراء أسماء أعضاء الجمعية وما اشتمل عليه من المواد، وقد قابلت منهم ذلك الاهداء الجميل بالثناء العاطر والشكر الجزيل، ودعوت لهم الله أن يكلل مشروعهم بالنجاح ويتوج عملهم بالفلاح .و بعدذلك خرجوا من عندنا جَذِلين مسرورين على أن سرورنا، اذ رأينـا أدبهم ونشاطهم كان فى وزن فرحهم أو هو يزيد، كيف لا، وان أقل ما كان يقتضيني أن أسر حينئـذ أنى قابلت شبيبة بلادى تجاهد فى سبيل العلم مجاهدة الابطال، وانها لقد تركت وراءها من أجل استحصاله كل مرتخص وغال ،ورجوت أن يكون ما تظـاهر به أولئك الطلبة النبهاء من محبة مولاهم ومحبتنا غير مشوبة بشائبة النفاق والرياء، وأن يكون ليس من نوع المحبة العارضة بسبب البعد والاغتراب ولا من قبيل ذلك النسب الذى انتحله امرؤالقيس فى قوله وقد أناخ بعسيب

أجارتنـا ان الخطوب تنوب ۞ وانى مقيم ما أقام عسـيب

أجارتنـا إنا مقيمان هاهنا ۞ وكل غريب للغـريب نسيب

(زيارة المدرسة الحربية)

توجهنا فى شباب يوم الاحد ٢٣ ربيع الاول سنة ١٣٢٨ الى زيارة المدرسة العسكرية الابتدائية وكان موقعها من المدينة فى قسم الباشوره وهى تحتوى على سبعين تلميذا تقريبا يبلغ سن الواحد منهم من سبع سنين الى أربع عشرة سنة.وقد طفت على كل فصول هذه المدرسة ودوائرها وكان المعلمون يختبرون التلاميذ أمامنا فيما يتدارسونه من العلوم الجغرافية والهندسية والتاريخية وغيرها جريا على العادة فسُررنا من نجابة التلاميذ واستحضارهم ثم تعهدنا غرف النوم ومواضع الأكل والطبخ أيضا فسرّنا اختيارها ونظافتها سرورا بليغا ولذلك أثنيت حميد الثناء على القائمين بشؤن هذه المدرسة عموما خصوصا الاساتذة الذين ظهر لى حسن عنايتهم بتربية الطلبة وتعليمهم مما كنت أراه من اجابتهم السارّة على أسئلة أولئك المعلمين .غير أنى لاحظت شيأ واحدا هناك وهو عدم تمرين التلاميذ على حمل السلاح وتعويدهم عليه فى صغرهم وشباب عمرهم مع أن المدرسة حربية وكان يجب أن يوجد ذلك فيها بل أن يكون من أوّل دروسها وأهم حصصها وقد سألتهم عن سبب هذا النقص المحسوس.فأجابونى بما كان لا يلاقى اعتراضى عليهم قالوا إن المدرسة ابتدائية وان التلاميذ أحداث صغار ،

وقلت ان المدارس الحربية الإعدادية فى الجهات الاخرى تعطى أبناءها السلاح فى ضمن مايتعاطونه وهم صغار لينشؤا على حبه و يتمرّنوا على حمله ولكى تتربى فيهم من حال الصغر ملكة الشجاعة وتغرز فى سجاياهم القوة والجراءة ومن ذلك يستشعر التلميذ من نفسه بالشهامة والاقدام نعم لاننكر أن الجيش العثمانى من أقوى الجيوش وأشجعهم قلبا وأشدّهم بأسا اشتهر ذلك عن هذا الجيش حتى إنه لا يوجد على ظهر المسكونة أحد يجهله أو يرتاب فيه,غير أن الواجب انما هو البلوغ بالانسان الى الحدّ الأكمل من كل فضيلة,وبدل ما ان يقال الجندى العثمانى شجاع والجندى الفلانى أشجع منه يقال على العكس من ذلك,وما العمل لتحصيل هذا بالامر المستحيل ولا هو بالصعب أيضا .

(المدرسة الملكية)

ومن هناك ذهبنا الى المدرسة الملكية حيث كانت الساعة ١١ افرنجية فاستقبلنا على مدخلها جناب ناظر المدرسة وأساتذتها و بعض متخرجيها وفريق من عِلْية القوم.واذ ذاك صدحت الموسيقى المدرسية بالسلام والنشيد الوطنى أما نحن فدخلنا ردهة الاستقبال بينما كانت التلاميذ يحيوننا ويهتفون لنا بالدعاء. وما كدنا نستقر فى مجالسنا حتى قام أحد التلاميذ ورحب بنا بخطاب تركى ثم نهض بعده الاستاذ يوسف

افندى حرفوش فتكلم بالنيابة عن الأساتذة والمعلمين بما لم يخرج عن تهنئتنا بالسلامة عقب السفر والترحيب بزيارتنا لتلك المدرسة غير أن خطابه كان باللغة الفرنسية ثم أعقبه على الفور جناب بشير افندى قصار وألقى مقالة بليغة استهلها بقصيدة غراء قال فى مطلعها :

ته نخارا يا معهد العلم واسمو ❁ بأمير الأخلاق خير الوفود
بأمير الصفات وابن أمير ❁ بكريم الآباء بعد الجدود

ومنها ،

قد أتى معهدا يزور بنيه ❁ فتبدّوا منه بعزم جديد
معهدا قدمضت عليه سنين ❁ سائرا فى سبيله المحمود
معهدا أشربت قلوب بنيه ❁ أن تنادى فى العلم هل من مزيد

ومنها وهو ختامها

ان يوما قدزرت ذا الربع فيه ❁ هو لاشك عندنا خير عيد

وقد تكلم فى خطابه عن المدرسة ومسيرها مدة ستة عشر عاما منذ افتتاحها وهى متبعة سُنَّة النمو والارتقاء التدريجى، وما أوشك أن ينتهى من ذلك حتى نهض أحد التلاميذ بالنيابة عن الجمعية العلمية فأهّل بنا ورحّب وذكر خطة الجمعية وبين غاية ما تسعى اليه، ثم قدّم لنا رسمها تذكارا لزيارتنا لها وحينئذ قمنا فصافحنا حضرات الخطباء وشكرنا

لجناب الدكتور صاحب القصيدة معروفه وأدبه وحسن خطابه وقلت له لست أشكرك لمدحك اياى ولكن لذلك الفكر الصائب الذى أبديته من وجوب تنشيط المعاهد العلمية ثم أخذنا ندور على دوائر المدرسة ونتعهد فصولها وقد زرنا القسم الاستعدادى واختبرنا بعض صغار التلاميذ فيه فسررنا جدًّا من نجابتهم واستعداهم ثم عدنا ثانية الى قاعة الاستقبال حيث كانوا ينتظروننا بالمرطبات وهنا لك أثنينا على رقىّ هذا المعهد العلمى وقلنا لرئيس المدرسة الاستاذ الشيخ احمد افندى عباس: ان الواجب الاول فى التعليم هو الاعتناء بتربية الأخلاق الكريمة فى نفوس التلاميذ وحضهم دائما على الاشتغال بالعلم للعلم نفسه حتى لا يتجهوا فى طريق التعليم الى غاية أخرى. وقد أجابنا حضرته بما معناه ان هذه الرغبة الحميدة هى عين الغاية التى تسعى اليها المدرسة منذ نشأتها ثم بارحناهم شاكرين لهم ما لاقيناه من عنايتهم ومعروفهم

(نزهة فى الضواحى)

ذهبنا ومعنا عزيزنا الفاضل احمد بك العريس لنقضى وقت العصر فى التنزه ببعض الجهات التى كنا لم نشاهدها فمررنا بعربتنا فى ضواحى المدينة وكنا أثناء السير نرى من مناظر الطبيعة مالا نقدّر حسنه خصوصا.

عند الرجوع فان سبيلنا اذ ذاك كان من الطريق القديم الموصل مابين
بيروت ودمشق.وقد صادفنا ونحن سائرون غابة كبيرة من شجر الصّنوبر
كان قد أمر بغرسها جدّنا المرحوم ابراهيم باشا الاكبر وسبب ذلك
على ما علمناه من حديث القوم هنالك أنه قبل أن توجد هذه الغابة كان
مرض الحمى متفشيا فى المدينة يفتك بأهلها فتكا ذريعا فتوجهت
همة المرحوم ابراهيم باشا الى مطاردة هذا الداء الخبيث بذلك الغرس
الجميل الذى من خواصه تطهير الهواء وامتصاص المواد العفنة التى
كان يتسبب عنها هذا الداء وقد تم له بسبب ذلك ماأراد،وقد وجدنا
فى طول هذه الغابة وعرضها طرقا منتظمة جميلة المنظر يقال
ان الذى أنشأها هو المرحوم اسماعيل بك كمال (الذى اشتغل كثيرا
فى مسألة استقلال الالبانيين) حينما كان واليا فى ولاية بيروت.وقد
مررنا أيضا بجملة حدائق بهيجة كان أكثر غرسها من شجر البرتقال
والليمون والتوت.وفى أثناء الطريق وجدنا مقابر عدّة بعضها لليهود
وبعضها للمسيحيين حتى اذا كنا على مقربة من حديقة افرنكو باشا رأينا
قبر المرحوم الشيخ احمد فارس ذلك العالم المشهور الذى يقال انه
اعتنق الدين الاسلامى أخيرا ومات عليه بعد أن اعتنق جملة أديان
وتقلّب على عدّة مذاهب.وهو صاحب مجلّة الجوائب المعروفة،وله

غيرها كثير من التآليف النافعة منها الجاسوس على القاموس فى فن اللغة وكتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق وهو كتاب جميل ضخم فى علم الادب،ثم قصدنا الى الفندق من داخل البلد حيث كنا فى وقت الغروب وعلى ذلك انقضت سحابة اليوم وفى صبيحة اليوم الثانى جاء الينا جماعة من أهل بيروت ومعهم خيل اختاروها بقصد أن يطلعونا عليها على أمل أن نبتاعها منهم حيث كانوا قد سمعوا من قبل بميلى الى اقتناء جياد الخيل وقد كنت أود أن أجد منها ما يعجبنى فأشتريه ولكنها مع مزيد الاسف كانت عادية لا تمتاز عن غيرها بحال فضلا عن كونها مجهولة الاصل ولذلك لم يرق فى نظرى شئ منها على خلاف ما كنت أحسَبُ ،

وكان علىّ بعض زيارات لعِلْية القوم فى المدينة فأرسلت أحد الحاشية وأرسلت معه جملة من بطاقات الزيارة لينوب عنى فى ذلك اذ كان لايمكننى أن أؤدى هذا الواجب.وقد حضر لزيارتنا فى الفندق حين ذاك عدد جم من أهل الشام وكان من بينهم جملة من حضرات الرؤساء الروحيين ثم حضر أيضا أحد أصحابنا (البلونى المسكوفى كونت برانتيسبيسكى) أحد عظماء بلاد الروسيا وأغنيائها وأشهر غواة الخيل العربية فيها،وكان قد جاء الى الاقطار الشامية هذه المرة لغرضين أحدهما

زيارة بيت المقدس والثانى البحث عن الخيل العربية الاصيلة،وقد أخبرنى جنابه فى ضمن حديثه أنه لم يجد من بين الخيل الشامية والعربيّة التى اطلع عليها فى تلك السياحة ما كان يستوجب العناية أو يستحق الشراء، ولذلك عدل عن الغرض الاخير الذى وفقت الصّدفة بيننا وبينه فيه ،وقد كنت مسرورا من حديث هذا الشيخ الكبير ومجلسه وليست هـذه أول مرة اجتمعت فيها بجنابه لانى كنت عرفته قبل هذه الزيارة فى مصر وآنست منه نفسا عالية وطبعا رقيقا وكمالا وأدبا وما أجدر الشيخ الهرم أن يكون متحليّا بالآداب ومتجملا بالفضائل وان صاحبنا هذا كان قد طالع الثمانين وولاها ذنبا ثم انه قضى معظم هذا العمر الطويل فى سياحة الممالك والبلاد طولا وعرضا فاستفاد معرفة كثير من الامراء والعظماء كما استفاد خبرة واسعة بمعرفة الاخلاق والعوائد القومية المختلفة وكان قدزار مصر مع والده على عهد المرحوم محمد على باشا الكبير واصطادا تمساحا من بركة الازبكية قبل أن يصل اليها بالطبع هذا العمار الباهر، ثم هو لا يزال يتردّد على القاهرة فى كل شتاء،واننا نشكر الصدفة الجميلة التى جمعتنا بهذا الشيخ الجليل فى فندق من فنادق الشام على غير موعد

(غريبــة فى بيروت)

وانه بينما كنت أنقب عن الخيل الاصيلة وأبحث عنها فى المدينة وغيرها لأشــترى ما يعجبنى منها اذ أخبرت أن شابا انجليزى التبعة يدّعى أنه يعرف البلاد ويتعشق الخيل و يقتنيها يريد أن يقابلنى فأذنت له وكانت هيئته وحركاته فى سلامه وكلامه تدل على أنه رجل عاقل مهذب ظريف ثم انى افتتحت حديثى معـه بشأن الخيل التى توجد فى جهات الضواحى وسألته أىّ الجهات التى تعرف فيها وجود الخيل الكريمة وأى الناس أعظم شهرة باقتنائها من العرب وغيرهم ؟ فقال ان لى أصحابا كثيرين من دروز حوران وعرب روله الذين يقطنون بالقرب من مدينة دمشق وهؤلاء أعرف الناس بالخيل وأبعدهم صيتا فى حيازتها ثم دار بينى و بينه من الكلام والبحث ما عرفت منه أن هذا الشاب ملم حقيقة بموضوعنا وله معرفة تامه بحسن الخيل وقبيحها وجيدها ورديئها فقلت فى نفسى الآن وقعت على خبير عارف وسأبلغ ان شاء الله بواسطة هذا الشاب النشيط مأربى من خيل الشام ثم عدنا الى الحديث مسـتطردين الى ذكر بعض أمور عامة تتناول الموضوع الذى جاءنا بصدده وغيره فكان منها أنه غزا فى وقائع كثيرة وأنه مرة كان يكون مع الدروز وأخرى يكون فى صف العرب وانه يجيد النطق

باللغة العربية ويحسنها حتى كأنها لغته الى غير ذلك. ثم انى سألته عن غايته من مجيئه الينا ومقابلتنا وأنه لم يسبق لى به معرفة ولا كلام فقال بكل رزانة وأدب: انه لم يبعثنى على التشرف بمقابلة دولتكم سوى أن أتشرف بخدمتكم فيما عسى أن ترغبوا شراءه من خيل تلك البلاد أو غيرها. وأن لدىّ خيلا لبعض الناس أريد أن أطلع دولتكم عليها لعلكم تجدون منها مايطابق غرضكم ويوافق رغبتكم. فقلت له: وأين توجد هذه الخيل ؟ واننا بحثنا كثيرا فلم نجد ما كان يروق لنا شراؤه فقال: انى أعرف من تلك الخيل حصانين فى حوران. فقلت: كان بودّى أن أراهما ولكن مع الاسف ليس عندى الآن من الوقت مايسع أن انتظر ريثما تجىء الخيل من جهة بعيدة عن بيروت أو ضواحيها لانى عازم على زيارة دمشق ولم يبق الا ساعات قليلة. فقال: اذا كان لابد من السّفر فان أمامنا حصانين آخرين فى بعض الجهات القريبة من دمشق، ومن السّهل جدّا أن أسافر واستحضرهما لدولتكم عند ماتشرفون هذه المدينة. وان هذين الحصانين لايقلان حسنا وشهرة عن الحصانين الاوّلين. ولمّا لم يكن ثمت مانع من ذلك تفاوضنا معه فيما ندفعه أجرا له على سعيه وتعبه وانتهينا على أن يتقاضى منا جنيها واحدا فى كل يوم حيث يكون منه أيضا أكله وشربه ومصاريف سياحته

سفرا واقامة حتى تتم مأموريته التى أنطناه بها وقد كان علم أن سفرنا من بيروت سيكون فى صباح اليوم الثانى فأراد أن يزج بنفسه فى حاشيتنا ويسافر معنا ومن أجل ذلك سألنا هــل ترون من اللازم أن أستبدل مـــلابسى بزىّ عربىّ أو لبوس عادىّ لكى أحظى بشرف السـفر فى معيّة دولتكم فى القطر الذى تسافرون فيه ؟ فأجبته بأن سفرنا فى هذه السّياحة ربما لا يسمح لنا بمرافقة عدد أكثر ممن سيسافرون معنا وربما لاتحب الحكومة العثمانية أن ترى فى ضمن رفاقنا أحد رجال الانجليز على أننا لانرى هناك من ضرورة لأن تكون فى هذا السفر من جملة حاشيتنا وأنت تعرف أن القطار غير خاص بنا وأن فى عرباته الكثيرة سـعة لك ولغيرك من المسافرين فانزل منه فى أىّ عربة تريد ثم اذا جئت دمشـق فانزل منها أيضا فى أىّ فندق تحب وتختار وعلى ذلك انصرف الرجل ونحن لانعرف من أمره سوى أنه عاقل نبيـه ووادع مؤدب وسنذكر بقية قصته فى فندق دمشق ان شاء الله

(الى متصرّف لبنـان)

ما كادت تتوسّـط الغزالة حتى كنّا أخذنا زينتنا وأعددْنا عدّتنـا للذهاب الى سراى صاحب الدولة يوسف باشا فرانكو متصرف لبنان السّابع . فركبنا من باب الفندق ومعنا رفاقنا ماوسعنا من المركبات حيث

قصدنا توًّا الى السّراى وكان فى انتظارنا عند بابها من العسكر والموسيقى فى هـذه المرة ما كان لا يقلّ عنـه عددا ونظاما فى المرة الاولى. وكان أوّل من استقبلنا حال الدخول دولة المتصرف فرادنا الى ردهـة الاستقبال التى دخلناها وكانت وقتئذ حافلة بحضرات المدعوّين من كبار القوم وكراة المسيحيين وأعيانهم وقد وجدنا فيما بين أظهرهم بعض أسرة سرسق وأسرة بسترس وهاتان الاسرتان من أشهر الأسر فى بلاد الشـام وهما من طائفة الروم الارتدكس وأصلهما غالبا من لبنان ويسكنان الآن فى مدينـة بيروت ولهما هناك شهرة كبيرة وصيت ذائع حتى يقال انهما أعظم أهل بيروت ثراء وأكثرهم مالا ثم كان من المدعوّين أيضا حضرة الفـاضل سليم بك تابت ولعلّ القارئ يلاحظ على أنى أفردت هـذا الشخص بالذكر وعينته بالاسم دون ماسواه من المحتفلين وما أدراه أن سليم بك تابت هذا جدير أن يبلغ من أنفسـنا تلك المكانة وأن يفسح له فى رحلتنا بقدر مايسع ذكر مروءته وكرم أخلاقه وحسن تربيته وما نريد من ذلك الا أن يعرف القرّاء له ماعرفناه من الكرم والمعروف. أما هو فانه سليل أسرة مسيحيّة محترمة فى تلك البلاد وما كان يلفتنا اليـه ويجعله منّا فى تلك المنزلة أنه ثرىّ وجيه ولا أنه عزيز فى قومه وان الناس فى هذا الباب كثيرون

مزدحمون وانما رأيت فى الرجل همة عالية ونشاطا كبيرا وبديهة حاضرة لايملّ مجلسه ولا تسأم معاشرته لانه جميل المحاضرة ظريف المسامرة يهتم كثيرا براحة المسافرين فى بلده ويسعى الى خدمتهم ماااستطاع كأن الشام بيته والمسافرين اليهـا ضيوفه مما دلنا على أن فيه غيرة على بلده وحرصا غريبـا على أن لايقع نظر السائح منهـا الا على مايحبّ ويستحسن وقد عجبنا جدّا من أنه قادر على نفسه غالب لها على ارادتها اذ لم يمنعه تحيزه لدينه وتعصبه لمذهبه أن يقسط بين الناس فى لطفه ومودّته يستوى عنده فى ذلك المسيحى والمسلم واليهودى وغيرهم من أىّ ملّة أو نحلة ثم هو لايألو جهدا فى مساعدة الانسان متى قصـده وطلب معونته وانه لجدير بمن تجتمع له هذه الخلال الطيبة والشمائل المحمودة أن ينال من قلوب الناس محبّة تامة ومن ألسنتهم ثناء جميلا ولذلك قلما ينعقد مجلس سرور أو تتألف حفلة أنس أو تنسق جمعية مفيدة حتى يكون من أهم مروّجيها وأصحاب القدح المعلّى فيها . وبعد ماجلسنا برهة نتحدّث مع هؤلاء المدعوّين الكرام دعينا الى غرفة الطعام وهناك تعاطينا من المآكل الشهية اللذيذة ماحمدنا الله على اساغته وقد كانت الموسيقى فى هذه الأثناء تصدح بألحانها المُطربة ثم عدنا الى قاعة الاستقبال فشربنا القهوة وبعد ذلك شكرنا لدولة المتصرّف وجناب

قرينته المصونة ومن كان معهما فى هذه الحفلة الشائقة ماأظهروه من العناية فى اكرامنا والاحتياط بجميع الوسائل لراحتنا ممّا جعلنا لاننسى لهم جميعا هذا اللطف والمعروف أبدا.وقد خرجنا من عندهم مودّعين بغاية الحفاوة والاحترام

(زيارة المجلس البلدى)

ومن هنا لك ذهبنا حيث كانت الساعة أربعة بعد الظهر قاصدين الى رأس النبا اجابة لدعوة رئيسى البلدية فى مدينة بيرُوت وقد كانا أعدّا لنا مأدبة شاى جميلة فى حديقة الحرية وهى فى باب سراى الحكومة وكانت تسمّى بالحديقة الحميديّة منذ عشرين سنة ثم هى حديقة عامّة واقعة فى وسط المدينة وتشبه حديقة الازبكية من حيث يقصد الناس اليها للتروّض والفسحة وقد زخرفها المجلس وزينها من أجل الاحتفال بنا زينة بديعة وأقام فى وسطها كشكا فسيحا لجلوس المدعوّين وسرادقا جميلا جعل فيه خوانا عليه من ألوان الطعام وأنواع الشراب مالذّ وطاب،وحينما وصلنا الى هذه الحديقة وجدنا جما غفيرا من أهالى البلد مجتمعين حول الروض من الخارج وفى طرقاته من الداخل وما كاد يقع علينا نظرهم حتى طفقوا عن بكرة أبيهم يحيّوننا تحية فائقة ويصفقون لقدومنا تصفيقا،وقد كان فى أول المستقبلين

لنـا حضرتا رئيسى البلدية وذهبا بنـا توا الى ذلك البهو بين تصدية المحتشدين وهتافهم الشديد وقد وجدنا فى انتظارنا هناك عددا كبيرا من رجال الحكومة وثراة المدينة وأعيانها يتقدم الجميع صاحبا الدولة ناظم باشا الوالى و يوسف باشا المتصرف فحييناهم جميعا وما لبثنا نجاس الا قليلا ثم قام جناب الرئيس الاول الحاج منيح افندى رمضـان وارتجل فى وسط هــذا المجتمع الحافل خطابة كانت على طولها غاية فى الرقة والرشاقة افتتحها بعبارات الشكر لنا والثناء علينا ثم انتقل الى شرح السرور البليغ الذى كان يخامر أفئدة أهل الشـام عموما وأهل بيروت خصوصا من زيارتنا لبلادهم ثم أخذ يطيل ماشاء الله فى وصف الاعجاب بوجود أمير من أمراء الشرق ومن ذرية المرحوم محمّد على باشا الكبير فى تلك البلاد التى طالمـا عطشت الى وجوده واشتاقت للتمتع بطلعته بينما تكررت فيها زيارة الاجانب من الأمراء الغربيين وغيرهم وشرع بعد ذلك يذكر مآثر المغفور له مؤسس الاسرة الخديوية وأصل الدوحة العلوية قائلا ان التاريخ لم يسجّل عليه محاربته للدولة العليّة حتى ملأ صفحاته البيضاء بذكر ما كان له رحمة الله عليـه من الاصلاحات الكبيرة والخيرات الكثيرة فى جميع البلاد التى تمتعت بعـدله وسعدت بحكمه أعواما طوالا. وأشار فى أثناء ذلك الى تلك

الغابة التى أسلفنا أنها غُرست بأمر المرحوم ابراهيم باشا الكبير وهنا أطنب اطنابا فى بيان مالهذه الغابة الصنوبرية من الفوائد الجمة والمزايا المهمة مفيضا فى شرح منافعها المحسوسة من الوجهة الصحية وكيف أنّها كانت حجازا مكينا وحصنا حصينا بين سكّان المدينة وبين ذلك الأسد المغتال والمرض القتّال الذى طالما كانت تكثر زيارته وتثقل ضيافته فيعبث بالمهج العالية والارواح الغالية وهكذا حتى اذا انتهى ذلك الخطيب المصقع من خطابته البليغة أخذ جميع الحاضرين يصفقون تصفيقا حادّا اظهارا لمكان الخطبة من نفوسهم بينما كانت الموسيقى تعزف بألحانها الشجية ونغماتها المطربة، فكان لها مع تصفيق القوم وضوضائهم مجموعة رنات اخترق تأثيرها الشديد أعماق القلوب ثم قام حضرة الفاضل الشيخ احمد طباره وألقى كذلك خطبة أخذت بمجامع القلوب وكان قد ابتدأ الكلام فيها باطراء الاسرة الخديوية وبيان مآثرهم فى البلاد المصرية والشامية ثم أخذ يذكر روابط الوداد وعلائق الاتحاد بين الشعبين المصرى والشامى وأفاض فى بيان الأسباب الكثيرة لاتفاقهما وتآخيهما التى ذكر منها أنهما متحدان فى اللغة الاصلية وأنهما متجاوران وأن تجارة الشام فى مصر من أكثر التجارات وأعظمها رواجا وان كثيرا من أبناء الشام هاجروا الى مصر واستفادوا

منها ماديا وأدبيا فواندجمة فمنهم من اشتغل بالتجارة ومنهم من استخدم فى وظائف الحكومة ومصالحها وغير الحكومة أيضا مما لا يسعنا معه سوى الاعتراف بفضل مصر على الشاميين حيث رحّبت بهم وفتحت أبوابها فى وجوههم فما زالوا يمرحون فى بحبوحة كرمها ونعمتها الى غير ذلك ممـا كان صريحا فى اقرارهم بمعروف مصر وفضلها عليهم وعند ماانتهى ذلك الخطيب الفاضل هممت بأن أقوم بينهم خطيبا وأن أبدأ خطبتى لهم بشكرهم على ماصادفته من سماحة نفوسهم وكرم أخلاقهم، ثم أبين مقدار ماانطوت عليه قلوب المصريين الكرماء من محبة العرب والشاميين، غير أنى لاحظت أن الظروف وقتئذ كانت لاتسمح لى أن أقوم فأقول شيئا من هـذا فى حفلة كبيرة بجموع لهـا الناس مخافة أن الحكومة العثمانية الجديدة ربما تتشوّش من الخطبة، أو تتأولها بما لعلّه يخالف غرض الخطيب ويبتعد عن قصده ومراميه، وبعد ذلك قمنا متوجهين نحو السرادق لتناول ما كان أعدّ لنا من الشاى وغيره ثم قصدنا الى الفندق وكان طريق مرورنا من وسط الحديقة حتى الباب غاصّا بالاهالى. وعند ذلك ودّعنا من حضرتى الرئيسين ومن كان معهما بمثل مااستقبلنا به من الاكرام والحفاوة فشـكرناهم وركبنا العربات حيث وصلنا الى فندقنا قبـل الغروب. واذ ذاك حضر لزيارتنا بعض أعيان

المدينة وكبارها وكان من بينهم المفتش العثمانى فى شركة السكة الحديدية الفرنسية فقابلناهم جميعا شاكرين لهم حفاواتهم الكبيرة وزياراتهم الكثيرة وقد بلغنى فى هذا المجلس أن الشركة أعدّت لسفرنا صالونا خاصا بقطر الصباح حيث كنا اعتزمنا مع مشيئة الله تعالى على الرحلة فى ذلك القطر الى مدينة دمشق .

(كلمة عن بيروت)

وهنا رأيت أنه لا بد لى قبل مبارحتى لهذا البلد من ذكر كلمة مختصرة عنها ملحقة بما تقدم من كلامنا فيها على الرغم من أن هذه المدينة من المراسى الشهيرة والمدن التجارية الكبيرة التى قد عنى بشأنها قديما وحديثا أرباب المحابر من الكتاب وعلماء التاريخ فأفاضوا فى الوصف وأطنبوا فى بيان مايتعلق بها من الجهات المهمة والأغراض المفيدة . لأنى انما أريد أن أذكر فى رحلتى هذه جميع ماكنت أشاهده بعينى وأقف عليه بنفسى ، ولعلنى ان أتيت فى خلال ذلك من الآراء والملاحظات على حياة القوم الاجتماعية وبعض الأمور الداخلية بماعساه أن يمر على بعض الناس فيغمضوا فيه اغماضا أو يتركوه وراءهم ظهريا دون أن يعيروه مايستحقه من الالتفات والعناية أكون قد وافيت القراء بما لعلهم يجهلونه فى تلك البلاد

وأرشدتهم ثمت الى مار بما تقصر عنده ألسنة المحدّثين أو تجف دونه أقلام الكاتبين، على أنه لايذهب على عاقل أن تاريخ البلاد من جهة سياستها وعمارتها وحالة سكانها المعاشية والتجارية مما لا يلازم بالضرورة حالة واحدة أو يقف عند حدّ محدود مادامت تتعاقب عليها حوادث الأيام والليال ويلحقها كسائر العالم وصف التغيير من حال الى حال .

بيروت مدينة قديمة التاريخ من أشهر وأهم مدن سوريا التجارية واقعة على شاطئ بحر الروم وهى أكبر ميناء فى بلاد الشام ومركزها الطبيعى غاية فى الجمال وعدد سكانها يبلغ الآن نحو ١٥٠ ألف نسمة أغلبهم من الطوائف المسيحية وعدد العسكر فيها يقرب من ١١٠٠ جندى منهم ٨٠٠ من البيادة والطوبجية ونحو ٣٠٠ من السوارى وأكثر مناظرها الطبيعية كانت فى باب الجمال مما قل أن يتناوله النظر فى غيرها من البلاد الأخرى .

(وصف منظر)

نعم وهل رأى الوافدون على بيروت فيما كانوا شاهدوه أحسن وأشهى وأخصب وأينع وأجمل وأبدع من منظر هناك واقع بين البحر المتوسط وجبل لبنان قد امتلأ من كل الجهات بالزروع المزهرة

والأشجار المثمرة تراه وقد اتشح على طوله الطويل وعرضه الجميل بوشاح بهىّ ورداء سندسىّ يملأ عين مبصره بهجة ورواء وحسنا وبهاء كما يملأ قلبه طربا وحبورا وفرحا وسرورا هذا لعمرك منظر السفح بينما تنظر الى سكون الجبل وثباته واضطراب البحر وثباته كأنهما وقد حاصراه بينهما عاشقان يتجاذبان حبه ويتنازعان وصله وقربه وما أبرّه بعاشقيه وأوفاه بعهد صاحبيه،فلقد كان فى موقعه أحسن مايكون مطلوب بين طالبين ومعشوق أراد ارضاء العاشقين غير أن الماء قد غلبته غيرته وأخذته عزيته وملكته أثرته فلم يزل متهيجا لايهدأ له بال ومتحركا لايستقر على حال ،وكأن الجبل وهو ساكن سكونه محب قد امتلأ ثقة بمحبوبه أو غالب ظفر من مغلوبه بمطلوبه ، هذا وقد كان أكثر مارأيناه من الحدائق والبساتين فى المدينة وضواحيها مغروسا بشجر التوت والبرتقال الذى كان يرسل مع عليل النسيم عبير زهره فيشفى الجسم السقيم وإنه لايكاد الانسان يصرف النظر عن هذا السهل وما فيه من الحدائق والجنان حتى يرفعه الى جبال لبنان فيرى جبلى صنين وكنيسة متلازمين تلازم الفرقدين وظاهرين من بين الجبال ظهور النيرين ذلك لما امتازا به من زيادة العلو والطول حتى كأنهما وقد شمخا بأنفهما الى السماك يطمعان أن يسكنا حيث

حيث تسكن الأفلاك وحتى ترى السحاب على ارتفاع شأنه و بعد مكانه لايمرّ عليهما الافرقا مذعورا وخائفا مقهورا على أنهما لايسمحان له بالمرور الا اذا ترك على قمتيهما من ذلك الثلج الطبيعى مايشبه العمامة البيضاء على رأس الشيخ الوقور

يحسبه الجاهل مالم يعلما ۞ شيخا على كرسيه معمما

أما هواء بيروت فانه معتدل جدّا فى زمان الشتاء وحر شديد فى فصل الصيف ،ولكن يقال ان اتصال البلد بالبحر يلطف كثيرا من هوائها فى مدّة الحر على أنه يقال ان معظم السكان من طبقة المتوسطين فى هذه المدينة يصعدون الى لبنان لقضاء فصل الصيف هناك لما قد امتاز به هذا الجبل من جودة الهواء وعذوبة الماء وجمال المنظر

وأما مياه المدينة فقدبلغنى من بعض القوم أنها كانت فى الزمن السابق غير صالحة للشرب اذ كانت عفنة رديئة وكان ينشأ عنها بهذا السبب أمراض كثيرة وأوبئة شتّى وقد عنيت الحكومة العثمانية بتلافى ذلك الخطر الخطير منذ خمس وثلاثين سنة فجلبت اليها ماء الشرب من نهرى الكلب وبيروت اللذين ينبجسان من السفح الغربى من لبنان حتى أصبح أهل المدينة وضواحيها يتمتعون بشرب الماء النقى الطاهر ،

وأما مدارس المدينة فكثيرة اذ تبلغ نحو مائة مدرسة للمسيحيين منها سبعون مدرسة أربعون للبنين وثلاثون للبنات وللمسلمين ثلاثون مدرسة خمس وعشرون للذكور وخمس فقط للاناث ومن ثم كان التفاوت عظيما بين المتعلمين من أبناء الطائفتين ذكورا واناثا وقد نجد مثل هذا الفرق بين المعابد أيضا حيث ان للمسيحيين ماربما يزيد عن الأربعين كنيسة بينما مساجد المسلمين لاتربو على خمس وعشرين مسجدا

ذكرنا قبل هذا أن العدد الأكثر من سكان بيروت انما هو من الطوائف المسيحية حيث المسلمون هناك لايزيد عددهم عن أربعين ألف نسمة على حين أن المسيحيين يبلغ عددهم نحو مائة ألف أوهم يزيدون ولكنا رأينا مع ذلك أن الطائفة الاسلامية أظهر كلمة وأقوى جانبا وربما كانت هى صاحبة السيادة والأبهة فى البلد وان كان يلاحظ مع هذا أن مسافة الفرق بين ثراء الأمتين عظيمة جدا . وقد يدرك الانسان ذلك مما يراه من الفرق المحسوس بين مدارس المسيحيين ومدارس المسلمين . فان الأولى مع كثرتها وكفايتها حسنة العمارة نضرة البقعة وافية بكل أغراض الطلبة ومنها الكليات التى لاتقلّ فى نظاماتها عن الكليات المعروفة فى البلاد الراقية . وأما الثانية

فأنها مع قلة عددها كما عرفت وعدم كفايتها بالطبع لأبناء هذه الطائفة لاتزال تحتاج الى الشئ الكثير من مال الأغنياء وآراء المفكرين وعلى الجملة فان التعليم فى مدينة بيروت مما يسر أنصار العلم وعشاق المعارف ومحبى التقدّم والرقىّ .ولهذا كنت أرى معظم الأهالى يجيدون القراءة والكتابة وقلما وجدت مدينة أهلها كذلك فى كل بلاد الشام .

وأما مطابعها فانها ليست أقل أهمية من مدارسها ،وأقدمها مطبعة الامريكان ثم اليسوعيين، ثم مطبعة حديقة الاخبار الى غير ذلك من المطابع الكثيرة، وقد سمعت أن مايطبع فى تلك المطابع من الكتب العلمية والفنيـــة شئ فوق الحصر كما أنه يطبع فيها عدة جرائد يوميـة وأسبوعية وشهرية، سياسية وتجارية وطبية، ومما امتازت به هذه المدينة عن سائر مدن الشام أنهـا تصـدّر كـثيرا من مطبوعاتهـا الى البلاد الشامية وغيرهـا من البـلاد الأجنبية. وأما لغة التخاطب العامة بين المسيحيين والأجانب فهى اللغة الفرنسية ويقال انه فى الزمن السابق كان التخاطب جاريا بينهما باللغة الطليانية بدلا من اللغـة المذكورة وعلى كل حال فان لغة البلاد الأصـلية والتى يتخاطبون بها فيما بينهم هى اللغة العربية .

وأما تجارتها فتدور فى الغالب على مزروعاتها ومصنوعاتها التى أكثرها من الحرير وزيت الزيتون والصابون. وفى المدينة عدّة معامل لحل الحرير الافرنكى وللصابون والدباغة والفخار. ثم ان تجار الشام المسيحيين غاية فى النشاط والمهارة واقبال الناس عليهم فى محالهم عظيم جدا ، ولذلك لم يكن للتاجر الأجنبى مطمع فى وقت من الأوقات أن ينال من أهل البلد مثل ثقتهم بتاجرهم مهما حاول واحتال. وقد رأيت هناك حالة تستدعى الأسف ،

معلوم أن جبل لبنان قطعة من الشام وهو جملة بلاد واسعة يسكنها ما يقرب عدده من ٤٠٠ ألف نفس منهم حوالى ٢٣٠ ألفا من الموارنة و ٥٥ ألفا من الروم الارثدكس و ٤٥ ألفا من الدروز و ٣٥ ألفا من الروم الكاثوليك، و ١٧ ألفا من المتاولة و ١٤ ألفا من المسلمين وثمانمائة من البروتستان و ١٥٠ من اللاتين وقليل من الطوائف الأخرى. وكانت هذه البلاد تابعة لولاية بيروت قبل حدوث التعديات التى وقعت سنة ١٨٦٠ فى دمشق ووادى التيم ولبنان ولكنها انسلخت عن بيروت وانفصلت عن حكومتها وقتما كان احتلها العساكر الفرنساويون مع معتمدى الدول لدفع هذه العاديات ، وجعلت من هذا الحين متصرفية مستقلة متعلقة بالباب العالى رأسا .

ولذلك كنت أجد تمام الانفصال بين الحكومتين كما كنت أرى تخالف الأزياء العسكرية فيهما وان العلاقات بين حكومة الجبل وولاية بيروت صارت قاصرة على مجرد العلاقات التجارية والمودة الجوارية ولقد كنت أسفت أشدّ الأسف على مرافق الدولة ومصالحها كما يأسف كل غيور عندما يجد سكان هذا الجبل معتمدين على نفوذ الدول الأجنبية وحمايتها لهم غير خاضعين بالمرة لقوانين الحكومة العثمانية ونظاماتها الشرعية حتى كأنهم ليسوا من ضمن رعاياها وحتى ان أثر هذا الاستقلال الممنوح لهم من جهة السلطة الخارجية واضح مثل فلق الصبح فى الفرق العظيم والبون الشاسع بين أحد أهالى لبنان وبين غيره من سكان المدينة أو أى بلد من بلاد الولاية حيث الاول مترعرع ذو قوّة وشمم تعرف فى وجهه نضرة النعيم والترف بينما الآخر على العكس من ذلك لا يتعدّى حدود السلطة ولا يتجاوز مواقف النظام مع أنهما موجودان تحت سماء واحدة ويتنفسان معا فى جوّ واحد على أنه يقال ان عددا عظيما من أهل لبنان وبعضا من السوريين يهاجرون الى الولايات المتحدة والى جمهوريات أمريكا الجنوبية والوسطى وأوستراليا وبعض الجزائر بقصد التجارة وغيرها لتوسيع المال وتحصيل الثروة الطائلة ويقدر بعضهم عدد المهاجرين الى سنة ١٩٠٦ بنحو ٢٥٠ ألفا متفرقين

فى الجهات المذكورة واللبنانيون من هؤلاء يبلغون نحو ستين ألفا مابين ذكور واناث وليس هذا شاهدنا مما أردنا ايراده فى ذلك الموضوع وانما نريد أن ابن لبنان اذا ما انقضى أربه وتم له ما يريد من الهجرة الى البلاد البعيدة عاد ثانية الى وطنه ويفضل أن يأوى الى بيت فى الجبل دون أن يسكن بيتا فى مدن الولاية وبلادها مع أن متممات رفاهته وأسباب ترفه وكماليات معيشته قد لا تتيسر له الا فى المدينة لا سيما وان بعض أرض الجبل صخرى لا يصلح للاستنبات والزراعة وعلى ذلك يؤثر اللبنانى العاشق للزراعة أن يعيش فى ذلك البلد ناقص الحاجة أو أن يتجشم مشاق كثيرة ويتكبد متاعب جمة بجلب الطين من بيروت وغيرها لاصلاح الصخر واعداده للزرع كل هذا لانه يرى أن سكنى الجبل خير له من أن يسكن بلدا من بلاد الولاية ويعيش تحت سيطرة الحكام خاضعا للنظامات والقوانين ومعروف كيف كان يجري تنفيذها أرباب الشون ليت شعرى كيف يملك الانسان نفسه عند مايجد ذلك اللبنانى قد ترك وفضل ما بين المدينة المتحضرة وبين الجبل مهما كانت حاله لأن يعيش متمتعا بسرور الأمن ولذة الراحة مطمئن النفس على ماله وعياله على حين أنه يرى غيره من أبناء الأمة فى دائرة الولاية وتحت سلطة الحكومة كاسف البال منكود الحظ وضيع

الكؤوس مما كان يتمنى المسافر معه طول الاقامة تحت سماء هذا المراح الغضير والمنـاخ النضـير الذى يحس عنده الانسان بانتعاش الجسم وخفة الروح ويدرك فيه سعادة الحياة ولذاذة العيش ويجد منه بعد الضعف قوة وبعد الكســل نشاطا كأنمـا كان مسجونا أفرج عنه أو مغمى عليه أفاق من غشيته وما أحسن قول الشاعر فى هذا المعنى

نسيم الصبا النجدىّ مالك كلما ❁ تدانيت منـا زاد نشرك طيبا
كأن سليمى أخبرت بسقا منا ❁ فأعطتـك رياها لجئت طبيبـا

وقد كان يكون الشعر أحسن من هذا وأوفق بالمعنى وأوفى بالمراد لو أن الشاعر أبدل من لفظ النجدى لفظ الشامى فانه شتان ما نسيم النجود والقفار وشتان ريح المهاد المخصـبة والبحار التى وصفها مادح الشام فى قوله .

يا حسن واديها وطيب شميمه ❁ قد فاح عرف الزهر فيه وعبّقا
وتراسلت أطيـاره بين الربى ❁ سحرا فهيجت الفؤاد الشـيقا
كيف اتجهت يخـرّ نحوك ماؤه ❁ واليك يركع كل غصـن أورقا

وما برح القطار فى اتجاهه حتى رسا على محطة الحدث حيث منها كان مبدأ الصعود الى جبال لبنان وفيما كان القطار يعالج هذا الصعود علاجا ويتدرج فيـه تدريجا اذ وقف على محطة يقال لها بعبده وهى

على مسافة تسعة كيلو مترات من محطة الحدث وفى هـذا البلد قصر عظيم كان يسكنه قديما أحد الأمراء السالفين والآن يسكنه فى فصل الشتاء متصرف جبال لبنان وعند مايشرف الانسان من هذه الجهة على مدينة بيروت وخليج القديس چورچ يشاهد منظرا جميلا وشكلا بهيجا ثم يقف القطار على محطة جمهور وهى تبعد عن بعبده بمسافة ١٢ كيلومترا وعند هذه المحطة يقترب سير القطار من طريق دمشق القـديم ثم يقف على موقف عرية بعد أن يقطع مسافرا مسافة ١٧ كيلو مترا من محطة جمهور ومن تلك المحطة يمرّ القطار فى نفق صـغير واذ ذاك تحتجب الطبيعة وتتوارى معالمها عن عيون المسافرين ريثما يجتـاز القطار ذلك النفق ثم ينكشف الجو كما كان فى جلبابه الأبيض الناصع وتنجلى معالم الطبيعة ثانية وقد بلغت فى الحسن حيث تعرفها فى جبال لبنان .

تنجـلى لك الطبيعـة آنا ❁ ثم آنا بحسنها تتـوارى

وقد كان من أجمل المنـاظر التى يشاهدها المسافر ما كان يرى من تلك البقعة على وادى شهرور . وبعد أن يسير القطار مسافة ٢١ كيلو مترا من عرية يكون قد وصل الى محطة علية وقد استقبلنا على افريز تلك المحطة جناب وكيل دولة المتصرف حاملا الينا سلام دولته وكان

معه ثلة من العساكر وبعض الأعيان وبعض الرؤساء الرّوحيين فشكرنا لحضراتهم هـذا الاحتفال بعد أن شكرنا من صميم القلب دولة حاكم الجبال الذى كان شـديد العناية بسفرنا عاملا كل ما فى وسعه لراحتنا وسرورنا فضـلا عن أنه كان عظيم الحرص على اجراء الرسميات والمظاهرات لمقدمنا فى كل مقام ومكان فى دائرة حكومته اذ ما كنا نقف على محطة فى طريق سيرنا حتى نجد فى استقبالنا استعدادا تاما من رجال الحكومة وأعيان البلاد فيستقبلوننا بمزيد الحفاوة وكبير الاحترام وكنا نشاهد من البشر الذى يتلألأ على وجوههم ما نستدل منه على صفاء سرائرهم وحسن طوياتهم، ومازال يمرّ بنا القطار فى وسط الجبل حيث كانت تستقبلنا الطبيعة بمناظرها البديعة حتى وصلنا الى عين صوفر، ويقال ان هذا البلد أحسن بلاد الجبل هواء وأعذبها ماء وأكثرها ازدحاما بالمصطافين من أعيان مصر وغيرها ولهذا السبب يوجد فيها فندق كبير من أحسن وأكبر الفنادق فى بلاد الشام كما أنه يوجد فيها منازل كثيرة للايجار مدة مصيف الناس، وقد كان فى استقبالنا على تلك المحطة قومندان الجندرمة ومعه بعض العساكر فشكرناهم وكنا نرى أثناء المسير مناظر الأشجار الكبيرة والبلدان الجسيمة تتصاغر أمام أعيننا كلما ازددنا صعودا الى الجبـل ممّا كان يدل على زيادة العلو خصوصا وأن من

عين صوفر يبتدئ شعور المسافر بالصعود المحسوس ثم يجتاز القطار بعد ذلك بطن الجبل فيمرّ هناك من نفقين كبيرين يبلغ طول الأول نحو ٢٨٠ مترا والثانى نحو ٣٦٠ مترا ويسمى هذا خان مراد أو بيدار ثم يصل الى محطة بعيضان وهى أعلى نقطة فى هذه الجهة حيث يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر نحو ١٥٠٠ متر ومن عندها ينحدّر القطار الى جهة الشرق مسافة ٤٤ كيلو مترا حتى يصل الى المريجات حيث هناك تنكشف المناظر الجميلة ذات اليمين على جبل بروق وذات الشمال على جبل كنيسه وبعد ذلك يرسو القطار على موقف المعلقة وهى تبعد عن مدينة بيروت بنحو ٥٦ كيلو مترا وتلك البلدة هى الحد الفاصل بين ولاية سورية وحكومة لبنان ويوجد فيها كفر كبير اسلامىّ تابع لبلاد الشام وفيها أيضا بعثة انجليزية ومدرسة لليسوعيين ثم ان هذه البلدة قريبة من قرية تسمى زحلة من البلاد التابعة لحكومة الجبل ويبلغ عددسكانها نحو ١٥٠٠ نسمة وهم عن بكرة أبيهم مسيحيون كما أنهم جميعا يعنون بزراعة العنب ولهم به عناية زائدة ولديهم نهر يسمى البردونى ويوجد فى تلك البلدة دير ومدرسة لليسوعيين أيضا ومما يحفظه التاريخ لاهل زحلة والمعلقة أنهم كانوا أعظم الناس مصابا وشقاء عند حدوث العاديات التى كانت وقعت

فى بلاد الشام من الدروز سنة ١٨٦٠ . وبعد أن يفارق القطار محطة المعلّقة يمرّ هناك فى وسط أرض واسعة وسهل فسيح بين لبنان والجبل الشرقى وهو يمتدّ من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ٢٢,٤٠,٣٤ من العرض وطوله نحو ٧٠ ميلا وعرضه يختلف بين ٣ و ٧ أميال وهذا السهل غاية فى الخصب تكثر فيه الزروع وفيه أكثر من ١٠٠ قرية عامرة وتجرى اليه ينابيع غزيزة من الجبال فتشقه فى أنحاء شتى ويسمى هذا السهل ببقاع العزيز نسبة فيما قيل الى الملك العزيز بن السلطان صلاح الدين الأيوبى وهو غير البقاع التى تعرف ببقاع كلب وهى أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة وأكثر شرب هذه الضياع من عين تخرج من جبل يقال لها عين الجر وهى المعروفة اليوم بعنجر، وفى هذه البقاع يوجد قبر النبي الياس عليه السلام، وهكذا يستمرّ القطار فى سيره الى أن يصل الى رياق وهى محطة تبعد عن مدينة بيروت بمسافة ٦٦ كيلو مترا وعندها ينتظر القطار نحو نصف الساعة، وفى تلك المدة يتناول من شاء من المسافرين طعام الغذاء فى مطعم هناك تابع لأكبر فندق فى دمشق يعرف بفندق الشرق الأكبر، ويمتدّ من هذه المحطة فرع آخر من خطوط السكة الحديدية يوصل الى بعلبك وحمص وحماة

وحلب . ولما أن انتهينا من تناول الغذاء فى ذلك المكان شكرنا المندوب الذى كان يرافقنا فى هذا السفر من قبل الحكومة حيث كان هذا الموضع هو آخر مشواره معنا ونزلنا فى القطار الذى مابرح يتابع السير بنا فى طريق دمشق وهو يطوى الارض بأقدامه الحديدية طيا حتّى رسا عند وادى يعفوف وهو واد خصب جميل مغروس بالنباتات والحدائق فى كل جهاته وعند هذه المحطّة يأخذُ القطار فى الصعود الى الجبل الشرقى وقد مررنا من هذا الطريق على قنطرة تعرف بجسر الرّمانة وهى قنطرة عالية ترتفع عن سطح البحر بنحو ١٣٢٠ مترا حتى يصل القطار الى محطة سرغايه التى كانت تعلو عن منسوب البحر بمقدار ١٤٠٠ متر وهنا لايستطيع المسافر أن يعبّر عما كان يتداخله من الارتياح ويستخفه من الطرب عند مايشرف من تلك الجهة على البقاع وجبال لبنان فيرى منظر الطّبيعة فوق ما يوصف جمالا ويعرف حسنا ورواء، وأى نفس لم تعد بعد الخمول نابهة وبعد الذبول ناضرة وهى تتقلب مرات كثيرة على أبهج المناظر وألطف الاشكال ثم هى لا تلبث أن تستقرّ فى جهة تظن أن عندها منتهى الحسن واليها قد استتمت ضروب الجمال والظرف حتى تفاجئها جهة أخرى فتأخذها منها روعة جديدة وهزة شديدة، وترى أنه كان قليلا فى غيرها

مااستكثر وصغيرا فى نظرها مااستعظم واستكبر. ومن تلك المحطة سافرنا الى محطة الزبدانى وهى مركز قضاء تابع لحكومة لبنان وعدد سكّانها يقدّر بنحو ٦٥٠٠ نسمة نصفهم من المسيحيين والنصف الآخر من طوائف شتى. ومركز هذه البلدة الطبيعى غاية فى البهاء والحسن اذ تحيط بها المزارع اليانعة والحدائق الواسعة من جميع جهاتها احاطة الأكمام بالثمر والهالة بالقمر ومما قدامتازت به عن غيرها من البلاد زيادة عن طيب مناخها أن جميع الفواكه المشهورة توجد فيها وأشهر ما فيها من أنواع تلك الفاكهة العنب والتفاح حتى قيل ان التفاح الزبدانى لا يماثله أى تفاح كان فى بلاد الدنيا. وفى ذلك الوادى الزبدانى يمرّ نهر بردى ذلك النهر الجميل المشهور فى هذه الجهات بجمال موقعه وصفاء مائه وبرودته وعذوبته وبعد اجتياز النهر المذكور والمرور من محطة التكيه يخترق الخط الحديدىّ نفقاصغيرا فيصل الى سوق وادى بردى والمسافة من مدينة بيروت حتى هذا الوادى تبلغ نحو ١١٥ كيلو مترا وكان فى الطريق بين سوق بردى ومحطة التكية قرية اشتهرت بكثرة الفاكهة وجودتها ويقال ان جميع الفواكه المشهورة فى بلاد الشام من أوّلها الى آخرها توجد فى حدائق هذه القرية أما سوق بردى ففيه عدة مغائر وكهوف يذكر أنها كانت تسكنها

الناس قديما حتى زعم بعض المؤرخين أن هذه البلدة هى التى كانت
فيها حادثة قتل هابيل لأخيه قابيل، ولعل هذاالزعم نشأ للمؤرخ من أن
هذا البلد واقع على مكان المدينة القديمة التى كانت تسمى فى عهد
البطالسة أبيلة ثم تمرّ السكة الحديدية من بعد هذه المحطة على دير قانون
حتى تصل الى عين الفيجة وهى ذات مجرى جميل يصب فى نهر بردى
ومركزها الطبيعى بين المزارع والأشجار مما يسرّ الأفئدة ويبهج الأنظار
وهناك يسير القطار على شاطئ نهر بردى تكتنفه الزروع وتحيط به من
الجانبين بساتين نضيرة وأشجار غزيرة حتى يصل الى محطة الجديدة
وهذه الجهة لاتبلغ فى العلو عن سطح البحر مبلغ الجهات قبلها. ثم
يبارحها القطار متجها الى محطة الحامى وعندئذ تتصل السكة
الحديدية بطريق دمشق القديم الذى أسلفنا أنه كان لمرور العربات قبل
وضع الخطوط الحديدية على أرض تلك البلاد. ثم يرسو عند محطة
دمر وهى واقعة على مسافة ١٣٧ كيلو مترا من بيروت ثم هى بلدة
صغيرة ولكنها من المتنزهات الصيفية وتعمر كثيرا فى مدة الحر حيث
ان أعيان الشام وأسره الكبيرة يقصدون اليها ليقضوا فيها فصل
الصيف ولهم فيها من أجل ذلك عدة مساكن وبساتين جميلة ومن
هناك تظهر مآذن دمشق وتبدو طلائعها مبشرة بقربها ويرى المسافر

على يمينها جبل قسيون وعلى يسارها تلول كلبات المزة والى هنا ينتهى طريق السير من بيروت الى مدينة دمشق ويفارق المسافر جبال لبنان ومناظرها التى كانت على طول هـذا الطريق تختلف طربا وتتفاوت حسـنا وعجبا وينبغى أننـا لا نودّع هـــذا الجبل حتى نذكر بعض معلوماتنا فيه تتميما للرحلة وقد كانت فى طريقه طويلة جميلة ٠

(موقع الجبــــــــل)

تمتد سلسلة جبل لبنان من الشمال الشرقى فى أواسط سوريه الى الجنوب الغربى وطولها ١٤٥ كيلو مترا وعرضها ٤٥ ومساحة الجبل كله تبلغ ٦٥٠٠ كيلو مـترا مربعا، وأما حدوده فمن الشمال متصرفية طرابلس ومن الشرق أقضية بعلبك وراشيا وحاصيبا ومن الجنوب قضاء صيدا ومن الغرب بيروت وشاطئ البحر، أمّا سكّانه فقد ذكرنا عددهم فيما تقدم. وفى لبنـان أنهار وجداول كثيرة من أشهرها نهر قديسا ينبع من قرية بشرى وهو يمرّ على مقربة من اهـدن وزغرته فى قضـاء البترون ويدخل مدينة طرابلس حيث يسمى عند أهل هذه المدينـة بأبى على ويروون من مائه البساتين وهو يصبّ فى البحر عند طرابلس وطوله ٣٨ كيلو مترا .

(حاصـــــــلات لبنان)

وأما حاصلاته فقليلة لأن أرض الجبل فى بعض جهاته صخرية غير معـدّة للغرس ولا متهيّئة للزراعة .وقد تعب الأهالى كثيرا فى اعداد أرضه للزراعة بقطع الصخور العظيمة ليزرعوا تحتها وقد حاولوا أيضا غرس شجـر السّنوبر تحت نفس الصخور فى عدّة مواضع منـه.ومن محاصيله المهمة القمح والحمص والشعير والعدس؛وكل الأهالى تقريبا يشتغلون بالحرير ويقال انه يوجد فى ذلك الجبل نحو ١٤٧ معملا لذلك ولهذا هم يكثرون من غرس التوت حيث ان دود القز يتغذّى من ورقه ،ومن محاصيله المشهورة أيضا التين والعنب ويقال ان التين اللبنانى أحلى مذاقا وألذ طعما من كل أنواع التين سواء فى الشام وغيره .

(هواء لبنـان)

أما هواءه فانه لم يبق لى موضع لأن أصـفه بالطبع بعـد ماشهد له الأطباء الشرقيون والغربيون قديمهم وحديثهم ،وعلى الجملة فان السائح الذى يريد أن يكتسب صحتـه وعافيته ويمتع نفسـه بمنـاظر العيون والجداول والينابيع والأحراش لايجد مصيفا طبيعيا خيرا من لبنـان . ويقال ان أحسن بلاده موقعا وهواء وأكثرهـا جمالا وثروة البـلد المسمى زحلة .

(صناعات لبنان)

وأما صناعاته فيقال ان فيه صناعات قديمة مثل عمل الأقمشة والنجارة والحدادة الى غير ذلك وتجارته تدور على صنائعه ومحاصيله ثم ان من أهم موارد الثروة فى الجبل موسم المصطافين لأن الجبل فى الصيف يزدحم بالناس ازدحاما عظيما التماسا للصحة وطلبا للشفاء والبرء من السقام وأكثر هؤلاء من المصريين الأغنياء ويقال ان بعضهم قدّر عدد السياح فى ذلك الجبل بنحو ١٨ ألف نسمة وأظن أنهم يصرفون من مالهم فى تلك السياحة الجميلة شيئا لا يستهان به .

(دمشق)

هى أكبر مدن سوريه وفلسطين، وموقعها فى أواسط سوريه حيث الطول الشرقى ٣٠-٣٦ والعرض الشمالى ٢٠-٣٣ وهى الى الشرق بانحراف الى الجنوب من مدينة بيروت تبعد عنها ١٤٥ كيلو مترا ، وتبعد عن جنوبى حمص ٤ مراحل وتعلو عن سطح البحر ٢٤٠٠ قدم، ومحيطها ٩ أميال ونيف وهى قديمة التاريخ مضى على بنائها نحو ٣١٤٥ سنة وكانت تسمى بارم ذات العماد اذ يقال ان الذى كان بناها جبرون بن سعد بن عاد بن ارم بن سام بن نوح ، وقد وصفها بعضهم بأنها جنة الدنيا لأنها تشتمل على بساتين كثيرة ومياه تجرى

فى قنواتها فى كل مكان. وقد قيل فى وصفها كثير من النثر والشعر، من ذلك قول بعضهم .

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ❁ فلى بجنوب الغوطتين شجون
وماذقت طعم الماء الا استخفنى ❁ الى بردى والنيرين حنين

وغوطة دمشق مشهورة وهى من أجمل المناظر والمنتزهات

ولآخر

أما دمشق فقد أبدت محاسنها ❁ وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا أردت ملأت العين من بلد ❁ مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقا ❁ ويصبح النبت فى صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفا خضلا ❁ ويانعا خضرا وطائرا غردا
كأنما القيظ ولى بعد جيئته ❁ أو الربيع دنا من بعد مابعدا

ولنا بعدهذا كلام فيما يتعلق بهذه المدينة من الأمور والملاحظات التى لم نر بدًا من تسطيرها فى تلك الرحلة ان شاء الله تعالى .

وصلنا مع سلامة الله ورعايته الى محطة دمشق وعندئذ أخبرنى قومسارى القطار بأن والى الشام وناسامعه واقفون ينتظرون قدومنا على افريز المحطة فما وسعنى حين ذاك سوى أن أسرعت بالنزول من الصالون واذا بفتى حديث السن ممتلئ خفة ونشاطا كان هو أول من

استقبلني من بين الحاضرين، فعرّفني بنفسه ووظيفته وأنه حضر لاستقبالنا من قبل الوالي قائلا ان دولة الوالي يعتذر عن عدم حضوره بذاته الى المحطة لانتظار دولتكم واستقبالكم بأن سفر دولتكم الى الشام غير رسمي ثم طلب الينا أن نركب عربة خاصة كان جاء بها لهذا الغرض وقد عرفنا بعد أن هذه العربة مملوكة لأحد اصدقاء الوالي كما عرفنا أن المرسلين لانتظارنا من قبله أربعة أشخاص أحدهم فخر الدين بك، مدير الأمور الأجنبية وهو ذلك الذى بلغنا اعتذار الوالي، والثاني روحي بك مدير البوليس. والثالث حسني بك قومندان الدرك، والرابع أحمد افندي الحسيني وكيل رئيس البلدية، وهؤلاء هم جملة المستقبلين. أما أنا فمذ سمعت ذلك العذر العجيب صممت على أن آخذ مركبي من غير تلك العربة المستعارة لذلك لم أجبه الى طلبه وقلت له انه ليجدر بمن لم يكن سفره رسميا أن لا يتعاطى شيئا من الرسميات مطلقا ومن ثم لا أخالف تلك الخطة وأركب عربة تجعل لي تلك الصفة في بلدكم. وقد كنت وأنا أحدثه ألاحظ أن حركته ولهجته في الكلام أشبه بحركات ولهجات الغربيين منها بالشرقيين وانه لا يعلم الا الله مقدار استغرابي وعجبي مما وجدته في استقبال ذلك الشاب عند ما صافحني مصافحة النظائر والأنداد وخاطبني وهو يهز يدي بما كان لا يقل عن خطاب كبير

من الكبراء وأمير من الأمراء الى غير ذلك مما كان لايجمل بالمعاملة ولا يتفق هو والتقاليد التى تقتضيها حالة الشرق وتستدعيها عادة البلاد، وكيف لاأعجب عجبا شديدا ولم يسبق لى أن أرى مثل هذه المقابلة من أحد حتى ولا من نفس الأمراء والعظماء فى البلاد المتمدنة التى يزعم الناس أنها بلاد الحرية والمساواة، ولولا أن ذلك الناشئ بادرنا بشرح وظيفته وتعريف نفسه ما كنا شككنا أن الذى كان يستقبلنا ويهزّ يدنا هزا هو حاكم الشام نفسه على أن جميع الناس الذين قابلناهم قبل هذا فيما تركناه وراءنا من البلاد الشامية كانوا غاية فى اللطف والأدب عارفين وزن أنفسهم ثم هم لايزالون محتفظين بتقاليد الشرق وأخلاقه .

خرجنا من المحطة فركبنا من العربات ما كان لنا منه الكفاية وقصدنا توا الى فندق فكتوريا الذى اخترناه لنزولنا مدّة اقامتنا فى دمشق حيث هو أجمل فندق فى تلك المدينة. ولم يكن ليصادفنا فى الطريق الذى كنا نمرّ منه ما كان يلفت نظر السائح نحوه غير تكية المولوية وذلك النهر العظيم نهر بردى الذى يمرّ فى وسط المدينة أشبه بنهر السين فى وسط باريس وانه لقد سرنى كثيرا منظره الجميل وحسن موقعه بين المزارع والبساتين وكانت المسافة منذ ركبنا العربات حتى وصلنا

الى النزل لاتتجاوز الدقائق الى السـاعات،وهناك وجدنا عند مدخل الفندق صاحبه الذى كان ينتظرنا ليهدينا الى الحجرات التى خصصت لنا فيه ولم يمض على جلوسنا هناك أكثر من ربع الساعة حتى شرفنا الوالى بزيارته مرتديا اذ ذاك لباسا عسكريا فاستقبلناه وجلسنا نتحدث فأفهمنا فى غضون حديثه أنه كان لايستطاع اعمال شئ فيما يتعلق باستقبالنا عند موقف القطار أكثر مما حصل حيث لم يكن حضورنا الى ذلك البلد مصبوغا بصبغة رسمية،أما نحن فبعد أن شكرنا له هذه الزيارة التى تبرع بها من عنده قلنـا له اننا حقيقـة لم نجـئ الى بلدكم بصيغة رسمية وكذلك كان غير رسمى كل سفرنا فى جميع البـلاد التى قصدنا اليها فى هذه الرحلة على أنه ليس لنا أن نسافر الى دمشق أو غيرها سفرا رسميا،وانه لايجهل كلانا أن الأسفار الرسمية انما تكون للاجانب أو لمن كانت تنفذه الحكومة من قبلها لمباشرة أعمالها ومصالحها

كما أننا نعرف تماما أن كل الذى كان يعمل من أجلنا فى الاستقبالات من الاجتماعات والمظاهرات فى الجهات الأخرى انما كان من محض تبرعات الحكام وأعيان البلاد أما نحن فلم نأسف لأن استقبالنا منكم كان بسيطا الى الحدّ الذى لاتجهله وانه اذا كان هناك شئ يستدعى أسفنا فليس الا أنه لم يرسل لاستقبالنا على المحطة من كان يناسب

حالنا و يلتئم مع تبعتنا ولقد كان يرضينا و يسرنا أيضا أن نجد فى انتظارنا ولو أحد الضباط بدلا من ذلك الذى قابلنا وكانت وظيفته مدير الأمور الأجنبية اذ أنى لست أجنبيا من تلك البلاد اذهى بلاد الشرق وأنا شرقى محض وقد كنت أحسب أنى عثمانى تابع لدولة العثمانيين هذا كان خلاصة حديثنا مع الوالى وقد شرب القهوة وقام . أما نحن فما لبثنا بعده الا قليلا ريثما ارتدينا ملابسنا المعتادة فى الزيارات ثم ذهبنا لانلوى على شئ حتى وصلنا الى سراى الحكومة حيث نرد للوالى زيارته وسلامه، وقد رأينا السراى جميلة المنظر جدّا وربما كانت أحسن مبانى المدينة عمارة وأنضرها بقعة لأنها واقعة بجوار نهر بردى وكنا نظن أنه يوجد فى تلك السراى مثل مايوجد فى سرايات الحكومات من الناس والمستخدمين، ولكننا مذ دخلنا فيها لم نقابل سوى ثلاثة عساكر فسألناهم: هل هنا دولة الوالى فقالوا: دولة الوالى ليس موجودا هنا. فقلنا أليس أحد من كبار المستخدمين أو السكرتارية هنا أيضا؟ فأجابونا ليس أحدٌ هنا من هؤلاء جميعًا فبدا لنا أن نترك مع أحدهم بطاقة الزيارة ليعرف الوالى أننا رددنا تحيّته وهناك ذهبت منّا التفاتة الى سلّم السراى فرأينا عليه انسانا عرفنا بعد أنه من أعيان البلد وأصحاب الجرائد فيها وقد قرأنا فى وجهه آية الأسف الشديد مما

كان رآه من حال الاستقبال والوداع فى دار الحكومة عند مادخلناها وخرجنا منها وحينما سألنا العسكر سؤالنا وأجابونا جوابهم ولهذا خف الرجل الياخفة الطائر وسألنا عما اذا كنا نستحسن أن نكتب فى جريدته شكايتنا وانتقادنا تلك الحالة الغريبة التى استنكر حصولها هذا الرجل فشكرنا له معروفه وأجبناه بأنه ليس لنا شكاية من شئ ولا نريد أيضا أن ننتقد عمل الحكومة على كل حال وحسبنا من كلّ مانطلب منكم ماوجدناه من محبتكم لنا وشعوركم الجميل نحونا ثم بارحنا تلك السراى قافلين الى الفندق فلمّا وصلنا اليـه رأينا علما عثمانيا مرفوعا فى داخله على السلم الضيق فسألت صاحبه (وهو الخواجا بيترو وكان رجلا كبير السن يميل كثيرا الى مصر حيث كان يتاجر فيها حينما كان شابا) لماذا رفع هنا هـذا العلم العثمانى؟ فأجابنى بأن العادة المتبعة فى جميع جهات الدنيا أنه عند ماينزل ضيف كريم فى أى فندق من الفنادق يرفع له علم الحكومة التابع هو لها اجلالا له واحتفالا بقدومه فقلت له: هذا العلم يرفع عادة على باب الفنـدق من الخارج فلما ذا كان مرفوعا من الداخل فقال نعم كان يجب رفع العلم خارج الفندق غير أن أصحاب الأمر والنهى فى البلد قد أبوا علىّ ذلك ومنعونى منه فما أمكن لى أن أؤدى ذلك الواجب الا برفعه حيث ترون وانى لشديد الأسف من

تلك الظروف التى عاكستنى حتّى لم أتمكّن من نصب العلم على باب الفندق اشعارا بوجود مثل دولتكم فيه

لعل القارئ يأخذ علىّ شيأ من الملاحظات على بعض رجال الحكم والادارة فى حكومة الشام ولست أنكر أن ذلك يكاد يكون بارزا يلمس باليد من خلال سطور بعض المقالات فى رحلة دمشق ولكنه ماجاء مقصودا ولا مرادا به أى شئ وانما جاء عفوا فيما تستدعيه الرحلة من ذكر كل مايرى الراحل ضرورة ذكره واذا كان من الضرورى أن أبين كيف كان استقبالى فى كل مدينة أو بلد أنزل فيها أو أمرّ بها . لاجرم كان وصف استقبالى فى أكبر مدن الشام وأعظم عواصمها منتظرا فى رحلتى قبل كل شئ كما أنه ضرورىّ على كلّ حال خصوصا بعد ماتحدّث به المتحدّثون وكتب فيه الكاتبون

قد ذكرت فى غضون هذه الرحلة ماكنت لاقيته من أولئك الكرام المساميح أهل بيروت وأهل الجبل حكاما وغير حكام وما كان من لطفهم وأدبهم واعتنائهم بضيوفهم ممّا مرّ على القارئ بيانه من وقت أن كنا فى ميناء بيروت الى أن نزلنا فى محطة دمشق وانه مافاتنا والحمد لله أن نشكر لهم معاملتهم لنا وحسن صنيعهم بنا عدّة مرات كما أننا كتبنا كل ذلك مفصّلا فى رحلتنا هذه ليبقى معروفهم مسطرا على

صفحات الكتاب مثل ما كان مطبوعا من قبل فى طويات الألباب ، وقد كان بودّى لو أنه يسطر بمداد من نور على صفحات خدود الحور . واذا رأى القارئ فيما رأى أنى لم أنس ذلك لأحد منهم حتى ولا لأصغر القوم سنا وأقلّهم شأنا واحتراما عرف من مبدئى فى الأمور الاعلان بالصدق والصراحة فى الحق كائنا ما كان وبالغا مابلغ .

(زيارة فى الفندق)

عدنا الى الفندق وبعد قليل من الزمن حضر الينا صاحب الجريدة الذى كان قابلنا فى دار الولاية وقد ارتحت كثيرا لمجلس هذا الرجل الظريف لما سبق لى من مروءته ومعروفه على غير معرفة سابقة وكان حديثنا معه قاصرا على وصف بلاد الشام وذكر مواهب الله فيها من خصوبة الأرض وجودة الهواء وعذوبة الماء وصفاء الجو الى غير ذلك ، وما كدنا نتم حديثنا معه فيما كان يقتضى سرورنا من مناظر تلك البلاد وأشكالها الطبيعية الساحرة حتى جاءنا عدّة رجال من أعيان المدينة مظهرين لنا شدّة استيائهم من أننا لم نخبرهم بوقت حضورنا الى دمشق اذ كان ذلك سببا فى فوات أكبر فرصة كانوا يتنهزونها لتأدية الواجب نحونا من الاحتفاء بنا والاحتفال باستقبالنا لدى المحطة فشكرنا لهم جميعا هذا الشعور العالى والاحساس الجميل ثم جاء بعدئذ

الأمير على بن الأمير عبد القادر الجزائرى فقابلناه بما يليق بمقامه الكريم من الحفاوة والتعظيم أما حضرته فكان وقورا بشوشا سمح الوجه ظريف المحادثة لايشك من يراه أنه من بيوت المجد والامارة ، وقد أظهر لنا فى فاتحة حديثه ماانطوت عليه نفسه الطاهرة من الميل والاخلاص للأسرة العلوية ثم أخذنا نتبادل أطراف الحديث وكان أكثر مايدور عليه كلامه هو امتداح المغفور له جدّنا الاكبر محمد على باشا وبيان مآثره النافعة فى بلاد الشرق وكان يسرنى ماكنت أسمعه من ذلك الحديث الحسن الصحيح سرورا جمًا ليس ذلك لأن الأمير كان يطرى جدّنا ويذكر من أعماله وآثاره ما كان يذكر فان الآثار والأعمال نفسها تعرب عن قدر صاحبها واستحقاقه شكر الناس له اعرابا صحيحا لاشك فيه ولا خلاف عليه ولكن ذلك لأنى رأيت مثل هذا الاعتراف الجميل يصدر عن انسان لانسان آخر على خلاف المألوف فى طبائع أغلب الناس خصوصا فى هذا الزمان فانه قلّما يعترف واحد لغيره بفضل أو ميزة اللهم الا اذا كان نفاقا أو رياء وقد يدفع الحقد ببعض الناس الى أن يزيدوا على نكران المعروف ونسيان الجميل والمروءة أن يتلمّسوا لصاحبهم مواضع العيب والنقص من أعماله وينشروها ليشهروا به فى المحافل والمجالس تشهيرا وان أعجب مافى

الانسان أن تراه شديد العداوة والبغضاء لأخيه عظيم النفور منه ومع ذلك فانه شديد الحاجة اليه عظيم الرغبة فيه، فبينما تجده يكره منه أن يزاحمه على خير أو يشاركه فى فضل أو يستأثر دونه بعلم أو عمل، ويمقته ويزدريه ويودّ لوأنه يستأصل من هذا الوجود فلا يبقى له أثر فيه اذا هو لا يستطيع أن يعيش بدونه ولا أن ينهض بغيره، لا يرى معونته الا منه ولا سلطانه الا به ولا عزه الا فى بقائه، فقضية الانسان فى تلك الحياة متناقضة معكوسة وقل مع هذا أن يملك الواحد نفسه وينصف صاحبه ويعطيه قسطه من المدح وحقه من الثناء والشكر وحينئذ لابدع اذا كان يسرنى جدّا أن أرى انسانا مثل هذا نظيف القلب مغسول الصدر من أدران الحقد والحسد. وانى بعد أن شكرته جزيل الشكر وأثنيت عليه جميل الثناء قلت له اذا كان للمرحوم جدّنا محمد على باشا فى الشرق من تلك الآثار الواضحة والأعمال الخطيرة النافعة مايستوجب شكر الناس له، فاننا معشر الشرقيين لاننسى أن لأبيكم فى الغرب من الاصلاحات الكثيرة والمنافع الجمة الجليلة ماليس يقلّ عن ذلك شيئاً وعلى هذا انتهى حديثنا. وكان من ضمن الزائرين لنا فى مساء هذا اليوم حضرة عبد الحميد بك غالب نجل المرحوم عثمان غالب باشا وقد استغربت اذ ذاك وجوده فى دمشق فسألته

ماذا جاء بك الى هنا فقال: ان لى عمّا فى هذه المدينة وقد كان المرحوم والدنا اشترى بيتا كبيرا حوله حديقة فى ضواحى دمشق. ثم انه مازال جالسا معنا حتى جاء وقت الغروب فاستأذننا مودّعا بالحفاوة مشكورا على تلك الزيارة .

(ســــــياحة فى المدينة)

فى صبح اليوم الثــانى عوّلنا على الخطــة التى كنا رسمناهــا للسّياحة فى بياض ذلك اليوم، وكان منها زيارة بعض وجهاء المدينــة وسادتها الذين كانوا جاؤا لزيارتنا فى فندق فيكتوريا ومنها أيضًا مشاهدة ما كان لابدّ للسائح أن يطلّع عليه فى دمشق من المناظر والآثار

(الانجليزى فى دمشـــــق)

وفيما نحن نعدّ أنفسنا للخروج جاءنا صاحب الفندق يخبرنا أن الشاب الانجليزى (ومعروف للقارئ من هو) مصاب فى عقله وأنه كثيرا ماتعتريه نوبات جنون شديدة فيتشوّش دماغه ويضطرب فكره وعند ذلك يتهيج وربمّــا يتلوّن فى الملابس والأزياء ويتداخل فيما لا يعنيه من شؤون الناس ولا يبالى أن يزج بنفسه فى أخطر الوقائع وأصعب الفظائع وقد تعدّدت جناياته وجرائمه فى بلاد الشام حتى صار يعرفه كل الناس تقريبا، وأن له أبا رجلا طبيبا من سكّان لبنان ومن محترمى

الانجليز أيضا، وقد تعب كثيرا هذا الوالد المسكين يحاول اصلاح شأن ولده ويعالجه بكلّ أنواع العلاج رجاء أن يؤوب الى ثباته ويعود الى رشده ومع ذلك لم يفده الاصلاح الا فسادا، ولم يزده العلاج الا جنو لمّا أن يئس والده المسكين من جهته ووجد أن نسبة ابنه اليه وارتباطه به على هذه الحال السيئة ربما يلحق به أذى وضررا من جرّاء الجنايات التى يقترفها ذلك الولد بخبله وجنونه اضطرّ أن يعلن على الملأ انفصاله عنه وبراءته من كل مايحصل منه، أما أنا فقد أدهشنى جدّا هذا الخبر الفجائى الغريب، ولكنى كنت أسأت الظن بالمخبر حتى أتبين صحة خبره، فسألت عن حقيقة ذلك الانجليزى بعض من يعرفه من سكان دمشق فأجابونى بما أكد عندى حكاية صاحب النزل وحققها تحقيقا، وعندئذ لم يسعنى غير أن أوعزت الى حضرة الفاضل احمد بك العريس أن يخليه من مأموريتنا ويبعده عنا بدعوى أننا لا حاجة لنا برؤية الخيل ولا شرائها، وقد وصلناه بمكافأة مالية ترضيه. فانصرف بها الى حال سبيله. أما نحن فقد اعتبرنا ماذكره لنا الخواجه بيترو نصيحة جميلة وشكرناها له فى نفسنا. وبعد ذلك ركبنا عربة من باب الفندق وذهبنا جاعلين وجهتنا فى أوّل الأمر ردّ الزيارات، فابتدأنا بزيارة سعادة محمد باشا العظم فى داره التى كانت

واقعة فى داخل البلد الأصلية من ضمن العمائر القديمة، وهى من البيوت الأثرية النفيسة شرقية الشكل فيها ساحة من حولها الغرف، وفى الساحة أشجار وأغراس وبركة ماء وقد تكون البرك فى داخل الغرف أيضا والأرض كلها مبلطة بالرخام المرمر الجميل وبعض السقوف والجدران مذهبة أو مزخرفة بفاخر الفسيفساء وقد كان أكثر البيوت التى زرنا فيها أصحابها من هذا القبيل وان كانت تتفاوت بالطبع فى سعة المساحة وضخامة البناء وبالجملة فان بيوت دمشق التاريخية تشبه كل الشبه البيوت القديمة فى جميع بلاد الشرق . ومثل تلك البيوت فى مصر بيوت الغز والسادات . وحقيقة كانت بيوت دمشق التى زرناها جميلة المنظر دقيقة الصّنع يطالع فيها المتأمّل درسا طويلا من أهم دروس التاريخ الأثرى، ومنها يعلم كيف كان غرام المتقدمين وولعهم بالفنون البديعة والصّنائع الدقيقة نعم، ويعرف أيضا الى أىّ درجة بلغت عنايتهم بزخرفة بيوتهم بالرسوم الفاخرة والأوضاع المحكمة، وقد كنت أدركت شيئا من الفرق بين تلك الصّناعة فى بيوت الشام وبينها فى بيوت مصر . فهى فى الأخيرة أدقّ وأتقن منها فى الأولى وأظن أن هذا الفرق يمكن أن يدركه كل من زاول هذه الصناعة واطلع عليها فى المدينتين . ولكنى مع مزيد الأسف أقول ان الصّناعات القديمة والآثار التاريخية

ليس لها مكان من قلوب المصريين ولا نصيب من استحسانهم مثل مالها من قلوب غيرهم، لأن معظم عنايتهم أو كلها منصرفة دائما الى التقاليد الغربية والأنماط الافرنكية وبالأخصّ فى العمارات التى غيرت بالكليّة هيئة البلد وخرجت بها عن الشكل الشرقى بالمرّة وانه اذا كان بقى من ذلك البناء القديم بقية الى اليوم فان ذلك من النادر القليل. وكم كنت جذلا مسرورا من أن أهل الشام لايزالون الى اليوم محافظين على آثار أسلافهم وتاريخ عمائرهم اذ أن أكثرهم مافتئ يسكن البيوت العتيقة، ولا سبب لهذا فيما نعلم الا أن العوائد الأوربيّة لم تتغلّب عليهم ولم تنل منهم ريثما نالت من سواهم فهم شرقيون بارّون بالشرق محتفظون بمخلفات الأصول وآثار الجدود. وبعد أن انتهينا من الزيارات ومشاهدة أفخر البيوتات ذهبنا الى أسواق المدينة.

(أسواق المدينة)

فى هذه المدينة أسواق كثيرة تسمى بأسماء مختلفة، وفى الغالب يسمى كل سوق منها باسم مايصنع أو يباع فيه على نحو مايعرف فى المدن الكبيرة وهذه الأسواق على نوعين مجموعة ومتفرقة. والمجموعة منها يطلق عليها اسم المدينة وهى شرقية الشكل أكثرها ضيق مسقوف. أما سوق الحميدية الجديدة وسوق الخوجه وسوق محمد على فهى من

الأسواق الحديثة الجميلة ويوجد فى المدينـة من الخانات عدد كبير أقدمها خان أسعد باشا وخان سليمان باشا وقد كان أول مرورنا من السوق الأكبر ورأينا أن حركة البيع والشراء متبادلة هناك بين الشرقيين وقلما وقعت العين على أوربى يبيع أو يشترى أو يمرّ فى هـذا السوق على أنه هو أكبر الأسواق فى ذلك البلد ثم اننا كنّا نسير بين حوانيت من الجانبين منها حوانيت السروجية والقصّارين وباعة الخبز واللحوم المشويّة والعطّارين وغيرهم من أصحـاب التجارات وأرباب الصّنائع الشرقية البحتة كما كنا نلاحظ أن مجموعة المتعاملين بالبيع والشراء كانوا يختلفون بين عرب وأكراد وأعجـام وشراكسة ويتميزون كل بلبوسه المعروف، ثم ان هناك بعض الأعاجم قد اتخذوا محالّ لنقش الأختام وجماعة كثيرة من الكتّاب العموميين يجلسون متفرقين فى طول السوق ومسافة مابين الواحد منهم والآخر تبلغ من عشرة أمتار تقريبا الى عشرين فى الكثير، وحول هؤلاء الكتّاب زحام من أهل البـلد اذ يستكتبونهم العروض والجوابات كما قد يشاهـد فى الشوارع القريبـة من المحاكم الأهلية والأقسام فى مصر وكنا نرى بعض أناس من حملة المبـاخر يروحون ويغدون فى الطريق لطلب الصـدقات من المـارّة وأصحاب الحوانيت، كما كنا نجد من الناس من يشـترى الخبز ويلقمه

الكلاب. ومن عادة التجار التى لاحظناها منهم فى هذا البلد أنهم يشغلون أوقات فراغهم من حركة البيع والشراء بقراءة القران ومطالعة الكتب أو بالتدخين فى النارجيل .

(فكاهة)

ولنذكر هنا على سبيل الفكاهة ما كنا نسمعه من مناداة بعض السوقة فى الطريق ذلك أن بائع الليموناده ينادى (بيبرد الله قلبك اطف الحرارة) . ويصيح بائع الجلاب وهو التمر هندى المعروف (مواللال ياولد) يريد أنه صاف جدا . وبائع الخشاف البارد ينادى (بالك سنونك) ويقول بائع الورد (صالح حماتك) . هذا ما كنا وعيناه من ندائهم أثناء مرورنا وبعد ذلك سرنا من جملة أسواق كان منها سوق الحميديّة نسبة فيما يقال الى السلطان عبد الحميد وفى هذا السوق يوجد أيضا خليط من التجارات الشرقية ثم سوق العصرونيه وسوق باب البريد وهكذا حتى وصلنا الى جامع بنى أمية .

(جامع بنى أمية)

موقع هذا الجامع فى آخر سوق الحميديّة من الطرف الشرقىّ ويقال ان موضعه فى الأصل كان معبدا وثنيا ثم حول الى كنيسة مسيحيّة فى عهد الامبراطور اركديوس وكانت تسمى بكنيسة القديس يوحنا

ولعل سبب هـــذه التسمية وجود رأس يوحنـــا المعمدان فى تلك الكنيسة وهو النبي يحيي عليه السلام الذى لايزال مدفونا تحت احدى قباب هـــذا المسجد وكل أهل دمشق يقسمون برأسه، وعند هـــذا المسجد تقابل خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما عند فتح دمشق وزعموا أن الجهة الشرقية منـه أخذت غصبا وعنوة وأن الجهـــة الغربية تركت للسيحيّين. وكان المسـلمون والمسيحيّون يدخلون أوّلا من باب واحد اذا أرادوا الصـلاة وقد استمرّوا كذلك الى عهد الوليد بن عبـد الملك وبعد ذلك صار المسجد كله للمسلمين لأن الوليد أخذ من المسيحيّين نصيبهم منه فى نظير أنه ضمن لهم بقاء ملكيتهم لجملة كنائس أخرى متفرقة فى دمشق وضواحيها ثم انه هدم جميع الكنيسة من الداخل حتى لم يبق من بنائها الأصـلى الا السور الخارجى وبنى مسجده الجميـل الذى أحكم بنيانه حتى صـار آية من آيات الحسن والبهاء، وكان المهندسون فيه من اليونان ويقال ان الوليد عند ماأراد الشروع فى البناء استحضر ١٢٠٠ صانع من اسلامبول لهذا الغرض ولبثوا يشتغلون فيه مدّة تسع سنين، وقد جمع كل الأعمدة القديمة التى كانت متفرقة فى مدن الشام الأثرية ورصّ أرض الجامع بنوع من الرخام الجميل النّادر، وكذلك فعل بدوائر الجدران من أسفل

وأما القبة وحيطان المسجد من الأعلى فقد كان نقشها وزخرفها بحجارة ملوّنة دقيقة وكذلك كانت محاريب الصلاة مزدانة بأبدع النقوش من ألطف الألوان وأدق الحجارة وكانت عقود هذه المحاريب مزينة زينة باهرة بسـلاسل وأغصان ذهبية أمّا السّقف فـكان كله من الخشب المتين المطعّم بالذهب،وكان فى المسجد ٦٠٠ قنديل من ذهب خالص ويقال ان دفاتر الحسابات لهذه العمارة نقلت الى الوليد على ١٨ بغلا. وحينما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز غير بعض معالم المسجد فأبدل هذه القناديل الذهبية بقناديل عادية من الزجاج،وفى سنة ٤٦٠ من الهجرة، وهى السنة التى استولى فيها تيمورلنك على دمشق كان قد دهم هذا المسجد بحريق أتلف منه جزأ، ومن ذلك الحين لم يعد المسجد الى جماله الاول وشكله القديم ثم انه احترق مرة أخرى فى ١٤ اكتوبر سـنة ١٨٩٣ فتلف فيه قسم عظيم وكان ذلك على عهد السـلطان عبد الحميد وقد صـدر أمره اذ ذاك باعادة القسم المحترق وتجديده على مثل ما كان. ويقال انهم جمعوا ٨٠ ألف جنيه أكثرها من تبرعات الناس أعادوا بها البناء وأن جميع الصناع والمهندسين كانوا من الدماشقة، اذ يقال انهم اجتمعوا على أن لاتزاحمهم يد أجنبية ،ثم ان الجامع الآن لم يبق فيـه من المبانى العتيقة التى كانت قبل الاسلام الا قوس نصر

وهو قوس محكم الوضع متقن الصناعة جميل المنظر جدّا وكذلك بقية
من باب واحد فى الجهة الجنوبيـــة وطول المسجد يبلغ ١٣١ مترا
ويبلغ عرضه ٣٨ مترا، فمساحته تبلغ حينئذ ٤٩٧٨ مترا مربعا أما
بناؤه فقائم على موضـع الكنيسة وفيه صـفان من الأعمدة الشاهقة
تقسم المسجد الى ثلاثة أروقة ويبلغ طول العمود من تلك العمد ٧
أمتار ثم ان سُقُف هذه الأروقة الثلاثة متكئة على كُلّ خشبية ضخمة
منقوشة بأبدع النقوش وقد نقش على الحائط الغربى من داخل
المسجد أسماء الخلفاء الأربعة بالخطّ الكبير كما كتب على الجـــدار
الجنوبىّ وبقية الجدران بعض كلام الله سورا كاملة وآيات من بعض
السور وهى منقوشة أيضا بالثلث الجميل وفوق القبلة والمنبر من الجهة
الجنوبية ثلاث نوافذ كبيرة تمتاز عما عداها بجمال الزجاج وحسن رونقه
فيها. وفى الجامع محاريب منهـا محراب خاص بالحنفيـة وآخر خاص
بالشافعية وآخر يسمى بمحراب الصحابة وقريبا من ذلك المحراب يصلى
السادة الحنفية وهم أكثر عددا فى المصلين من أهل المذاهب الأخرى
ولعلّ ذلك لأن معظم أهل المدينة من هذا المذهب. ويقال ان الذى
بنى هـذه المحاريب هو تنكز فى سنة ٧٢٩. وفى وسـط المسجد قبة
عاليـة جدّا مثمنة الشكل وفى كل جهة من جهاتها نافذتان على شكل

نصف دائرة ويقال ان هذه القبة مغطاة بالرصاص ولا يوجد بناء
من أبنية المدينة كلها أعلى منهـا الا المآذن الثلاث ولذلك هى تنظر
للسافر من مسافة بعيدة ويرى على رأسها هـلال شاهق وتسمى قبة
النسر وربمـا سميت كذلك لأن الرواقين فى شمالها ويمينها كجناحين لها ،
وفى صحن الجامع أربعة أعمدة مغطّاة باالرّخام الملوّن وهى قائمة على القبر
الذى دفنت فيه رأس يحيي عليه السلام.أمّا رحبة المسجد فتحيط بها
بواك كثيرة الا أنها ليست نصف دائرة تماما بل شكلها بيضاوىّ تقريبا
ويقال ان عدّة هـذه البواكى تبلغ ٤٧ باكية وتيجان العُمُد فى تلك
الرحبة بارزة مربعة الشكل لاتختلف شيئا عن تيجان الأعمدة المصرية .
ويقال ان هـذه الرحبة كانت فى الزمن السابق مبلّطة بالرّخام المرمر
النّفيس وفى الجهـة الغربية من تلك الرّحبة قبـة أخرى تعرف بقبة
الخزنة ،وفى وسطها قبة كذلك تسمى بقبّة النوفرة ويقال انهـا واقعة
فى منتصف المسافة بين اسلامبول ومكة المكرمة ،وفى الجهة الشرقية
قبّة الساعة وهى واقعة أمام قبة الخزنة وفيها ساعة ثم ان وراء الأعمدة
من النّاحية المقابلة للسجد عدّة غرف خاصة بالعلماء والطلبة .أما مآذن
الجامع فثلاث أوّلها مأذنة عيسى وهى واقعـة فى الجهة الشرقية من
المسجد مثمنة الشكل ونقشها من الصّناعة العربية الدّقيقة ولها ثلاثة

أدوار يصعد اليها بنحو ١٨٧ درجة وتنتهى بكرة عليها هلال ومن فوقها يرى الانسان منظرا بهيجا اذا هو أشرف منها على أبنية المدينة وقوس نصر جميل بين البساتين والمزارع ويعجبني تشبيه بعض من شاهد ذلك المنظر بأنه قطعة من الصخر الرمادى فى اطار من الزمرد الأخضر الشهى ثم ان هذه المأذنة تزيد فى الارتفاع عن قبة الجامع بنيف ومائة قدم والسّياح يصعدون اليها ليروا ذلك المنظر العجيب ولولا أن الزمن قليل والسّفر طويل لكنت فى عداد أولئك الصاعدين حتى لايفوتنى أن أتمتع به مثلهم. أما المأذنة الثانية فهى فى الجهة الجنوبية الشرقية وتسمّى بمأذنة الساعة وسببُ هذه التسمية فيما يزعُمُ الناس أن سيّدنا عيسى سينزل عليها عند قيام السّاعة، وهاتان المأذنتان قديمتان جدّا على مايقال حتى ذهب بعض المؤرّخين الى أنّهما موجودتان منذ عهد الرومانيّين واليونانيّين. أما الثالثة فقائمة فى الجهة الشماليّة وتسمّى بمأذنة العروس بناها الوليد على غاية مايمكن من الاتقان والابداع وهى وان كانت لاتبلغ فى الطول مثل سابقتيها الا أنها تفوقهما حسنا وجمالا. وقد تغزل فيها بعض الأدباء الظرفاء فقال.

قاسوا حماة بجلق فأجبتهم ❁ هذا قياس فاسد وحياتكم

فعروس جامع جلق مامثلها ❁ شتان بين عروسنا وحماتكم

وأما أبوابه الخارجية فسبعة أكبرها جيرون فى جهة الشرق

(اهـداء عالم)

فرغنا من زيارة المسجد الأموى وعند ما كنت مسرعا فى الخروج منه تقدّم نحوى شيخ يناولنى كتابا على غير معرفة وقد حسبت أنه من فقراء المساجد جاء يتلمس منا صدقة فأمرت له بجنيه وأخذت منه الكتاب وأنا لاأزال مسرع السير حيث كان مقصدى زيارة قبر المرحوم صلاح الدين الأيوبى قبل أن ندخل فى وقت الظهر ولكنى عرفت أخيرا أن ذلك الشيخ الذى أهدى الىّ كتابه هو شيخ الجامع الأموى نفسه وعندئذ أسفت كثيرا لأنى لم أقابله بما كان يستحقه من الاحترام لشخصه ويقتضيه من الشكر لهديته لاسيما والكتاب مخطوط قديم التاريخ نبيل الموضوع اذ فيه ذكر فضائل مصر وعجائبها من القرآن والحديث وآثار السلف وفيه أيضا مسائل كثيرة فى جغرافيتها الاقتصادية وانما عرفت وظيفة هذا الاستاذ حينما تصفحت الكتاب فرأيت عنوانه مكتوبا بخط يده على أول صحيفة منه تحت ما كتبه من عبارات الاهداء التى تدل على أدب ذلك الرجل وتواضعه وانه وان فاتنا أن نشكر له ذلك فى وجهه فانه لم يفتنا أن نسطّره فى رحلتنا وذلك أبلغ فى معنى الشكر والثناء .

صلاح الدين الأيوبى

من هو صلاح الدين الذى قصدنا الى زيارة قبره . انى أعتقد قطعا أنه ليس على وجه الأرض أحد الا وهو يفهم قدر هذا البطل الكبير والفاتح الشهير كما يفهم وجود نفسه . كيف لا وهو الذى طبق صيته الخافقين وبلغت شهرته الى عنان السماكين ، وكانت له الفتوحات الكثيرة والحروبات المدهشة التى لم يسمح فى غابر التاريخ ولا حاضره بمثلها لأحد من الملوك والسّلاطين ولا غيرهم من العالمين . ولولا أنى لاأحكم على الغيب ولا أتنبأ بالمستقبل لقطعت بأن الزمان لم يعد يسمح بنظيره .

حلف الزمان ليأتينّ بمثله ❁ ان الزمان بمثله لبخيل

وليس لنا أن نفيض فى وصفه ولا أن نطيل بذكر تاريخه بعد أن امتلأت بطون التواريخ بقصصه الطويلة وشرح أعماله الجليلة التى شهدت بها الناس جميعا حتى أعداؤه ومبغضوه .

ومليحة شهدت لها ضراتها ❁ والفضل ماشهدت به الأعداء

ولكن لابأس أن نورد فى رحلتنا نبذة من تاريخه العطرى تبركا بذكره الفخيم وتيمنا باسمه الكريم .

هو السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب ولد رحمه الله فى تكريت سنة ٥٣٢ من الهجرة وقدم به أبوه الى دمشـق وهو رضـيع فنشأ فى حجره وكان أبوه اذ ذاك مستعملا على بعلبك ولما ترعرع صلاح الدين أرسله المرحوم السلطان نور الدين الشهيد مع أمراء جيشه للحرب فى مصر فأبلى فيها بلاء حسنا وأظهر من الشجاعة والبراعة ما أكبره وسما بمقامه فى أعين الناس ،ثم عاد الى دمشق وأقام بها الى أن أغار الصليبيون على مصر وكادوا يستولون عليها وكانت وقتئذ بيد الفاطميين فطلب نور الدين اليه أن يذهب الى مصر مع عمه شيركوه فأجاب عن ارتياح ونكل بالفـاطميين وقطع خطبتهم وصـار من هـذا الحين نائبا فى مصر الى أن مات السلطان نور الدين فاستقل هو بحكمها ومن ذلك العهـد أخذ يفتح البلاد فتوحاته الكثيرة حتى مات فى مدينـة دمشـق فى يوم ٢٧ صـفر سنة ٥٨٨ وكان عمره لايتجاوز ٥٧ سنة وكان رحمه الله غاية فى الجود والكرم حتى قيل انه لم يترك بعد وفاته سوى ٤٧ درهما وهى ثروة ربمـا ترك السائل لأولاده أضعاف أضعافها ولكنه البذل والسخاء والحنان والشفقة على المساكين والفقراء تستنفد المـال ولو كان مثل الجبال .

دخلنا قبة هذا الملك وهى بجانب الجامع الأموى من جهة الشمال ورأينا حال دخولنا حديقة لاتزيد عن خمسة أمتار طولا فى مثلها عرضا وهنا أخذتنى هزة عند مارأيت صلاح الدين صاحب الحروب الصليبية والذى أخضع الجبابرة وأسر القياصرة والذى كان يضيق بهمته الشماء فضاء مابين الارض والسماء ينتهى أمره بسكنى هذا المكان الضيق وتكون حديقته أمتارا معدودة يوجد فى مقابر البسطاء من الناس ماهو أكبر منها نعم إن الميت فى قبره لاينتفع بسعة المكان كما لايهمه شئ من زخارف الحياة وانما أسفى كان من أن الشرقيين وهم أعرف الناس بقدر هذا الفاتح المظفر لم يحفلوا به كما يحفل الغربيون بعظماء رجالهم مع أن الغربيين أنفسهم قد قدروا قدر هذا الرجل وليس هناك أدل على ذلك من اهداء أمبراطور المانيا الى قبره اكليلا زهريا يسر الانسان أن يرى منه برهانا على شعور جلالة الامبراطور وأضرابه بقدر مايحزنه أن لايرى شيئا مطلقا من جانب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا على قبره .

(الصالحية)

هى احدى القرى والأحياء التى تنقسم اليها مدينة دمشق وقد كنا عوّلنا على ارتيادها فى هذا اليوم فبعد أن فرغنا من مشاهدة الأسواق

وانتهى أربنا من زيارة الأعيان وبعض الجوامع ومن كل ما كان يهمنا أن نطلع عليه بالقصد أو كان يصادفنا أيضا على غير نية وحساب عند ما كنا نسير فى الشوارع والطرقات . توجهنا تحوطنا رعاية الله الى الصالحية وكان الوقت عصرا فسرنا فى طريق كان من أجمل الطرق وأحسن المتنزهات فى تلك البقاع حيث لا يلتفت فيه الانسان عن ذات يمينه أو عن ذات يساره حتى يرى الأرض من الجانبين خضراء زاهيـة بالبساتين والمزارع التى يميـل اليها الطبع ويفرح منها القلب ولا يزال المسافر فى ذلك الطريق يمر بين مناظر طبيعية تختلف فى الحسن وتتفاوت فى الجمـال ويتنقل من منظر شهىّ الى أشهى ومن شكل بهى الى أبهى ولا يودّع فيه نهر الطرة حتى يستقبل بعده نهر البريد وهكذا الى أن يصير فى الصالحية وهى قائمة على هضبة جهة الغرب من المدينـة وعدد سكانها يبلغ نحو عشرة آلاف نسمة ويمرّ منها نهر البريد وفيها من الأشـياء المشهورة جامع الصوفى الشهير محيي الدين ابن العربى وقبر عبد القادر الجزايرى، وقد سرنى جدّا منظر هذه القرية التى جمعت الى طيب المناخ ونضارة البقعة واعتدال الجوّ من ضروب الحسن والبهاء مالا يمكن الإعراب عن نعته بأكثر من أنه جنة عالية تجرى من تحتها الأنهار، كما قال بعض الشعراء ،

الصالحيـــة جنـــة ۞ والصالحون بها أقاموا

وهذا قليل فى وصف بلد مثل هذه وانك تكاد تطير فرحا وسرورا عند ماتشرف منها على دمشق وما يتخللها من الماء والخضرة ويحيط بها من البساتين النضرة، فترى من هــذه المجموعة البديعة منظرا يخــدع النفس حسنه ويسترقّ الفؤاد جماله . مررنا هناك فى جملة شوارع ورأينا فيما كنا نراه بيوتا وأكواخا صغيرة تدل بظاهر هيئتها على أن سكانهـا من الفقراء البائسين وقد كنت أحسب أنهم من العرب ولكنى عند ماتأملت شكلهم عرفت أنهــم من أهل كريد المسلمين توطنوا تلك الجهة واستعمروها،وقد رأينا فى نفس البلد أيضا بيوتا كبيرة وقصورا مشيدة وهى من أملاك أكابر الدماشقة وأعيانهــم،ثم صادفنا ونحن خارجون من تلك القرية مصطبة تعرف بمصطبة الامبراطور وقــد استغربت هذه الاضافة فسألت من بعض القوم عن سببها فقالوا ان امبراطور المانيا لمـا زار تلك الجهة نصبت له خيمة فيها ووقف على تلك المصطبة ليرى منظر المدينة وما حولهـا،ومن هذا الحين نسبت اليــه ودعيت باسمه . ثم انه لم يكن وراء الصالحية من الجهــة الغربية الا جبل قسيون . وأما من ناحية الشرق فلست أجدنى مبالغا اذا قلت ان الطبيعة لم تجلّ للعيون فتملأهـا حسنا ولا للقلوب فتنهبها طربا

الا فى تلك البقعة عندما يشرف الانسان منها على المدينـة وما يحيط بهـا فيرى من الحسن والابداع وجمال التكوين والاختراع مالم يعثر النظر على مثاله ولم تنسج الطبيعة على منواله وكم كنت آسفا من أنى لست بالشاعر الخيالى ولا بالرسام المـاهر حتى كان يمكننى أن أصوّر للقـارئ كيف كان يفعل بالعقول ذلك المنظر الساحر حينما كنت أشرف تارة على ناحية الشرق فأرى السفح مفروشا من النبات البهىّ بمثل البساط السندسىّ وأرسـل النظر تارة أخرى الى شمال الجنوب فأشاهد مآذن دمشق الشاهقة بين مبانيها ومعالمها الفائقة وقد أحاط بها سـياج من الحدائق الفيحاء إحاطة النطاق بخصر المشبوبة الهيفاء فما أدرى وقتئذ اذا كنت أردّد البصر بين نضارة المزارع وجمال المدينة أم كنت أغازل عروسا بديعة الحسن فى ثياب البهاء وشـعار الزينة ، ولكن ماذا كان يفيدنى أن أكون أبلغ المتكلمين فأصف ما كوّنته يد القدرة فى هذا المقام الكريم بأفصح مقـال وأوضح تبيين أو أكون أحذق المصـوّرين فيتحرّك قلمى فى رسم ذلك المنظر الفخيم بأبدع نقش وأبهر تلوين وانه شتان بين مايقع فى القلب من روعة المشاهدة والعيان وبين مايصل الى السمع من حديث التعريف والبيان .

ياابن الكرام ألا تدنو فتبصرما ۞ قد حدّثوك فما راء كمن سمعا

وعلى ذلك تمت الرحلة الى الصالحية ،

ثم عدنا الى الفندق وقدمررنا فى أثناءالطريق بمدرسة الملك الظاهر بيبرس ومكتبة الحكومة التى جمعت عند قبره واشتهرت فى تلك الدائرة بادخار نفائس الأسفار العربيةوغرائب الكتب الفنيةويقولون انه قبل أن تتكون هذه المكتبة كانت الكتب متفرقة فى عدّة أماكن متنائية فكان يصعب على عشاق العلم أن يصلوا الى غايتهم من البحث والمراجعة فى تلك الكتب على أن تباعد مواضعها كان من أهم الأسباب لتدشيتها ونقص بعضها بل ضياع عدد كثير منها ولولا أن أتاح الله لها مدحت باشا فعنى بجمعها وترتيبها لكانت اليوم فى حيز العدم وكانت تكون دمشق كبيروت خالية من المكتبات العامة التى لا تقل فائدتها فى المجتمع عن المدارس . ثم انى كنت عجبت من أنه كيف تكون بيروت خالية من الكتبخانات العامة وهى البلد الوحيدة التى اختصت من بين سائر بلاد الشام بكثرة المدارس وانتشار العلوم والمعارف ، ولا شك أن تأسيس مثل هذه المكتبة الجميلة المشتملة على الكتب القديمة فى مدينة كبيرة يعدّ نهضة شريفة تبقى لمدحت باشا فى تاريخه الى آخر الزمان ، وقد كان أمام هذه المكتبة جامع ابن بيبرس وقد منعنا

أن نزوره ونزور غيره أيضا من جوامع دمشق الكثيرة التى منها أيضا
جامع السنانية أننا كنا قريبين من وقت الظهر، وبعد أن تناولنا طعام
الغداء فى الفندق أخبرنا بحضور جملة من الخيل فاطلعنا عليها وكنا
نحسب أن فيها مايجتلب رغبتنا ويجتذب استحساننا ولكنا مع مزيد
الأسف وجدناها كسائر الخيل المعتادة لاتمتاز حتى ولا بأنها من تلك
الجياد الأصيلة ولذلك صرفنا عنها نظرنا وذهبنا فى عربة الى زيارة
تكية المولوية تلك التى ذكرنا أنها كانت فى طريقنا من المحطة الى
الفندق دخلنا هذه التكية وهى من البناء المزخرف الجميل قائمة فى وسط
حديقة غناء وقد استقبلنا عند مدخلها شيخها وهو رجل كامل
ظريف وبعد أن رحب بنا ناولنا من سعوطه الذى أخبرنا أنه من
عمله وصنعة يده فشكرت له أدبه ومعروفه ثم طفنا على قاعات التكية
ورأينا أن أهلها من أولهم الى آخرهم ممتلؤن جذلا وسرورا بسبب أن
جلالة السلطان محمد الخامس مولوى الطريقة فهم من أجل ذلك
يطمعون فى رعايته وعطفه بنوع خاص ويؤملون أملا كبيرا فى أن يكون
لجميع التكايا من وراء ذلك مايرقيها ويوسع نطاقها حقق الله آمالهم
ثم قصدنا الى زيارة شيخ النقشبندية ومن هناك مررنا ثانيا من داخل
المدينة فى عدّة أسواق يتصل بعضها ببعض وتتمايز بالأسماء وكان منها

سوق الأروام وسوق باب البريد وسوق الحرير وسوق الخراطين واذ ذاك صادفنا دار أسعد باشا وهى تعدّ من ضمن الأمكنة التى يقصد اليها المسافرون ويرتادها السائحون ولهـذا الباشا خان من ضمن خانات المدينة كما أن لمدحت باشـا سوقا طويلا يعرف باسمه هنـاك ومن الأسواق التى مررنا فيها من هذا الطريق سوق يسمى سوق القطن لأن القطن يباع فيه ومنه مررنا بجامع السنانية حيث قصدنا الى الفندق وكان سبيل سيرنا من ناحيـة المرج وهو طريق طويل من المتنزهات البـديعة المنسـقة مارّ بجوار نهر بردَى وعليه من جهة اليمين واليسار مزارع وأغراس بهيجة والمتفسحون من أهل دمشق يستحسنون هذا الطريق كثيرا وأكثرهم استحسانا له وفسحة فيه المغرمون بركوب الخيل فانهم يروحون ويغدون على خيولهم يرتعون ويلعبون فى هـذا الطريق الجميل بذلك ختمنا رحلة هـذا اليوم وما كاد يجىء صبح اليوم الثانى حتى حضر الينا فى الفنـدق جم غفير من ذوات المدينـة وأصحاب الحيثيات الكبيرة فيهـا وقد كنا تهيأنا للسفر فمـا زال هؤلاء الكرام معنا حتى ذهبنا الى المحطة

(فى محطة دمشـــــق)

جلسنا هناك فى غرفة الاستراحة بين الذين كانوا جاءوا الى المحطة

للاحتفال بوداعنا مسافة نتبادل الحـديث ، وفى تلك الأثناء جاء الينا أحد موظفى الحكومة يحمل معه سلام دولة الوالى واعتذاره الينا عن عدم حضوره بذاته بأنه مريض لايستطيع السـير الى المحطة فشكرنا له هذهالعناية الجليلة والاريحية الجميلة وقلنا لذلك المندوب على مسمع من كل الحاضرين ان شاء الله سيزول مرض الوالى ويحصل له تمام الشفاء والنشاط عندمانفارق هذاالبلد ونسافر، ولما آذن القطار بالرحيل قمت فودّعت جميع الذين كانوا قد حضروا لتوديعنا من عليـــة القوم وحينئذ كنت أسمع منهم عبارات الأسف الشديد ممـا كان حصل من الوالى أوّلا وآخرا، أما أنا فأجبتهم بأنى ماجئت الى بلاد الشام لزيارة الحكومة ولا رجالهـا وانه عندى يسـتوى أن أرى عناية الحكومة واحتفالهـا وأن لاأرى شيئا أصلا لأن الحكومة كل الناس يعرفون أنها كالأعراض دائما متغـيرة لاتثبت على حال واحدة وأنها تتقلب على مبادئ مختلفة تلتئم مع الظروف الحاضرة مثل السفينة التى تجرى فى البحر على حسب ما تقتضـية الرياح وتشتهيه الأهوية وقد تجرى الرياح بما لاتشتهى السفن، وانما جئت بلادالشام لا أقصد الا زيارة أهلها واكتساب معرفتهم ومحبتهم وحسبى أنى والحمد لله اجتمعت فى هذه الرحلة السعيدة بأمثال حضراتكم فسأعود الآن من سـفرى

هذا الى بلادى بأكبر غنيمة وأربح صفقة قلت لهم ذلك، وأنا لا أقدر ما كان يختلج فى صدرى من السرور ولا أستطيع أن أعرب عن امتنانى مما لاقيته من عناية أولئك القوم التى كانت ألمع برهان على شدّة تعلقهم بنا واخلاصهم لنا ولأسرتنا، كيف وانهم سادة البلاد وأصحاب الشأن والكلمة فيها. على أنى ختمت مقالتى لهم بأنه لا ينبغى للانسان أن يمتعض من الحاكم ويغتاظ عليه لمثل هذا الامر قبل أن يتبين سببه، لعل له عذرا وأنت تلوم وما يدرينا اذا كان الوالى فعل ما فعله من تلقاء نفسه أو كان مجبورا ومرغما عليه من قبل أصحاب الحل والربط فى البلاد وأنا عند ذلك الاخير أقول: اذا كانت الحكومة تريد من وراء عملها هذا كسر شوكة الأسرة الخديوية والحط من كرامتها فى عيون الناس فليس فى وسعى حذاء ماتبتغى الحكومة سوى الصبر والسكوت وهو أحسن ما يكون جوابا فى تلك الحال، والا فما ذا ينفع القيل والقال وقد أصبحت البلاد كما تعرفون لا أقول انها بلاد فوضى أو خالية من العظماء والعقلا والحكام والأمراء، ولكن كلنا لا نجهل أن الاختلاف على المبادئ والغايات كثيرا مايوجد الاشتباه والالتباس ويوجب تفرّق الكلمة ويذهب بوحدتها بين الناس خصوصا اذا هم اختلفت شعوبهم واضطربت مضاربهم

وآراؤهم ومن ثم لاتجدى الشكاية من امرئ يزعم أن أكبر المبررات لعمله اعتماده على جانب غيره واطمئنانه الى قوته ونفوذ أمره ولذلك أنا أفضل من الآن الرجوع الى مصر دون أن ألوى فى طريقى على مكان آخر على أن أتم رحلتى فى بقية البلاد فانى أحسب أن هـذا أحفظ لكرامتى وخير لى مما عسانى أصادفه فى حكومات الشام وعندئذ قالوا جميعا: خفّض على نفسك فالأمر أهون مما تظن وسافر على بركة الله الى ما شئت من البـلاد فانك ستـرى ان شاء الله من الآن مايسرك ويرضيك حيث أقمت وحيث ارتحلت فليس فى طريقك من هنا الى بعلبك وحمص وما بعدهما الا قومنا وأبناءنا الذين منهم المتصرفون والحكام، وانك ستجد من عنايتهم واحتفائهم العظيم بمقامك الكريم ماأنت جدير به فشكرت لهم هذا المعروف الكبير والاخلاص المتناهى مرة بعد أخرى . ثم قام القطار وهنا كان آخر رحلتى فى مدينة دمشق وعاصمة الشام الكبيرة. وقد كان بودّى لو أن تطول اقامتى فيها لأتجوّل فى جميع ضواحيها ونواحيها وأطوف أيضا على مدارسها النظامية ومعاهدها الدينية ومعاملها الصناعية ومكاتبها ومطابعها وأوافى القراء فى رحلتى بتفصيل ذلك كله غير أن الوقت كان مع الأسف ضيقا لايسمح لى بأكثر مما كان على أنى كنت ألاحظ فى أثناء مرورى

فى طرقات البلد من داخلها وخارجها أن أغلب السكان من الطوائف الاسلامية وأن عدد المسيحيين بالنسبه اليهم قليل جدا كعدد المسلمين بالنسبة الى سكان لبنان أو هو أقل من ذلك أيضا ،

(طريق السفر الى بعلبك)

مرّ بنا القطار فى سهل البقاع الذى سبق الكلام عليه حتى وصل الى محطة الرياق التى أسلفنا أن القطار يقف عندها زمنا يكفى المسافر لأخذ غايته من طعام الغداء وقد كانت المسافة من هذه المحطة الى مدينة بعلبك أقرب مسافة بين المحطات.ورأينا فى انتظارنا على افريزها سعادة عبدالحميد باشا الدروبى لمناسبة أننا كنا وعدناه بزيارتنا له فى مدينة حمص التى هى بلده وهوسيدها وأكبر واحد فيها وكان معه فى استقبالنا قائم مقام بعلبك وحضرة مطران بك أحد أسرة مطران الشهيرة فى بلاد الشام وان شاء الله سنذكر نبذة من تاريخ هذه الاسرة الفخيمة.وبعد أن تناولنا جميعا طعام الغداء الذى كان مجهزا مع جميع أدواته نزلنا فى القطار الذى ما فتئ يعبث بالارض وينفذ كالسهم فى كبد الفضاء حتى وصل الى محطة بعلبك وكان الزمن الذى استغرقناه فى طول المسافة بين الرياق وهذه المحطة لا يزيد عن ثلاثة أرباع الساعة

(مدينة بعلبك)

هذه المدينة ترتفع عن سطح البحر نحو ١١٧٠ مترا وهى قائمة فى الجانب الشرقى من وادى الليتانى وهو وادخصب التربة جيد المعدن جدّا ثم ان هذه المدينة وان كانت قديمة التاريخ مشهورة فى سوريه غير أنها صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف ومائتى نفس خمسهم من طوائف المسيحيين وهى قصبة قضاء باسمها تابع لواء دمشق وفيها حامية صغيرة وديران روميان وآخران مارونيان ومدرستان للبنات احداهما لراهبات القدّيس يوسف والاخرى للبعثة الانجليزية وفيها أيضا مسلجد ومزارات لبعض الاولياء وروضة أنيقة ونبع يسمى برأس العين وهو من أجمل المتنزهات وماؤه عذب لطيف وفيها من الاثار المهمة والعجائب التاريخية قلعة بعلبك التى هى من أعجب مبانى العالم وأغلب الآثار السورية بعد تدمر وسيأتى لنا عليها كلام بعد قليل مما سنذكره فى تاريخ تلك المدينة .

(تاريخ المدينة)

أصل مدينة بعلبك غير معروف وقد وجد اسمها ضمن كتابة قديمة عثر عليها فى الآثار الأشورية والمصرية ويؤخذ من هذه الكتابات أن المدينة كانت مخصصة بعبادة الاله بعل وكان اليونان يقولون ان بعلا

هذا هونفس اليوس اله الشمس ويفسرون بعلبك بـ (اليوبوليس).
ولما أن جاء الرومان قالوا ان اليوس هو المشترى وكانوا يمثلونه بشاب أمرد أمامه ثوران وفى يمينه سوط وفى يساره صاعقة وبعض من سنابل القمح وفى عهد الملك أوغيست اعتبرت المدينة مستعمرة رومانية كما يدل على ذلك بعض نقود القرن الأول التى وجدت تحت الجدران. وفى عهد الملك انطنيوس الصالح من سنة ١٣٨ الى سنة ١٦١ بعد الميلاد شرع فى بناء معبد لآلهة اليوبوليس الثلاثة المشترى والزهرة وعطارد، ولكن لم يتم بناء ذلك المعبد الا فى عهد (كراكلا) سنة ٢١٧. ثم بنى بعد ذلك معبد الاله باكيس إله الخمر ولما جاء عهد الامبراطور قسطنطين الاول محيت عبادة الزهرة وذلك كان من سنة ٣٢٤ الى سنة ٣٣٧. وفى عهد الامبراطور بتودوز الذى كان من سنة ٣٧٩ الى سنة ٣٩٥ هدم بأمر منه المعبد الكبير بعد أن كانت الزلازل قد نالت منه مرادها أيضا ثم بنى الامبراطور فى موضعه كنيسة وقد وجد فى ضمن الآثار كتابات يذكر فيها بعض أساقفة اليوبوليس. وفى القرن السابع استولى على المدينة بطل المسلمين أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه بعد أن دارت حرب بينه وبين بطريق يسمى هربيس أرسله هرقل عظيم الروم وكان هربيس هذا رجلا

شديد البأس شجاع القلب ولكنه لم تنفعه شجاعته ولم تغنه كثرة قومه وجنده والمسلمون يومئذ أشدّ بأسا وأشدّ تنكيلا وكان عليهم من أمراء الجيش وقواده خالد بن الوليد وعمرو بن معدى كرب الزبيدى ورافع ابن عبد الله السهمى من سادات قريش فنصر الله المسلمين وأيدهم بعد ما كان حمى وطيس الحرب بين الروم والعرب وحصر العرب الروم حصارا شديدا ضايقهم حتى انتهى الأمر بانهزامهم واستكانتهم وخضوعهم لشروط الغالبين . وقد ثار الروم أخيرا بالبطريق هربيس زعيمهم فقتلوه وانضموا للاسلام وتم الفتح للمسلمين واستخلف أبو عبيدة على بعلبك رافع بن عبد الله السهمى وأوصاه على عادته بالعدل والاستقامة . ويعتقد العرب أن القلعة من بناء سيدنا سليمن وقد بنوا فيها حصونا كان لها أهم تأثير فى حروب القرون الوسطى وفى سنة ١١٣٩ استولى الأمير محمود زنجى على المدينة والقلعة . وفى سنة ١١٧٥ استولى عليهما أيضا السلطان صلاح الدين وفى سنة ١٢٦٠ خربها المغول تحت رياسة هولاكو وجاء بعده تيمورلنك فأجهز عليها . أما بناء المعابد فقد وجدت نقود من عهد الامبراطور (سبيتم سفير) سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١ وكذلك وجدت نقود من العصور التى تلى عصر هذا الامبراطور وعليها كلها صورتا

المعبدين ولكن مع هذا لم يعلم بالتحقيق متى كان تم بناء المعبد الكبير وقد وجدت كتابة من عهد انطنيوس الصالح تدل على أن المعبد الكبير كان لجميع آلهة اليوبوليس، وأما المعبد الصغير فكان خاصا بالاله باكيس وعلى كل حال فان بناء المعبدين ينتهى تاريخه الى عصر واحد وقد هدمت جميع تلك المبانى فيما جاء من العصور بعد ذلك وفى القرن السادس عشر عثر بعض الأوربيين على آثار المعبدين ومنذ ذلك الوقت تناوبتهما الزلازل خصوصا فى سنة ١٩٥٩ وقد أظهرت مباحث علماء الألمان من سنة ٩٠٠ الى سنة ٩٠٤ كثيرا من الآثار المفيدة .

(من المحطة الى الفندق)

نزلنا فى محطة بعلبك فوجدنا فى استقبالنا على افريزها عددا كبيرا من أعاظم البلد وأعيانها وأهاليها وكان فى مقدمتهم نقيب السادة الأشراف وبعض أسرته وجناب أسقف الروم الكاثوليك فرحبوا جميعا بمقدمنا وشكرناهم ثم ذهبنا الى الفندق بينما كان الطريق من المحطة اليه غاصا بالأهالى ومذ وصلنا اليه طلبنا من صاحبه مايكفينا وضيوفنا من الغرف ولم تمض علينا فيه الا برهة صغيرة ثم توجهنا نرد زيارة من كانوا زارونا واستقبلونا على المحطة فبدأنا بزيارة أسرة مطران بك

ثم نقيب السادة الأشراف،وقد دُعينا من جانب الاوّل لتناول طعـام العشاء عنده فى مساء ذلك اليوم فأجبناه شاكرين له حسن عنايته ومعروفه،وحين فرغنا من تلك الزيارات ذهبنا وكنا اذ ذاك فى وقت العصر الى التروّض والفسحة فى روضة أنيقة يمرّ فى وسطها نهير غاية فى العذوبة والصفاء وقد اجتمع لأجلنا هنالك عدد كبير من الفرسان على خيلهم الجميلة ثم أخذوا يلعبون أمامنا على جملة طرق كان منهـا طريقة الهجوم وكان البعض من تلك الخيل حروريا كريما فسررت كثيرا من ألاعيبهم وأكثر ماسرّنى أنى شاهدت بين هؤلاء الفوارس جملة من الشبان الأحداث الذين لايزيد عمـر أكبرهم عن ١٤ سنة وكانوا يلعبون ألاعيب مدهشـة بمهارة فائقة وقد مكثنا نشـاهدهم معجبين بمـا كانوا يأتونه من ضروب الفروسـية ريثمـا جىء لنا بالقهوة ثم ذهبنـا الى حضرة أسقف المذهب الارتدكسى (وهـذا المذهب يحتمى أبناؤه بحماية دولة الروسيا) فاستقبلنا حضرته استقبالا جميلا مع بعض رجاله ومذ جلسنا قام شاب من تلاميذ مدرسـتهم وألقى بين يدينا خطابة رشيقة اللفظ كانت تنحصر عباراتها فى الترحيب بنا وبيان ماشمل القوم من السرور بزيارتنا لبـلدهم،فشكرنا لحضرة الأسقف وحاشيته لطفهم وأدبهم ثم خرجنامن عندهم مودّعين بكل حفاوة واحترام حيث قصدنا الى بيت آل مطران ،

(أسرة مطران)

هى أسرة كبيرة قديمة كاثوليكية المذهب هاجرت من زمن بعيد من حوران الى الشام، ثم توطنت بعلبك ولم تزل فيها منذ أربعمائة سنة ويحكى أن جد هـذه الأسرة كان المطران ابيفـانيوس أسقف بعلبك الذى حضر المجمع الأسقفى المعقود فى قرية الراس ضد البطريرك كيرلس الدباس فى سنة ١٦١٨. ومما ثبت بشهادة البطريرك مكاريوس الحلبى أن المطران ابيفانيوس المذكور كان ذا أولاد فمن سلالته آل مطران الذين نحن بصددهم. ولهذه الأسرة التى مضى عليها نحو أربعمائة سـنة وهى فى بعلبك تتناوب المجد وتتوارث الفضل والنبل الى اليوم، تاريخ طويل رأينا أن نكتفى منـه بالقدر الذى ذكرناه ليعرف القراء من هم آل مطران الذين دعونا ونحن ذاهبون اليهـم الآن اجابة لدعوتهـم . ومذ وصلنا الى بيتهم رأيناه من أجمل البيوت وكان فوق حسنه الذاتى وجمـاله الموضعى غاية فى الزخرف والزينة وفيـه ثريات كثيرة يكاد يبيض منها وجه الليـل الحالك. وحين جلسنا فى قاعة الاستقبال جاء الينا حضرة البك يعرفنا بقرينته المصونة على حسب العادة ثم دعينـا إلى المـائدة، واذ ذاك أخذوا يشعلون السواريخ ذات الألوان البديعة التى كانت تمثل فى صعودها وهبوطها جملة أشـياء مختلفة رائعة حتى

انتهينا من تناول الطعام الشهى ونخرجنا الى مجالسنا ريثما تعاطينا القهوة ، ثم انصرفنا مودّعين من تلك الأسرة الكريمة بمثل مااستقبلنا به حيث ذهبنا لا وجهة لنا الا الفندق ثم مالبثنا هناك أن جاء الينا جناب ميخائيل افندى موسى الوف البعلبكى مدير مصلحة الآثار التاريخية فى مدينة بعلبك فاستقبلناه وقد عرفنا بنفسه ووظيفته فسررت من هذا التعريف لأنى كنت مصمما على زيارة الأثر الغريب فى هذا البلد وهو المسمى بقلعة بعلبك أو المعبد القديم . أما هذا الزائر فقد كان عالما أثريا يكاد يتوقد فطنة وذكاء عرفت ذلك مما كان يدور بينى وبينه من الكلام الذى كان يتناول بعض العموميات تارة وبعض الخصوصيات تارة أخرى ثم انه خرج من عندنا على نية أن ينتظرنا عند الأثر ليرشدنا فيه الى ماعساه يخفى علينا وعلى ذلك انتهت رحلة اليوم الأول فى تلك المدينة ولما أن جاء صباح اليوم الثانى توجهنا الى زيارة القلعة وكان فى انتظارنا هناك مدير الآثار المذكور فأخذ يسرد لنا قصتها وتاريخها من أول الأمر الى آخره ويشرح عجائبها وغرائبها شرحا وافيا ضافيا . ومن ذلك أن هذه القلعة أو المعبد القديم كان قبل الآن مغمورا معظمه بالأنقاض والأتربة حتى ماكان يظهر من معالمه الأثرية المدهشة سوى جزء صغير، وما زال كذلك حتى أتاح الحظ لبعلبك أن

زارها جلالة غليوم الثانى امبراطور الالمانيين ومذ رأى أن المعبد كما وصفنا ليس ظاهرا منه الا شئ قليل توجهت همته لكشف هياكله واظهار تماثيله ومعالمه ليعود الى سيرته الاولى فوجه من أجل ذلك بعثة علمية تتألف أعضاؤها من خير مهندسى حكومته ويرأسها أحد مشاهير العلماء، فأخذت هذه البعثة فى البحث والتنقيب عن الآثار تحت أطباق الردم والتراب حتى كشفت ماهنا لك للرومان والأوثان وما تم بعده على يد البيزانطيين ودين المسيح ثم مازاده من البناء غزاه الاسلام ويقال ان هذه البعثة الألمانية استمرت تشتغل فى تلك المهمة نحو سنتين وأنها اشترطت أن تأخذ لنفسها فى نظير ذلك العمل كل ماتعثر عليه من الآثار ذات القيمة متى كان يمكن لها نقله من جهة الى أخرى. وقد ذكرنا أيضا أن العرب والاتراك كانوا قد اتخذوا حصنهم الحصين من ذلك المعبد مدّة حرب الصليبيين وأنهم هدموا ما كان يحيط به من البناء الذى كان يستطاع تسلقه وكان غرضهم من ذلك تحصين القلعة وزيادة منعتها .

قلعة بعلبك

هذه القلعة قائمة فى الجهة الغربية من المدينة وهى مغطاة بآثار المعبدين وقد تقدم ذكرهما ، قصدنا الى تلك القلعة وقد كنا قبل أن

بدنو منها نشاهد منظرا ضخما وبناء شـاهقا لم نرله مثيلا فما برحنا نردّد النظر حوله حتى اذا صرنا منه على مسافة أمتار أفزعنا شكله فى مجموعه وروّعنا مارأيناه من أصوله وفروعه وما زال يزداد عجبنا وتعظم دهشتنا كلمـا تدانينا منه حتى بلغنا اليه فرأينا ذلك المنظر المهول وقد تحللت جملته وتفككت كليته بين حديقة وأغراس جميلة الا أنها من الأوضاع الحـديثة رادنا رئيس الآثار الى القلعة حيث دخل بنا اليها من باب كبير على جانبه من اليســار واليمين بابان صغيران فوصلنـا الى ساحة مسدّسة الشكل وفى جميع جوانبها آثار أعمدة يفيد ظاهرهـا وبعض شئ لايزال باقيا عليها أنها كانت مكسوّة (بالموزاييك) وعنـد كل من الجانبين الشرقى والغربى حُجَر صغيرة حوّلها العرب الى حصون ومنافذ ضـيقة لارسال السهام ومن تلك الساحة المسدّسة يدخل الى ساحة المذبح بعد اجتياز ثلاثة أبواب منها اثنـان متهدّمان أما الثالث وهو أصغرها فلم يزل قائمـا على حاله ويظهر أيضا أن هذه الساحة كانت محاطة بأعمدة مثل التى تقدّمتها وأنه لايزال يوجد فيها آثار بعض غرف على الجانبين الشمالى والجنوبى وقد تأملنا الجدران فى الساحتين فوجدناها آخذة من الزخرف والزينة بالصناعة الدقيقة مايفوق الوصف ثم ان فى تلك الجدران محاريب كانت معدّة لوضع الأصنام ولم يزل بعض

الحجرات الى اليوم مسقوفا وحافظا لشئ من جمال سقوفه ويظهر أن تلك الغرف كانت معدّة لايواء بعض زائرى المعبد وفى وسط الساحة تقريبا يوجد مذبح كبير لم يظهر الا نصفه وبعض الدرج التى كان الكهنة يقفون عليها عند تقديم القربان . أما النصف الثانى من ذلك المذبح فلا أثر له ، ويقال انه هدم لادخاله ضمن الكنيسة التى بناها بيتودوز ، ويوجد على المذبح حوض المعمودية الذى صنعه الامبراطور المذكور أيضا . وفى جنوب ذلك الحوض يوجد حوض آخر يظهر أنه كان للاستحمام . ولم يبق الا شئ قليل من آثار المعبد الكبير الذى كان مخصصا بجميع آلهة اليوبوليس ، وأهم هذه البقية ستة أعمدة هائلة . ويوجد فى الجنوب الشرقى من هذه الأعمدة معبد باكيس وهو يكاد يكون وحده الأثر المحفوظ وربما كان من أحسن الآثار القديمة فى جميع البلاد السورية ، وهو مستقل تمام الاستقلال عن المعبد الكبير وأقل منه ارتفاعا وليس له ساحة ويصعد اليه بسلم ذى ثلاث درجات وسقفه مصنوع بغاية الاتقان يمثل مسدّسات فيها بعض صور محى معظمها بمرور الزمان ، وفى الجهة الغربية توجد أعمدة لا تزال باقية حتى الآن ، ويوجد فى تلك الجهة نفسها بعض قطع هائلة من السقف ، ومن الجهة الشرقية يوصل السلم المذكور سابقا الى دهليز

على جانبيه أعمدة ومن ذلك الدهليز يصل السائر الى باب المعبد الداخلى وهو باب جميل الصنع جدّا وعلى جانبى الباب الـكبير بابان صغيران وبأعلاهمـا يمتدّ على طول الجدار افريز جميـل يظهر أنه كان مزدانا بنقوش بارزة .أما الهيكل الداخلى فقد رأيناه متهدّما الا أنه فى الجهة الشمالية كان أقل تهدّما منـه فى الجهة الجنوبية على أن النقوش التى كانت على هاتين الجهتين لاتختلف عنها فى بقية الجهات كما أن مارأيناه من تيجان الأعمدة فى كل جهات المعبـد كان أيضا لايمتاز عن تيجان الأعمدة فى الجهتين السابقتين ،ورأينا فى تلك الجـدران أيضا عدّة محاريب كانت لوضع الصور والتماثيل وقد وضع فى احداها لوحة من الرخام منقوش فيهـا كتابة بالتركية والالمـانية تذكارا لزيارة امبراطور المـانيا. ويوجد أمام واجهة هـذا المعبد مبان عربية حديثة العهد بعضها مبنى بأنقاض أخذت من نفس القلعة ويؤخذ من شكلهـا أنها كانت حصونا وكانت فى الأصل أقبية ويقال انهم كانوا جعلوها كذلك بقصد أن تكون مخازن وفى طريق العرب الموصـل الى تلك الحصون توجد عدّة غرف متقنة الصنع جميـلة النقوش ثم ان آثار المعبد الكبير كانت محاطة بسور هائل على بعد عشرة أمتار من المعبد وكان هذا الفضاء مملوأً بأحجار ضخمة كما يشاهد ذلك فى الجهة الشمالية

ويظهر أن هذه الأحجار الكبيرة كانت مهيئة لأن تستعمل فى مبان أخرى، ويوجد فى تلك الجهة حفرة يمكن لمن نزل اليها أن يرى الأحجار العظيمة التى كانوا وضعوها فى أساس البناء أما ذلك السور الخارجى فانه مبنى بحجارة خارقة للعادة اذ يبلغ سمك الحجر الواحد منها أكثر من أربعة أمتار، وفى الجهة الشرقية للقلعة يقوم المعبد الصغير المسمى معبد الزهرة وهو مستدير الشكل ويُصعد اليه بسلّم واقع فى الجهة الشمالية منه وهو معبد جميل فى داخله رقوش بديعة ونقوش مشابهة لنقوش المعابد القائمة فى القلعة وفيه أيضا محاريب لوضع التماثيل. وكان ظاهر هذا المعبد أجمل من باطنه فانه يحيى ذكرى الصناعة الرومانية فى العصور المتأخرة ثم هو خماسى الشكل وجوانبه مستديرة فى الداخل وتحيط به من الخارج أعمدة على رؤوس الزوايا وبأعلى الجدار افريز مزخرف بأكاليل الزهر، وقد استعمل هذا المعبد فيما سبق كنيسة رومية كما يدل على ذلك بقايا الصلبان التى لا تزال آثارها ظاهرة على الجدران

اهداء مدير الآثار

وبعد أن انتهينا من زيارة القلعة من الخارج والداخل شكرنا لمدير الآثار معروفه وخدمته الجليلة التى أداها لنا أثناء ما كنا نزور تلك القلعة

وقد توج جميله بأن أهدانا ونحن خارجون كتابا مطبوعا فى تاريخ بعلبك من تأليفه، وهو كتاب جليل حوى فى موضوعه أحسن المسائل التاريخية الحاضرة والاثرية لهذه المدينة العتيقة،فتقبلنا منه هديته بالشكر والثناء.

كلمة عن القلعة

يخرج السائح من قلعة بعلبك بعد أن يتطوّف على دوائرها ويتعرف بواطنها بعد ظواهرها ويتفقدها من أوّلها الى آخرها وانه لقد حار فى الأمر فكره وضاق بالعجب صدره، وبعد ان كانت المسألة عنده قاصرة على فخامة القواعد وضخامة المبانى تحوّلت الى بحث واسع فى موضوع علمى حافل بجليل المقاصد وجميل المعانى، وبعد أن كان ذلك الزائر يحصر نظره كله فى دائرة لا تزيد عن أطوال وأعراض ومهارة عمال وشطارة مهندسين، صار يجول فى محيط عظيم من أطوار وأغراض السريانيين والكلدانيين ومما كان أصاب الناس من ضروب المذلة والمهانة فى العصر الماضية عصر الاوثان والكهانة تلك التى كان للكهنة فيها تأثير فى سياسة الممالك مثل تأثير القياصرة والملوك أو هو فوق ذلك.وقد كان هذا التأثير نفسه هو الأصل الذى عليه ترتكن الحكومة عند ما كانت تعمد الى تشييد تلك المبانى الضخمة مثل

قلعة بعلبك وحلب فى الشام والأهرامات ومعبد الكرنك ومدينة هبو فى مصر، وغير ذلك من الحصون والمعابد والمقابر التى نراها فيفزعنا منظرها ويهولنا شأنها والتى لاتزال تتجلى فيها فكرة مؤسسيها وواضعيها • يمرّ بعض الناس بهذه الآثار المدهشة مرّ الكرام على اللغو من الكلام وغاية مافى الامر أنهم يعجبون من مناظر هذه الأشياء وظواهرها لأنهم لم يعرفوها فى عادتهم ولم يألفوها فى قدرتهم، مثل اتقان البنيان واحكامه الى حدّ أن سن الابرة لايمكن أن ينفذ بين مداميكه وسافاته ، أو قدرة البنائين والفعلة الى درجة أنهم يرفعون تلك الحجارة الثقيلة الهائلة الى مسافة عظيمة حين لم يكن لديهم آلات لجر الأثقال ورفعها وما أشبه ذلك ، ولكن الوقوف عند هذا الحدّ من مثل هذه الأعمال الخطيرة المفزعة قصر فى النظر ثم هو عن الضالة المنشودة والغاية المطلوبة بمراحل طويلة ، بل هو فى نظرى لايزيد عن حدّ الوقوف عند العاديات الا بمقدار مايسافر الفكر الى ارتياد العلل وطلب الأسباب . أما من عنى بالبحث والتدقيق واستنتاج الحقائق بالتحقيق فانه لايكتفى بتلك المناظر ولا يهمه الالتفات الى مجرد الظواهر، ولا يدع مثل قلعة بعلبك تفلت من يده حتى يدور نظره حولها مرارا ويعتصر فيها فكره اعتصارا فينتفع من أجزائها وجملتها وعمدتها وفضلتها بمعرفة

مالا يمكن أن يعرف الا من طريقها .ومن ثم نورد هنا كلمة فيلسوف بحاث فى حصن بعلبك وهيا كله لا بقصد أن نفيد أن هذا هو منتهى ماوصلت اليه الأفكار وآخر مااستقر عليه الرأى أو أن نشير الى القطع بشئ مخصوص فى موضوع لايزال الى اليوم مطـروحا على بسـاط البحث والنظر أمام المفكرين من علماء الآثار والأخبار وغيرهم ، وانما ذلك لأن هذه الكلمة الطيبة فى حدّ ذاتها خلاصة بحث واسع ونتيجة فكر سليم قال ذلك الفيلسوف انهذه الهيا كل القائمة فى معابد القدماء وحصونهم سواء الموجود منهـا فى صعيد مصر وفى بلاد الشام تشير الى ما كان عليه السريانيون والكلدانيون قبل الطوفان و بعده من غلوهم فى الوثنية وعبادة الأصنام وهى مع هـذا تشير أيضا الى قوة هؤلاء الناس وبأسهم فى غابر الزمان واستعصائهم على الأنبياء والرسل بعـد أن أرشدوهم الى الحق وأوضحوا لهم سبل السعادة. ومن هؤلاء الرسل الـكرام النبي الياس عليه السـلام كان قد طلب الى قومـه أن يتركوا عبادة الصنم بعـل وأن يعبدوا الله عز وجل فعصوه واستمروا عاكفين على عبادة الصنم المذكور. قال تعالى (أتدعون بعـلا وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الاوّلين). وخوف أن يصيروا سدّا بين نور الله والناس أغرقهم الله بالطوفان وأرسل عليهم العذاب

الأليم فى أزمان مختلفة . وتقادم عهـد الزمان وآثارهم العظيمة لاتزال باقية تنادى عليهم بالويل والثبور وانهم مع ماأوتوا من القوّة والبطش لم يعصموا أنفسهم من بأس الله اذ جاءهم فلئن كانوا أولى بأس وقوّة فالله أشـدّ بأسا وأشدّ تنكيلا ولمـا كانوا ظاهرين فى الأرض بالقوّة لاستحواذهم على ضعاف العقول وكان فى ذلك من ضرر النوع الأنسانى مافيه أشار الله فى كتابه الى ذم صنمهم القائم فى أرض الشام ابّان ظهور الدين الاسلامى فقال أتدعون بعلا الآية فالقرآن يشـير الى أن الوثنية كانت قائمة هناك وغير القرآن من الكتب يشير أيضـا الى ذلك اذا فالهيا كل وطيدة الأركان قائمة الدعائم ضخمة البنيان هنالك من أزمان متوغلة فى القدم ولا يناطح الزمان الا مثله فى القوة والبأس . ولقـد اكتشف الألمـان فى هـذا الزمان الآثار الموجودة فى بعلبك وأمكنهم أن يصلوا الى السرّ الذى عجز عنه الأوّلون ولو كان انكشف لهم فى سالف الزمان ما كانوا قضوا أجيالا كثيرة وأحقـابا طويلة وهم ملازمون للوثنية عاكفون على الأصـنام وما كانوا نازعوا رسل الله نزاعا شديدا ولا جحدوا رسالة ربهم وكفروا به وما كان تأخر العمران وانتشار الحضارة فى الأرض . لقـد علم الالمـانيون بالبحث الدقيق أن جوف الصنم بعـل أجوف وفيـه فتحتان فتحة من أمام

وفتحة من وراء وأن رئيس الـكهنة هناك كان يسيطر على الأمة كلها ملكها ومملوكها وكانت له الكلمة النافذة التى لا يستطاع ردّها ولا يمكن معارضتها، وذلك أنه كان اذا استشير فى أمر خطير يهم الملك والمملكة قال حتى نتقرب الى الصنم وندعوه ويأذن لنـا فى هذا فان لم يأذن فلا يكون هـذا الأمر، ثم يذهب بعد ذلك الى خادم خاص بالصنم منعزل عن الناس عاكف على الصنم واقف فى خدمته ويقول فى غد آتى الى هنا مع الملك وأشياعه ونقرب القربان الى الصنم وندعوه أن يبين لنـا مانحن بصدده أنمضى فى الأمر أم لا نمضى فيـه، فاذا نحن جئنا وخشعنا أمام الصنم ودعوناه فهنالك تكون قد وضعت البوق الطويل فى الفتحة التى من خلفه قائلا كذا وكذا. فـا يكون من ذلك الخادم الا أن يصدع بأمره ويقوم بما أوحى اليه رئيس الـكهنة ولا يقول الا ماأذن له فى قوله حين وقوفهم بين يدى الصنم واستشارتهم اياه، فلا يحصل أمر الملك والمملكة الا كما يسمعون من الصنم. وعلى هـذا النمط كانت أمور الكهنة مع الأمم فى سائر الأرض الوثنية. ومن هنـا تعلم أن الوثنية كانت جرثومة الفساد فى الأرض وأصل الظلم العظيم ولذلك حاربها الله تعالى محاربة شديدة حتى يرجع الناس الى الاعتماد على عقولهم التى ركبت فيهـم وعلى أنفسهم وحتى لايخدعهم خادع

ولا يصرفهـم عن مصالحهم التى بين أيديهم صارف فينتظم الكون
وينتشر العمران فى الوجود، ولقد بالغ محمد صلى الله عليه وسلم فى التنفير
من الكهانة والابتعاد عنها كثيرا وما حكمة ذلك الا أن تجرى الناس
على سنن الطبيعة وفاق الفطرة والمصلحة، تلك سنة الله فى خلقه، فهو
يردهم اليها ان انحرفوا عنها، ولن تجد لسنة الله تبديلا

الى المسـجد

ومن هـذه القلعة ذهبنا الى المسجد لتأدية فريضة الجمعة حيث كنا
على وشك الصلاة. وهناك رأينا فى انتظارنا عددا كبيرا من عظماء القوم
فى مدينة بعلبك يتقدمهم حضرات أصحاب الفضيلة والسعادة نقيب
السادة الأشراف، وقائم مقام بعلبك وعبد الحميد باشا الدروبى. وبعد
مافرغنا من أداء الصلاة قصدنا الى الفندق مباشرة فتناولنا هناك طعام
الغداء وجلسنا بعد ذلك ريثما أخذنا أهبتنا للسفر، ثم ذهبنا على عرباتنا
الى المحطة التى كانت مكتظة بالمودعين من حكام المدينة وعلية الناس
فيها، فسلمنا عليهم، وقد رأينا من عنايتهم وعناية الأهالى بتوديعنا ما كان
لا يقل عن ترحابهم وحفاوتهم بنا عند الاستقبال أما نحن فقد بارحنا
هذا البلد على غاية من السرور شاكرين لأهلها الكرماء ماقابلونا به أولا
وآخرا من اللطف والمعروف

السفر الى حمص

نزلنا من القطر وما هى الا لمحة عين وقد تحرك متجها مع سلامة الله الى حمص وكان طريق سيره بالقرب من نهر هناك يعرف بنهر العاصى وكان على جانبى الطريق بساتين أنيقة وزروع بهيجة تنعش الروح وتسرّ الخاطر وقد صادفنا أثناء سيرنا قرية تسمى الياعات

الياعات

قرية واقعة فى طريق حمص بين بعلبك وبلد تسمى برأس بعلبك وعدد سكانها يبلغ نحو ألف نفس وأهلها يستقون من بئر عذب جميل وقد اشتهرت هذه القرية بعمود أثرى مركب من ١٦ حجرا فوق قاعدة درجية مربعة على قمته تاج قورنشى وعلو هذا العمود من قاعدته الى تاجه يبلغ عشرين مترا وهو منفرد فى السهل وليس حوله شئ من الآثار، ويقال ان الذى بنى هذا العمود هو الملكة هيلانه أم قسطنطين الكبير اذ أنها كانت تشيّد فى كل مرحلة من طريقها الى القدس أثرا ليوقد على رأسه نار ترى على مكان الأثر الآخر افتخارا واعلانا بكشف الصليب، وما زلنا نواصل السير والطريق فى الوادى كان يضيق تدريجا بين الجبلين اللذين كادا يتعانقان لولا كان يمنعهما الحياء فمررنا على جملة بلاد صغيرة ويقال ان فى بعضها آثارا تاريخية حتى

وصلنا الى رأس بعلبك وهى على مسيرة نحو ٧٢ كيلو مترا من مدينة بعلبك هـذه البلدة ترتفع عن منسوب البحر بنحو ٨١٠ متر ومعظم سكانها من طائفة الروم الكاثوليك وعندئذ كانت المنطقة سهلا مستويا فكانت تنكشف منها للمسافرين بحيرة حمص على مسافة طويلة فما برحنا نتابع السير حتى اذا قربنا من تلك البحيرة مررنا بكفر يسمى بالقاعة وعند تلك الجهة كانت الأرض فى أكثر المواضع غير مزروعة وذلك لأنها فقدت خصوبتها بسبب مجاورتها للبحر، وقد يوجد فى بعض الجهات زروع الا أنها من الأعشاب والحشائش الطبيعية . وبعد ذلك وصلنا الى بلد يسمى بالقصير ثم ان بحيرة حمص هذه كبيرة متسعة حتى انها لم تفارق أنظارنا فى طول هذا السفر الا بعد مسيرة ساعتين تقريبا، وقد شاهدنا على مسافة بعيدة جبل عكار الذى سنتكلم عليه فى موضع آخر من تلك الرحلة ان شاء الله ، وما فتئنا نتابع السير ونقطع الفيافى والبلاد حتى وصلنا الى محطة الكتينة ثم بارحناها فما لبثنا بعدها الا مسافة صغيرة حتى وصلنا مع سلامة الله ورعايته الى محطة حمص، وهى على بعد ١١٠ من الكيلو مترات من مدينة بعلبك .

ملحق بقلعة بعلبك

صرنا والحمد لله عند مدينة حمص بلد صاحبنا الكريم عبد الحميد

باشا الدروبى فسرّنا أن حقق الله رغبتنا فى زيارته وأعاننا على اجابة دعوته، وقد تركنا وراءنا مدينة بعلبك العتيقة وقلعتها الغريبة التى حوت من الآثار مايدهش الألباب ويحير الأفكار، والتى مارأينا فى بلاد الدنيا أضخم من حجارتها وعمدها ولا أبدع من نقوشها وصورها ولا أحكم من وضعها وبنائها .

بناء يخاف الدهر منه وكل ما ۞ على الأرض يخشى دائماسطوة الدهر

لقد كنا اذ دخلناها واذ خرجنا منها فى حيرة الضب وأشد، لاندرى كيف وصلت أفكار بنى آدم الى تشييد مثل هذا البناء واحكام سافاته على سعة مساحته وبعد مسافاته وكيف أمكن لهم أن يقتلعوا تلك الأحجار الضخمة والأعمدة الفخمة ويجروها من مقالعها الى مواضع البناء وربما وجد منها ماتبلغ مساحته ٣٠٠ متر مكعب أو ٤٠٠ متر كحجر الحبلى الهائل الذى لايزال الى اليوم قائما بجانب الجبل كأنه يدل السائح على مقلعه ويرشده الى موضعه ولسان حاله يقول

ياأيها الحيران فى أمر الألى ۞ قد أدهشوك بأعجب الآثار
فى بعلبك رأيت أبهر قلعة ۞ تتلو عليك غرائب الأخبار
لم تفهم الأفكار قصد بنائها ۞ فتشتتت ياحيرة الأفكار
أنظر الىّ وأنت تعلم أنه ۞ عند الجنوب مقالع الأحجار

نعم ، ا كدنا نفرغ من زيارتها حتى كنّا قد اقتنعنا بمهارة القدماء واقتدارهم فى فنون العمارات والصناعات خصوصا فى الرسم والتصوير فقد رأينا لهم نقوشا حفرية فى الأحجار الصلبة والصخور الصلدة من صور متنوّعة وأشكال متعدّدة كان فى ضمنها من صور الأشجار والأغصان المورقة البديعة مايمثل فى تعاريجه بأدق صنعة وجه الأسد، ورأينا كذلك رسومات من أكاليل الزهر والحيوانات أبدع ماخطته يد أبرع المصوّرين وأحسن ماجرى به قلم أصنع الرسامين، الى غير ذلك مما لايزال واضحا ثابتا يكاد ينطق بما كان لهم من البراعة الفائقة فى تلك الفنون الجميلة .

نبذة من أخلاق المتقدّمين وعوائدهم

قد كنّا أطلنا التأمل فى هيا كل القلعة وتماثيلها فلم ندعها حتى تلقينا عنها درسا طويلا فى أخلاق الحكام السابقين وعقائدهم وشئ من تقاليدهم وعوائدهم، فعرفنا لهم من الخرافات الكثيرة والآراء الفاسدة ماليس يتفق بحال من الأحوال هو وما كان يقتضيه علمهم الواسع واقتدارهم الكبير، حيث كانوا يقطعون من الجبال حجارة ويصوّرونها بأيديهم هيا كل وتماثيل ثم يقيمونها و يعيدونها و يتقربون اليها ببذل أنفس مالديهم من الأموال والأرواح، ثم انهم كانوا يسمون كل هيكل

باسم مخصوص، وفى الغالب يكون هذا الاسم بما يرتبط بنفس ماله الهيكل من الموجودات على حسب زعمهم الغريب، فهم يسمون سيرس مثلا بآلهة الزرع لأنهم يعتقدون أن لها تأثيرا فيه كما أنهم يسمون الزهرة بآلهة العشق و باكيس باله الخمر وهلم جرا، ولعل ذلك لأنهم كانوا لم يفكروا فيما وراء المادة ولم يوقفوا الى البحث فيما يهديهم الى العقائد السليمة والافكار القويمة بل قصروا أنظارهم على ما كانت تتناوله حواسهم من الماديات والطبيعيات، فظلوا من أجل ذلك عاكفين على عبادة الأصنام التى شيدوها وأقاموا عليها المعابد وتغالوا فى بنائها وزخرفها الى حدّ يُدهش العقول،

ان الهياكل وهى رأى فاسد ❁ فيها دلائل قدرة العمال
تلق عليك دروس تاريخ الألى ❁ شادوا القلاع بأضخم الأثقال
تعطيك منها للعقول وللهوى ❁ مثلا يسير لآخر الأجيال
قالوا التناقض يستحيل وجوده ❁ وبها رأيت تناقض الأمثال

ظلم الحكومات فى الزمن القديم

خرجنا من القلعة ووقفنا نتزوّد منها النظرة الأخيرة وعندئذ ما كان أشدّ حركتها فى سكونها وأعظم فصاحتها فى سكوتها اذ كان يخيل الينا أن أصواتا خافتة كأنها لاتزال خائفة تتصاعد من خلال الأبنية

الفخيمة ومن تحت قواعد الأعمدة الجسيمة والهياكل العظيمة قائلة:
أنظروا الى مابقى من هذه المبانى العالية ثم الى تلك الأطلال البالية؟
تعلموا كيف كان مقدار قسوة الحكام وظلمهم فى العصور الخالية ،

حملنا فوق أظهرنا جبالا ❁ وشيدنا بها حصناحصينا
يقوم مدى الزمان أدل شئ ❁ على ظلم الملوك السابقينا
ويشهد أننا عشنا عبيدا ❁ وقاسينا العذاب به سنينا

نعم؛ وهل كان يرتاب أحد فى أن هؤلاء العمال كانوا يساقون الى جر الأثقال من الجبال كما تساق الثيران والبغال، ولا بد أنهم فقدوا الصبر وعيت بهم الحيل بعد أن استنصروا فلم يجدوا ناصرا واستصرخوا فلم يجدوا مغيثا، أرأيت لو أن أصحاب الأمر جعلوا بدل ماان يقيموا من الحجارة مثل هذا البناء الهائل أن يقيموه من أجسام العشائر والقبائل التى ذهبت فى سبيل الأغراض ضحية الأتربة والأنقاض. أليس كانوا يسدون منها الفضاء ويبلغون بها الى عنان السماء. أرأيت أن نطقت هذه التماثيل النائمة والصور القائمة أليس كانت تخبر عن عدد الأرواح التى أزهقت فى نحتها وقطعها وحملها ووضعها ولا ذنب يستوجب عقابها ولا جناية تستدعى عذابها سوى أنها خلق كريم من الانسان كان من حقه أن يشتغل بعقله ويستخدم

مواهبه فيما خلقت لأجله،ولكن ما كان أسوأ حظ هؤلاء المساكين في ذلك الوجود المظـــلم اذ عاشوا ماقدر لهم أن يعيشـوا مسخرين لأرادة غيرهم عاملين غير فاعلين الا على مقتضى أمرهم ونهيهم .

هل كان يرضيك ياجوبترماصنعوا ❁ بالنـاس فى غابر الأزمان والأمم
أم كان يحسن يافينوس مانظرت ❁ عيناك من ظلمنا فى خدمة الصنم
الهـــة العشق ماذقنا النعيم وما ❁ كنا لندرك غير الذل والألم
عشنا لنحمل أحجارا وأعمـــدة ❁ طول الحيـاة ومتنا موتة الغـنم

هذه هى الأصوات التى كان يتخيلها الانسان تنبعث من ذلك المعبد القديم أو كان يسمعها من لسان حاله وما كان أبلغه فى نطقه وأصدقه فى مقاله

لسان المرء يكذب فى كثير ❁ وأصدق مايدل عليه فعله
فينطق ساكنا نطقـا صحيحا ❁ ويظهر منـه باطنه وعقله

مدينـــة حمص

حمص مدينـة يقال انها قديمة جدًا وان الذى بناها رجل يقال له حمص بن المهرب بن جان بن مكنف وقيل حمص بن مكنف العمليقى وقيـل بناها اليونانيون .وفيها آثار كثيرة ومشاهد ومزارات ومساجد شهيرة منها مشهد على بن أبى طالب كرم الله وجهه ودار الفاتح الكبير

خالد بن الوليد . ويقال ان أهل حمص كانوا أشد الناس على علىّ بصفين وأكثرهم جدا فى حربه، ثم صاروا بعد ذلك من غلاة الشيعة أما المدينة فقائمة على مستوى من الأرض وهى حصينة مقصودة من سائر الجهات جميلة الهواء والتربة ، كثيرة المياه والأشجار وأهلها من ذلك فى خصب ورغد من العيش ، ويقال انها فى قديم الزمان كانت أكبر البلاد وأحسنها وكانت بيد ملوك الروم الى أن ملكها كسرى فى أيام عطيانوش فى جملة ماملك من البلاد الرومية ولما انهزم الروم بعد وقعة اليرموك كان هرقل بحمص ففارقها وجعلها بينه وبين المسلمين وأمّر عليها أميرا ولما حصر المسلمون دمشق كان بها عسكر من أهل حمص أتوا نجدة . ولما فتحت دمشق سار أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد قاصدين حمص بجيوش كافية وذلك سنة ١٥ للهجرة فنازلوها وجعلوا يقاتلونها صباحا ومساء، وكان البرد قد آذى المسلمين وطال الحصار فصبروا وكتب هرقل الى أهل الجزيرة أن يأتوا مددا الى حمص فاعترضهم المسلمون وفرقوهم فلم يأتوها فلما انصرم الشتاء كان قد ضاق الحال بأهل حمص فخرجوا يطلبون الصلح فصالحهم أبو عبيدة على صلح دمشق ثم استخلف عليها عبادة بن الصامت ورحل الى حماة وقد حصل فيها بعد الفتح جملة حوادث مهمة لا يتسع المقام لتفصيلها

أما سكانهـا فيبلغون نحو ٨ آلاف نسمة منهـم ألفان من الروم الأرتدكس وألف من اللاتين والباقى من طوائف مختلفة

نزلنا فى محطة حمص وكان يستقبلنا على إفريزها عدد كبير من رجال الحكومة وأعيان المدينـة ووجهائها المحترمين، وفى مقدمتهم صاحب السعادة قائم مقام حمص وكان سعادة عبد الحميد باشا الدروبى يعرّفنا بالذوات والعظماء ويقدّمهم الينا واحدا واحدا وكنت أقابل الجميـع بجزيل الشكر والأمتنان . ثم ركبنا وركب معنا سعادة القائم مقام عربة الباشا الخاصة التى كانت قد حضر بها مع جملة عربات أنجال سعادته وقصدنا توا الى منزله، وكان الطريق من المحطة حتى بيت سعادة الباشا مزدحما بالناس الذين كانوا يستقبلوننا والبشر يتلألأ على وجوههـم حتى لقد كنت أخال أنى ضيف كل واحد منهم على حدته وما كنت لأستغرب أن يخرج الى المحطة وطرقات البلد سكان المدينة عن بكرة أبيهم فألاقى من حفاوتهم واحتفالهم بنا مالم يتفق أن نلاقيه فى جميع بلاد الشام ، وأنا أعرف أن سعادة عبد الحميد باشا الدروبى قد اشترى من جميع هؤلاء الناس أفئدتهم وملك نفوسهم بمـا يسديه اليهم من معروفه وماله، فهو فى تلك المدينة بمثابة والد شفيق لكافة الناس .

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى ❁ وكونك اياه عليـك يسـير

أما البيت فكان واقعا من البلد فى أجمل منطقة وأحسن بقعة تحيط به الحقول اليانعة والبساتين الواسعة من جميع جهاته وليس منظره من الداخل بأقل حسنا وبهجة منه فى الخارج •

زيارات

وقد جاء الينا فى ذلك البيت جميع الذين كانوا قد استقبلونا عند موقف القطار وغيرهم فاستقبلناهم بما يليق بهم من الحفاوة والاحترام وجلسنا معهم مجلسا طويلا نتحدث سويا وكان من بينهم بعض مشايخ وبكوات من عشائر الدنادشة المعروفين فى تلك البقاع بالمهارة فى ركوب الخيل والمشهورين باقتناء جيادها أيضا وقد كنت أعرف ذلك عنهم قبل مخالطتهم فى هذا البلد ومن ثم قلت لهم فى غضون حديثى انى أرجو ان شاء الله ان أرى مايسرنى من كرائم خيلكم ومهرة فرسانكم • فقالوا ان شاء الله سنتشرف بمقابلة دولتكم عند ماتمرون فى طريق سفركم السعيد من حمص الى طرابلس واذ ذاك ترون من الخيل والخيالة مالعله يوافق رغبتكم الشريفة •

قلعة حمص

وبعد ذلك ذهبنا الى زيارة قلعة حمص وكنا نحسب أنها من الأهمية بالمكان الذى يستدعى قصد السياح اليها ولكنا وجدناها خربة قد

دمرتها يد الخطوب والحوادث وحطمها كرّ الغداة ومرّ العشىّ حتى لم يبق من معالمها الأثرية الا باب أو بابان لا أذكر ذلك تماما ويقال ان جدّنا المرحوم ابراهيم باشا هدم من ذلك الحصن جزأ كبيرا عند ماحارب الشام وخرج عليه أهل حمص وعصوا أوامره وكنا نرى ونحن فوقها من أبنية المدينة خصوصا جوامعها وكنائسها وما يحيط بها ويتخللها من الأشجار والأنهار مثل تلك المناظر الجميلة التى كنا نطل عليها تحت الجبال والحصون العالية فى كثير من بلاد الشام ٠

كلمة عامة عن المدينة

نزلنا من القلعة قاصدين الى زيارة ما كان يهمنا زيارته فى هذا البلد فقصدنا أوّلا الى زيارة جامع خالد بن الوليد رضى الله عنه فمررنا من سوق كبير مسقوف بالخشب كأسواق دمشق وبعض الأسواق فى بلاد الشرق، ولاحظنا أثناء مرورنا أن أغلب الباعة فى حوانيت هذا السوق كانوا من الحمصيين أما المشترون فانهم يختلفون بين هؤلاء وبين أعراب البادية والشراكسة المهاجرين الذين يسكنون ضواحى حمص وما يجاورها من البلاد كما لاحظنا من الأزقة والطرق وشكل البيوت فى كل الجهات التى مررنا عليها أن مدينة حمص كسائر بلاد الشام على معنى أنها لا تزال الى اليوم حافظة لكيانها الشرقى وشكلها الأصلى

جامع خالد بن الوليد

وبعدئذ ذهبنا من خارج البلد لنزور جامع خالد بن الوليد ذلك الذى له الفضل الأكبر فى فتوح الشام وعند ماأوشكنا أن نصل اليه وقد كان على أقرب المسافات من المدينة قال لنا سعادة عبد الحميد باشا الدروبى اقتضابا أما وقد لحتم دولتكم هذا المسجد العجيب الاتقان البديع البنيان فانكم لابدّ تذكرون فى نفسكم مايشبهه ويجانسه فى مصر. (وقد كنت خالى الذهن اذ ذاك من كل شئ الا فيما كنت رأيته من المدينة وما حولها) فقلت لسعادته انه لم يدر فى خلدى شئ فأحدّث نفسى بمثله فى مصر أللهم الا مارأيته فى طريقنا وذلك المسجد فقال سعادته ألم يكن شكل هـذا الجامع ليلفت خاطر دولتكم الى المسجد الكبير الذى أسسه فى قلعة مصر جدّكم الأكبر ساكن الجنان محمد على باشا فقلت له بلى لكأنى به وهو جامع القلعة بعينه وحقيقة كان هذا المسجد العظيم لايختلف عن جامع القلعة شيئا فى رسمه ومنظره سواء فى ذلك شكله من الظاهر والباطن ،وقال سعادة الباشا اننا استصدرنا أمر جلالة مولانا السلطان باصلاح هـذا المسجد وتعميره ورأينـا حينئذ أن نشيده على طراز مسجد القلعة وقد أعاننا الله تعالى على ماوفقنا اليه من تشييده واتقانه حتى صار كما ترون ثم دخلناه واطلعنا

على ما كان فيه، وقد سررنا كثيرا من زخرفه وزينته، واتجهنا بعد ذلك الى زيارة ذلك البطل الكبير والفاتح الشهير خالد بن الوليد فى ضريحه وقرأنا على روحه الطاهرة ماتيسر لنا من القرآن الكريم .

الى بيت الباشا

ومن هناك ذهبنا قاصدين الى دار سعادة المتصرف لنردّ له زيارته وكان طريقنا اليه من داخل المدينة وبعد أداء الزيارة عدنا الى بيت سعادة صاحبنا عبد الحميد باشا وقد أعدنا اليه النظر فأعجبنا جدّا شكله وموضعه الذى حاز مع جمـال المنظر كمال الأبهة حتى اذا رآه الواحد على بعد لم يشك أنه بيت مجد وامارة. ومذ دخلناه رأينا فيه اشارة برقية أرسلها الينا صاحب العطوفة فخرى باشا والى حلب فاستلمناها وقرأنا فيها سؤال عطوفته عن وقت قيامنا من حمص وعن اليوم الذى نصل فيه الى حلب. فأرسلنا الى عطوفته اشارة من لدنا أخبرناه فيها بمـا كنا صممنا عليه من العدول عن زيارة هذه المدينة معتذرين اليه بضيق الوقت مظهرين كبير أسـفنا من عدم سنوح الفرصـة برؤية حلب الشهباء. وانه لقد كان فى نفسى من أول الأمر أن أزور مدينة حلب وأن أقيم فيها يومين عند ماكنت متردّدا بينها وبين حماه ولكنى على الرغم من ذلك جاريت الظروف وقتئذ ونسخت ماكنت رسمته

فى خطتى الأولى من مشارفة هذا البلد مستعيضا منه مدينة حماه وعند ماجاء وقت الظهر وكان قد حضر حضرة القائم مقام دعينا الى المائدة فتناولنا عليها طعام الغداء الشهىّ وما لبثنا بعد ذلك الا قليلا ثم قدّمت الينا اشارة برقية أخرى من لدن عطوفة نخرى باشا يذكر فيها أن جميع أعيان حلب ووجهائها قد كلفوا عطوفته أن يرجونا بالنيابة عنهم أن نجيب طلبهم الى زيارة بلدهم؛ الى أن قال: وان لهم وطيد الأمل وكبير الرجاء فى أن لايحرموا من تلك الزيارة الجليلة، وانهم منتظرون بفروغ الصبر اجابة تسرهم والا فانهم مستعدّون جميعا للحضور بأنفسهم الى مدينة حمص لكيما ينالوا رغبتهم ويحصلوا على غرضهم واذ ذاك لم يسعنى حيال هذا الكرم الكبير سوى أن أعدّل خطتى مرة ثانية وأستردّ عزيمتى على زيارة مدينتهم فأرسلنا الى عطوفة الباشا الوالى رسالة برقية نشعره فيها بما صار اليه عزمنا من قبول ملتمسه بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن حضرات من كلفوه ذلك مع ابداء مزيد الشكر والامتنان لمعروفه ومعروف أبناء حكومته المخلصين »

مدرسة الاسرائيليين

ثم توجهنا الى زيارة المدرسة الاسرائيلية لمناسبة أن مؤسسيها كانوا قد طلبوا الينا زيارتها، وقد وجدنا فى استقبالنا عددا كبيرا من تجار

الحمصيين فى مدينة طنطا وعند مادخلنا المدرسة أخذ جميع الحاضرين يهتفون لنا بالدعوات تارة وبالتحية والترحيب تارة أخرى ،وبعد أن جلسنا فى قاعة الاستقبال بين المحتشدين قام بعضهم يذكر بين أيدينا قصائد ومقالات بليغة كانت كل عباراتها تدور حول الترحيب بنا والثناء علينا .وانا نقتطف منها مانراه يناسب رحلتنا مبتدئين بالمقالة التى قدمها الينا مطبوعة حضرة الكاتب البليغ الدكتور كامل لوقا قال حضرته ؛

يادولة الأمير العظيم؛ أتشرف الآن بالوقوف أمام دولتكم بالنيابة عن مفوّض المسيحيين الحمصيين نزلاء الديار المصرية الذين طالما تمتعوا بالراحة والعدالة والحقوق التجارية تحت كنف العائلة الشريفة المحمدية العلوية . أتشرف بالنيابة عن أولئك العثمانيين لأحيي أميرا عثمانيا مصريا فأحييكم مرحبا بسلامة قدومكم الميمون من ديار عربية عثمانية مصرية الى ديار عربية عثمانية سورية . أحييكم وأقدّم لكم عواطف الامتنان والشكر بلسان أولئك الذين يستثمرون أموالهم وأتعابهم فى تلك الديار السعيدة منذ خمسين عاما وهم فى بحبوحة من السعة ورغد العيش . نعم أحييكم وأحيي بكم مصر وساكنيها بلسان بضعة آلاف من الأهالى الحمصيين الذين ينتفعون ويشتغلون ويقدّمون منسوجاتهم الوطنية الى قطركم المصرى، أجل؛ اقرارا بالفضل ومعرفة بالجميل نحيي باسمكم

الكريم أيها البرنس الفخيم ونحنى الهام أمام تلك الروح الطاهرة الشريفة التى أحيت العـدل والمعارف فى القطر المصرى السعيد روح أحد أبطال الشرق العظام جدّ العائلة الخديوية الشريفة المرحوم محمد على باشا الكبير فأهلا وسهلا بأمـير أحيالنا ذلك الاسم المحبوب فنحييكم باسم أولئك النزلاء الحمصيين فى كافة القطر المصرى عموما وفى طنطا خصوصا كأمير زائر شريف يقصـد النزهة فى بلاد ترحب بزيارته أمير متنور فاضـل عرف أن البلاد السورية شقيقة البـلاد المصرية فأحب الى زيارتها على الرحب والسعة فأهلا بالفضل ومرحبا بالنبل واكرم بهـذا الضيف العظيم وبمضيفه الكريم من يفتخر به الوطن مولاى سعادة الهمام عبد الحميد باشا الدروبى وفى الختام تنازلوا يادولة الأمير لقبول عواطفنا القلبية وسرورنا بتشريفهم مجاهرين بقولنا ليعش جلالة مولانا السلطان محمد رشاد وليعش سمو الخديوى عباس المعظم وليحى دولة البرنس محمـد على باشا والسلام . ومما كان ذكر فى هـذه الحفلة أيضا بعض أبيات قدّمها لنا مطبوعة لفيف من الحمصيين المسيحيين الذين يتجرون فى القطر المصرى وهى :

لاغرو إن شمت حمصا تزدهى طربا ❁ وفى مرابعهـا تزداد أنـــوار
فانها بلغت من دهرها أربا ❁ غنت لبهجته فى الروض أطيار

قدزارها اليوم مفضال من الأمرا ❁ تشرفت وانثنت تيها بملقاه
وزينت بشقيق بات مزدهرا ❁ وزنبق فاح طيبا عرف رياه
شرفتنا ياسليل المجد عن كثب ❁ شرفتنا فعلى الترحيب والسعة
فاقبل تشكرنا ياأيها العربى ❁ يارب كل ندى سام ومكرمة
أهلا وسهلا بمولى زار بلدتنا ❁ بموكب قادم من بقعة النيل
أولت زيارته أفرادنا منا ❁ فلنبدين له شكرا كأكاليل
تجار حمص بطنطا حاصلون على ❁ عطف الحكومة مع أقصى عنايتها
ومع بنى مصر عاشوا اخوة فالى ❁ مصر تحيتنا الجلى بغايتها
من حمص فى مصركم بيت وعائلة ❁ حلت بجملتها والأنس موجود
إنا على ثقة إنا على ثقة ❁ بما انطويتم عليه أيها الصيد
لذا أتيناك يامولى الكرامة يا ❁ ركن الفخامة نتلوا آى شكران
بلغ عواطفنا لازلت مرتقيا ❁ حكومة قد حبتنا كل احسان
هذى العواطف بالاخلاص نبديها ❁ بشخص عليا كم الأسمى الى مصر
لازلت بين البرايا تنثنى ❁ باليمن والرغد والأسعاد والبشر

وبعد ما فرغوا من ذكر أشعارهم ومقالاتهم أخذنا نتحدث فى موضوع التجارة المحلية وسألتهم فيماذا يتجر أهل حمص وأى الأشياء أكثر شهرة فى متاجرهم؟ فذكروا لى أن تجارة الحمصيين قائمة فى الغالب

على مالايمكن الاستغناء عنه من محاصيلهم ومصنوعاتهم التى أشهرها وأهمها المنسوجات الحريرية والقصبية ثم ان حمص هى البلدة الوحيدة التى اشتهرت فى جميع بلاد سورية بحل الحرير وإحسان صنعته ونسيجه . ثم قمنا من ذلك المجلس الحافل مودّعين من كل المحتفلين الكرام بغاية الاكرام والاحترام وبعد أن شكرنا لهم هذا الأدب والمعروف عدنا الى بيت سعادة الباشا الدروبى وما برحناهناك نستقبل ونودّع حضرات الزائرين الذين كانوا يفدون علينا فى هذا البيت الكبير زمرا وأفواجا حتى احتجبت الغزالة فى خدرها وقد كان جىء الينا فى تلك الأثناء بحصانين قريعين فلم نجدهما على وفق رغبتنا من كل الوجوه على أنهما لم يكونا من الجياد الكريمة الاصل ولا من هذه الخيل المطهمة

السفر من حمص

وفى صبيحة اليوم الثانى كنا تأهبنا للسفر الى حلب فتوجهنا من منزل سعادة عبد الحميد باشا الى المحطة فى ركاب حافل من مظاهر القوم وأعيان المدينة الذين رافقونا حتى ودّعناهم ونزلنا فى القطار وكان لايزال معنا سعادة الباشا الدروبى ذلك الرجل الأريحى الذى جمع بين حزم الشيوخ وعزم الشباب وعرف كيف يستخلص له قلوب

الناس ويحل من صدورهم محل الوالد البار نعم انّا لاننسى لهذا الشهم الواسع الخلق الرقيق العواطف مارأيناه من فرط كرمه ومزيد عنايته بنا فى كل حركة وسكون .سار القطار على بركة الله متجها الى حلب وما انفك يواصل بنا السير والارض على يميننا ويسارنا الى مسافات واسعة كانت كلها خصبة جيدة مفروشة ببساط من المزارع الخضراء حيث كان الزمن ربيعاً وكنت أعجب كثيرا بما أشاهده على تلك الزروع من ألوان الزهر المختلفة بين الحمراء والبيضاء والزرقاء التى تشبه مجموعتها البديعة باقة الزهور المرصعة .وجل هذه المزارع النضرة والأعشاب الجميلة انما نبتت فى تلك الأرض بواسطة الأمطار وعندئذ لم أستغرب ولم أندهش مما كنت سمعته من أن قبائل العرب والرعاة يقصدون الى هذه الجهات قبل فصل الصيف بخيلهم ومواشيهم لرعى تلك الحشائش . وما أحسنها من مرعى وأجملها من ربيع خصوصا وان المياه فى تلك البقعة غاية فى الكفاية والصفاء .حتى بلغ الى محطة حماه وهى على مسافة ٥٥ كيلو مترا من حمص وقد قطعها القطار فى نحو ساعة و٤٥ دقيقه .

حماه

هذه البلدة واقعة فى حدود ولاية سورية وكانت أوّلا تابعة لأيالة

الشام أما الآن فقد انفصلت عنها وجعلت متصرفية مستقلة. وهى مدينة قديمة التاريخ ويظن كثير من الناس أن بانيها هو حمت بن كنعان فاذا صح ذلك فيكون قد مضى عليها الآن أكثر من ٤ آلاف سنة ويقال ان حماه كانت فى وقت خروج الاسرائيليين من مصر مملكة مستقلة تتاخم أرض الميعاد التى احتلها الاسرائيليون وكانت المملكة التى تسمى باسمها تمتد من منبع العاصى حتى مصبه مع كل السهل الشرقى منه وكان يتاخمها من الجنوب مدينة دمشق ومن الغرب بلاد فينيقية. ومما يدل على أن هذه البلدة قديمة جاهلية ماجاء فى شعر امرئ القيس من بعض قصائده حيث قال:

تقطع أسباب اللبانة والهوى ۞ عشية رحنا من حماة وشيزرا

ثم انها أوسع من مدينة حمص مساحة وأكبر منها عمارة وسكانها يبلغون نحو ٩ آلاف نفس، ويقال ان المسلمين من هؤلاء السكان متمسكون بدينهم تمسكا شديدا بلغ بهم الى درجة التعصب، ثم انهم غاية فى الشهامة والشجاعة، ويقال ان الملك المؤيد عند مافتح بلاد الشام جعل هذه المدينة قاعدة ملكه وتسمى بسلطان حماه وينسب اليها بعض العلماء والملوك وأشهرهم المؤرخ أبو الفداء الحموى أحد ملوكها من الأيوبيين والجغرافى الكبير ياقوت صاحب المعجم وتقى الدين

ابن حجة الشاعر المعروف، ومن أشهر بيوتها التى يفتخر بها أهل حماة ويذكرونها بالفضل والسيادة بيت الشيخ عبد القادر الكيلانى شيخ الطريقة الكيلانية المعروفة. أما صناعتها فمنحصرة فى اصطناع الأشياء العمومية التى لا يستغنى عنها من المنسوجات الحريرية والقطنية والأحذية وما أشبه ذلك، ومن محاصيلها الحنطة والشعير والذرة وغيرها من الحبوب والفواكه التى يصدر كثير منها الى طرابلس ويرسل أيضا كثير من سمنها وجبنها الى أسواق الشام وزحلة وغيرها وتجارتها دائرة على تلك المصنوعات وهذه المحاصيل ه

فتح حماه

وقد فتحت حماه سنة ١٧ هجرية على أيدى المسلمين وكان بطلها ذلك الفاتح العظيم أبا عبيدة بن الجراح فانه رضى الله عنه قصدها بعد فتح حمص فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم على الجزية والخراج، وقد توالت عليها بعد ذلك جملة حوادث عظيمة ففى سنة ٢٩٠ قصدها القرامطة وقتلوا أهلها ولم يبقوا على النساء والأولاد. وفى سنة ٣٥٢ خربت حماة بالزلازل التى أصابت الديار الشامية. ويروى أن معلما خرج من المكتب فلما حدثت الزلزلة سقط المكتب على الصبيان فهلكوا عن آخرهم، ولم يأت أحد يسأل عن ولده مما كان دليلا على

أن جميع آبائهم هلكوا فى تلك الحادثة أيضا. وفى سنة ٥٦٥ تخربت بالزلازل أيضا وملكها السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٠ مظهرا طاعة الملك الصالح بن نور الدين زنكى، وفى سنة ٥٧٣ حصرها الأفرنج وكان فيها خال صلاح الدين مريضا وكانت بينهم و بين أهلها مقتلة عظيمة وأقاموا على قتالها أربعة أيام ثم استظهر عليهم المسلمون فرحلوا عنها ثم كانت بعد صلاح الدين لفرع من عائلته منهم ملكها المشهور أبو الفداء الحموى، وعند ما كنا وصلنا الى محطة حماه وجدناها غاصة بعظماء الناس وأكابرهم وكان بعضهم من حكومة حماه ومن رؤساء البيوت الكبيرة فيها مثل زعيم أسرة الكيلانى الشهيرة ورئيس أسرة الأزهرى التى هى من أفخم الأسر فى تلك المدينة. وقد عرفنا من حديثهم أن لهم قرابة فى مديرية المنيا بالقطر المصرى وكان البعض الآخر من مدينة حلب وهؤلاء منهم اثنان مندوبان من قبل عطوفة الوالى وهما صاحبا السعادة مرعى باشا ناظر أوقاف حلب والميرالاى (قومندان الجندرمة) واثنان آخران مندوبان من جهة أعيان المدينة ووجهائها وقد جاؤا جميعا الى محطة حماه ليستقبلونا على أطراف ولايتهم يحملون الينا سلام دولة الوالى وتحية عظماء البلاد وليكونوا أيضا فى خدمتنا وتحت اشارتنا من هذا البلد حتى نصل الى بلدهم. وانه

لاغرابة أن ألاقى مثل هـذه العناية الفائقـة والأريحية العظيمة من عطوفة الوالى ورجال حكومته وأهالى ولايته بعدأن رأيت شبيهها أو أكثر فى حمص وفى كثير من البلاد الشامية اذا كان هؤلاء الناس الكرام المخلصون يقدرون ضيوفهم حق قدرهم ويبالغون فى اكرامهم واحسان وفادتهم ويبلغون بهم من الكرامة اذا ماهم حقيقون به وأهله ولقد شكرت هذا الوفد ومن كان واقفا معهم من أهل حماه من لسانى بمـا كنت أسـتطيع أن أعبر به عما اسـتقر فى نفسى من معروفهم الكبير ولطفهم الكثير، وبعد ذلك ودّعنا الحمويين حيث كان قد تحرك القطار ونزل معنا فيـه ذلك الوفد الجليـل فمررنا ببلدة تعرف بمعرة نعمان نسبة فيما يقال الى نعمان بن بشير وهى من القرى التى اشتهرت بالحروب الصليبية ويوجد فيها خربة مهدّمة يقال انهـا كانت قلعة نعمان وسألت أصحابنـا عن عدد سـكانها الآن فقالوا انهـم يبلغون ٧ آلاف نفس ، وشاهدنا حول هذه القرية مروجا وأحراشا واسـعة يقـال ان أكثر غرسها من شجر التين والفستق ، ومررنا بعـدئذ ببلدة تسمى السرمين وهى مشهورة بالينـابيع والعيون الكثيرة التى تتفجر من خلال الصخور ، ويقال ان فى هذه القرية عددا كبيرا من المغارات والكهوف حيث كان الناس فى سابق الزمان يسكنونها ويأوون اليهـا

والى بطون الجبال . أما أرضها فكان منها الخصب المزروع ومنها القحل
الأجرد بسبب تغلب الملوحة فى تربته، أما تلك الاراضى المملحة
فكانت ترى للمسافر على مسافة بعيدة من البلد، ثم مررنا ببلد يدعى
بخان تومان، ويزعمون أن هذا الاسم مأخوذ من اسم أحد السلاطين،
وعند هذه القرية يشاهد المسافر مآذن حلب من بعيد، ثم ما برحنا
سائرين ننتقل من بلد الى آخر والمزارع من جمالها الطبيعى على ماوصفنا
حتى مررنا بنهر يسمى قويق وهو من الأنهار المشهورة فى تلك الجهات
أما المسافة من تلك النقطة الى مدينة حلب فكانت تقرب من نصف
الساعة بسير القطار وقد كنا فى غضونها نطل من نافذة العربة فنشاهد
أمامنا على بعد هيكل مدينة حلب جسيما ضخما تعلوه مآذنها الشاهقة
التى هى أول مايظهر للناظرين، وما كدنا نقرب من المحطة حتى وجدناها
تموج بالمنتظرين من وجهاء المدينة وحكامها موجا . وهنا لا أستطيع
أن أعبر عن وصف الابتهاج وشرح السرور الذى كان يخامر نفسى
من العناية الكبيرة والحفاوة التامة التى كنت أراها بين لحظة وأخرى
من سعادة مرعى باشا ناظر الأوقاف وبقية الوفد الحلبى حيث كانوا
فى أثناء هذا السفر لا يألون جهدا فى تعهد راحتنا وانبساطنا واعمال
ما كان يمكنهم من الوسائط لادخال الفرح على أنفسنا وقد كانوا يرشدوننا

فى الطريق الى كل شئ مهم سواء من جهة الزراعة والصناعة أو من جهة تاريخ البلاد التى كنا نمر بها وأحوال السكان وعوائدهم فى بلادهم وآثار القدماء فى تلك البقاع ذلك فضلا عن أنهم كانوا يراسلون بواسطة السلك البرقى جميع المحطات التى كان يرسو عليها القطار فى طول السكة ويهتمون جدا بخروج الناس لاستقبالنا على المواقف عند مرور القطار حتى وصلنا بسلامة الله الى محطة حلب .

فى محطة حلب

وقف القطار فكان الصالون الخاص بنا محاذيا تمام المحاذاة لموقف صاحب العطوفة فخرى باشا الوالى، وما أوشكت أن أنزل من باب العربة حتى أسرع عطوفته الى مقابلتنا وتهنئتنا بسلامة الوصول الى بلدهم، وبعد ذلك أخذ يقدّم الينا حضرات المستقبلين واحدا واحدا وكان فى أوّلهم صاحبا السعادة توفيق باشا قومندان عسكر الأردى السابع فى ولاية حلب وأسعد باشا جابرى ثم حضرات العلماء فالرؤساء الروحيين، ولما أن انتهينا من مصافحتهم والسلام عليهم ذهبنا الى قاعة الاستراحة فى المحطة وجلسنا فيها برهة مع حضرات المحتفلين الكرام وعند ذلك قام فى وسط هذا الاجتماع العظيم شيخ جليل وألقى على مسامع الحاضرين خطبة لطيفة كان موضوعها منحصرا فى تهنئتنا بالسلامة

واظهار سرور أهل البلاد بقدومنا اليهم. فسررت منه ومن خطبته وشكرته وشكرت أيضا جميع الموجودين ثم ذهبنا الى خارج المحطة حيث كانت العربات مجهزة لنا فركبنا وركب معنا عطوفة الوالى عربته الخاصة وتبعتنا حاشيتنا فى عربة أخرى فسرنا أوّلا من طريق كان قد اصطف على حافتيه عدد كبير من العساكر الذين كانوا يختلفون بين بيادة وسوارى وطوبجية وكانت الموسيقى العسكرية تحيينا بنغماتها الشجية . ثم سرنا فى الطريق الموصل الى الفندق بين زحام عظيم على جانبيه من سكان المدينة الذين كنا نشاهد البشر العظيم يتألق سناه على وجوههم البسامة لا فرق فى ذلك بين شبابهم وشيبهم ولا بين غنيهم وفقيرهم كما أننا كنا نرى من لطف عطوفة الوالى وكماله ماليس فى وسعى أن أقدّره فى عبارتى فيدرك أوأصفه فيفهم بأ كثر مما يعرفه الانسان من أحب الناس اليه وأشفقهم عليه . وقد صرح لى فى خطابه أثناء السير بما كان ينطوى عليه فؤاده من محبتنا وما كان ينويه و يودّه من نزولنا ضيوفا عليه مدّة اقامتنا فى المدينة لولا أن بيته صغير وقد نزل فيه بالصدفة صاحب الدولة ناظم باشا بدعوة سابقة من لدن عطوفته فسررت جدّا من تصريحه بجميل نيته وحسن قصده بنا وقد اتسعت من صدرى مكانته وعظمت فى قلبي محبته عند ما كان يكرر أسفه

الشديد من ضيق البيت حتى لقد عدّ ذلك من الصدف التى عاكسته فى أحب شئ اليه وحالت بينه وبين ما كان يرجوه ويودّه من صميم قلبه ثم ما زال عطوفته معنا حتى دخلنا الفندق وتعـرفنا منه بهداية صاحبه ما كان خصص لاجلنا من الحجرات وهناك جلسنا مستأنسين بحديث عطوفة الوالى ولطفه ريثما شربنا القهوة ثم جاء الينا سـعادة توفيق باشا القومنـدان وعدد كبير من عظماء المدينة فرحبنا بمقدمهم وأهلنا بهم جميعا وذكرت لهم بعبارات متكررة حسن عنايتهم واهتمامهم بنا وكنت أشكرهم لذلك شكرا جزيلا وقد كنت فى غضون حديثى معهم ألاحظ من حركاتهم ولهجاتهم نشاطا عظيما وأدبا تاما وتماسا زائدا الى غير ذلك مما استوجب فرط محبتى لهم خصوصا بعد ما أظهروا لنا مودّتهم الكاملة واخلاصهم المتناهى وحقيقة كنت أقرأ فى وجوههم آيات الأخلاص والصدق وكانت نفسى لا تحدّثنى بغير ذلك فيهم

والعين تعلم من عينى محدثها ۞ ان كان من حزبها أو من أعاديها

ولم نلبث بعد أن خرجوا من عندنا وخرج عطوفة الوالى أيضا الا برهة صغيرة ثم وصـل الينا أن دولة ناظم باشا قد حضر الى الفندق بقصد زيارتنـا فاهتممت جدّا بزيارة هذا الرجل الكبير المحبوب وعنـد ما استشعرت بقدوم دولته ذهبت مسرعا لاستقباله على سلم الفندق

وكانت هذه أوّل مرة تقابلت فيها مع دولته فسلمت عليه وذهبت به الى ردهة الاستقبال حيث جلسنا نتحدّث آونة فى بعض الشؤون العامة ومرة فى بعض الاحوال الخاصة حتى انتهى بنا الحديث الى ذكر القلاقل والصعوبات الكثيرة التى توجد الآن فى جهة العراق من جراء الحوادث الاخيرة . ذلك كان لمناسبة أن دولة الباشا سيسافر من حلب الى مركز وظيفته فى تلك الجهات حيث ان دولته والى بغداد والموصل وديار بكر، وقد ذكر لى فى خلال حديثه أنه يعرف الجناب العالى الخديوى وأنه يحب كثيرا نجل عمنا دولة الامير عزيز باشا حسن المستخدم فى الجيش العثمانى وقد كنت كلما تغلغلنا فى الكلام وتبادلنا أطراف الحديث فى المسائل المهمة أجد فى ذلك الرجل العظيم نباهة زائدة وذكاء حادّا وعلما غزيرا، أماهو فكان شيخا ابيض اللحية والرأس وعسكريا بكل معانى الكلمة، وكانت تبدو على وجهه مع السماحة والبشاشة سيماء القوة والشجاعة، وعند ما أراد الانصراف قمنا فودعناه بما يليق بمقامه الجليل من الحفاوة والتبجيل شاكرين له خفته الى زيارتنا فى الفندق على أثر حضورنا

ردّ زيارة

ولم نمكث بعد ذلك الا حيث تهيأنا للخروج وأعددنا له عدّته ثم

قصدنا الى منزل عطوفة نخرى باشا الوالى لنرد لدولته ودولة ناظم باشا
ضيفه الكريم زيارتهما وقد لبثنا لديهما مدة غير قصيرة دار حديثنا
فى أثنائها على موضوعات شتى ومباحث كثيرة كنت أجدنى فى خلالها
غاية فى الارتياح والسرور لأنى كنت أرانى جالسا بين رجلين فاضلين
عاقلين من أكبر الناس أدبا وحلما وأوسعهم معرفة بأحوال الأمم
والشعوب،وقد كان عطوفة والى حلب يتدفق علما ويتوقد فطنة
وذكاء واذا تحدث فى موضوع علمى أو سياسى أو أخلاقى اتسعت
له فيه المادة فيصوغ ما شاء الله من معلوماته الصحيحة ومعارفه الكثيرة
عبارات رقيقة رشيقة، ثم هو يجيد التركية والعربية والفرنساوية غاية
الأجادة ويتكلم بها كلها كأنها لغته الأصلية التى فطر عليها،وقد فهمت
من خلال كلامه وحركاته أنه تربى تربية عسكرية وأنه كان أركان
حرب فى الجيش الماضى غير أنه كان مرتديا لباساملكيا ملائما لوظيفته
الحاضرة . ثم كنت سمعت أنه تقلب على جملة وظائف عالية حيث كان
فى ولاية الاناضول وبلاد العرب والشام وبغداد وبصرى، وان رجلا
تعاقبت عليه كل هذه الولايات وكان عمله فى كل واحدة منها ينادى
بفضله ويشهد لاستعداده وكفاءته وأنه من الذكاء والعلم بالدرجة
التى لانعرفها الا لبعض أفراد يعدون على الاصابع لهو حقيق أن

يوضع فى العيون وتعقد عليه القلوب، كما أن الحكومة التى تريد أن تكون فى صف أعظم الحكومات وتكبر من دولتها وصولتها هى أحوج ما يكون الى استخدام مثل هذه الأفكار الواسعة المتصرفة لتنتفع بها فى أجل شؤونها وأخطر أعمالها، والشيئ الغريب الذى لايزال غامضا غير مفهوم الى الآن هو أننا نرى الحكومة العثمانية الحاضرة تختار لأعلى مناصبها وأسمى مراكزها صغار الموظفين وضعافهم على حين أنه لايزال يوجد والحمدلله رجال عثمانيون أذهبوا أعمارهم الطويلة فى خدمة الدولة مع غاية الصدق والاخلاص وما برحوا يعملون فى مصالحهم على رقى الدولة ورفعة شأنها، ويسعون سعيا متواصلا وراء سعادتها وإكبار أمرها فكان من حق هؤلاء العمال المخلصين المتفانين فى حب الدولة أن يشغلوا تلك المراكز السامية والوظائف الكبيرة، وأغرب من ذلك دعوى بعض الناس اليوم أنه لايوجد بين كبار الرجال فى الحكومة من تتوفر فيه الكفاءة والاستعداد لادارة الأعمال السياسية الخطيرة . وهذا ما جعلنى أتجاسر أمام دولة ناظم باشا والى بغداد وأقول له بكل صراحة على مسمع من سعادة القومندان توفيق باشا وغيره إنى أستغرب كثيرا أن الحكومة الحالية تعين فى أرقى مصالحها الداخلية بعض المستخدمين فى المصالح الصغيرة كما تعلم دولتكم وربما

كان أمثال هؤلاء الذين ترفعهم الحكومة وتمر بهم فوق رؤوس الكبراء لم يكونوا من العلم والفضل بالمكان الذى ينبغى لصاحبه أن يتصـل بأرباب العمـل وأصحاب الرأى، ثم تترك فى زوايا الاهمـال فطاحل العلماء وأفاضل الرجال مثل عطوفة فخرى باشا ذلك الرجل العظيم الذى كلنا يعلم بمقدار نبله وفضله وتثبته فى الأمور . نعم إنى مستغرب جدا كيف تنساه الحكومة وتهمله وتؤخره من تقديم هو أولى وأحق به من أولئك الذين قدمتهم وكبرتهم ممن لا يحسن بمثلنا التصريح بأسمائهم أو عنوانات وظائفهم هذا وقبـل أن أبرح مجلسهم التفت مرة ثانية الى دولة ناظم باشا وصافحتـه ودعوت الله له أن يعينه ويساعده على مأموريته المهمة وأن يؤيده ويوفقه لخدمة البلاد والأمة بمـا يقطع عنه ألسنة مبغضيه وحساده وبما يكون منه البرهان الساطع على نقيض مايقال الآن عن بعض المتفيهقين فى كبار الرجال وشيوخهم المعمرين ومن هنالك قفلنا عائدين الى الفندق وقد كنت أشعرت بعض الجماعة من أهل المدينة بشدّة ميلى الى مشاهدة مايصنع فى ذلك البـلد من قبيـل المنسوجات الحريرية والقطنية والأصواف والجلود كما طلبت اليهم أن يعرضوا علىّ كرائم خيلهم عسى أن أظفر هـذه المرة بطلبى وأستعيض من جياد حلب الكريمة مافاتنى فى المدن الأخرى، ولما أن

سكنت معالم الطبيعة ولبس الجو جلبابه الحالك قصدنا الى غرفة الأكل حيث تناولنا ورفاقنا طعام العشاء وكان معنا سعادة المفضال الأكرم عبد الحميد باشا الدروبى .

فى الفندق

وفى صبيحة اليوم الثانى جاءنا فى الفندق صاحبا العطوفة والسعادة فخرى باشا الوالى وجابرى باشا فاستقبلناهما بما يليق بمقامهما الكريم وبعد أن تبادلنا أطراف الحديث فى غير مسألة طلب الينا سعادة جابرى باشا أن نتناول طعام الغداء فى منزله فأجبناه الى ماطلبه شاكرين له مروءته وكرمه، ودعانا كذلك عطوفة الوالى لتناول طعام العشاء ملتمسا اجابته الى دعوته فى محفل الاتحاد والترقى وحينئذ قلت لعطوفته انى لاأستطيع أن أشرح سرورى بوجودى فى مجلسكم ويسرنى جدا أن أستشفى بطعامكم الهنىء وشرابكم المرىء غير أنى لاأجدنى مرتاحا ولا منشرحا اذا ضمنى وحزبا من أحزاب السياسة مجلس أو مقام وقد عشت حياتى لاأرغب فى الجمعيات ولا أميل الى الدخول فى المحافل والمنتديات ذلك لأنى أرى أن الاجتماعات كثيرا ماتضطر الانسان وتقهره الى ماليس فى حسبانه، فيتحدث بما عساه أن يقلق الخواطر ويشوش الأذهان . نعم، وأكره من صميم قلبى أن أتقيد بأمر

من الأمور كائنا ما كان خصوصا الامر الذى سبق رأيى فيه وعرف النـاس عنه من لسانى مرة بعد أخرى مالا أظنه يخفى على عطوفتكم أيضـا وان أقرب عهدنا به مجلس البارحة الذى تحدثنا فيـه طويلا مع دولة ناظم باشا وعطوفتكم وبعض رجال الحكومة والأعيان ولست أخشى من شئ ما أخشى من أن يقـال فلان كان بالأمس يقول كيت وكيت وهو فى الصباح يفعل كذا وكذا وهو ما اذا دخل فى الرأى أفسده وفى الكلام أسقطـه وعدّ به صاحبـه مخادعا خَتَّالا وربمـا ذهب فى ذلك بعض الناس مذهبا لايتفق وما أردته فى شئ وما لى ولهذا كله وانى والحمـد لله لاأبالى أن أعلن رأيى وأشهره بكل صراحة وثبات مادمت أعتقد أنه حق سديد (وانه ليجمل بالرجل ذى الرأى يعتقد صحتـه وسداده أن يثبت عليـه مهما تقلبت أمامه الأمور وتحولت الأحوال . وليس من الحكمة أن يخالف الانسان ضميره ليوافق الناس ولا أن يغضب نفسه ابتغاء مرضاتهم،كما أنه ليس من المروءة والشهامة أن يحدث الواحد قلبه بمـا يكره أن يدور على لسانه فى مجلسه وكلامـه.) فأرجوك اذًا أن تعفينى من الذهاب الى هـذا النادى وإنى أشكرك على هذا الأعفاء ريثما أشكرك أيضا على معروفك السابق واللاحق وحسن قصـدك الذى عرفته لك . قلت لدولته

ذلك وهو ما زال يلح فى الدعوة ويلح فى الطلب بما لم يسعنى معه أخيرا الا تلبية طلبه واجابة دعوته ولكن ذلك كان بعد أن أفهمنى عطوفته أن هذه المأدبة من عنده نفسه وليس لأحد سواه شأن فيها وأنه انما اختار محل الجمعية لأنه لم يعثر على محل غيره يسع المدعوين وهم يبلغون نحو ٥٠ نفسا، وقد ارتحت كثيرا لهذا الجواب ووددت لو كنت فهمته من قبل، وعلى ذلك انتهت محاورتنا وخرج من عندنا عطوفة الباشا الوالى مع رفيقه شاكرين لنا مالقياه من الحفاوة والأحترام خصوصا بعد مااستوثق منا عطوفته باجابته الى ملتمسه *

(مسجد سيدنا زكريا)

أما نحن فمانشبنا بعد انصراف عطوفة الوالى وصاحبه الا بضع دقائق ريثما تهيأنا للخروج ثم ركبنا من باب الفندق عربة ومعنا صاحبنا الهمام سعادة عبد الحميد باشا الدروبى وركب عقبنا عربة أخرى عزيزنا الفاضل احمد بك العريس ومعه الياور خيرى افندى فقصدنا توا الى جامع سيدنا زكريا نبى الله عليه السلام وهو مسجد جميل الشكل متقن الصناعة والبنيان تعتمد سقوفه المتينة على أقبية وعمد فى طول المسجد وعرضه ويقال ان موضع هذا المسجد كان فى الاصل كنيسة من عهد الأمبراطورة هيلانه من قياصرة الرومان ويسمى

الجـامع الأموى لأنه من آثار بنى أمية و يدّعى أهل هـذه الجهات أنه كان شبيها بالجامع الأموىّ فى دمشق وقد أحرقته طائفة الأسماعيلية سنة ١١٦٩ ميلاديه ثم أعاد بناءه المرحوم السلطان نور الدين الشهيد ثم هـدمه المغول تحت رياسة هولاكو ويمتـاز هذا المسجد بمأذنته الشاهقة التى يبلغ ارتفاعهـا نحو ٥٤ مترا ولم نشاهد مأذنة فى مساجد المسـلمين التى رأيناها بلغت من العـلو هـذا المبلغ الا تلك المـأذنة العجيبة وهى قائمة فى الزاوية الشمالية الغربية من جهة الصحن الكبير الذى تحيط به الأعمدة من الثلاث جهات، ويقال ان هـذه المـأذنة بنيت فى سنة ١٢٩٠ ميلادية أما المسجد الذى تقـام فيه الصلاة فانه واقع فى الجهـة الجنوبيـة من الصحن المذكور وفيه حجاز من الخشب (درابزين) يقســمه الى قسمين لكنهما غير متساويين، وقد خصص القسم الأصغر منهما بالصلوات الخمس وجعل القسم الأكبر خاصا بصـلاة الجمعـة، وفيـه يوجد قبر النبى زكرياء والد النبى يحيي الذى قدمنا أنه مدفون بجامع بنى أميـة فى دمشـق ويسـمى يوحنا المعمدان وهذا القبر لم يكن هو القبر الوحيد المجمع عليه من أهل المدن والطوائف فان مدينة سامرّا وبعض مدن أخرى من الشام تزعم أن فيها قبره عليه السـلام، وقد رأيناه محاطا بمقصـورة مذهبة بديعة

الشكل دخلنا المسجد أولا وصلينافيه تحيته ركعتين ثم ذهبنا الى ذلك المقام الشريف وقرأنا فى داخله ماتيسر لنا من كتاب الله بنية حصول البركة واصلاح الحال وهناك سألنا الله تعالى أن يتقبل منا هذه الزيارة التى نشكره جل شانه على هدايتنا لها وتوفيقنا اليها وخرجنا بعد ذلك عامدين الى زيارة القلعة الحلبية وكان طريق سيرنا اليها من داخل البلد ولا بدّ لنا من ذكركلمة عن هذه القلعة تتضمن نبذةمن تاريخها ووصفها على حالتها الحاضرة بقدر الامكان .

قلعة حلب

هذه القلعة واقعة فى وسط المدينة على تلّ مرتفع مرصوف بالحجارة وهو من ذلك يظهر أنه صناعى ويقول مؤرخو العرب إنه كان على هذا التلّ مدينة قديمة من مدن الشام قائمة على ثمانية آلاف عمود وهى بالطبع مدينة حلب، ويقال ان الذى بنى هذه القلعة هو سلوقس الذى اختط حلب وبناها فهى على هذا عتيقة متوغلة فى القدم وبعض المؤرخين يزعم أن كسرى زاد فى تحصينها ومنعتها ولست أدرى من هو كسرى هذا من ملوك فارس ولعله كان غير كسرى الثانى لأن ذلك هو الذى أحرقت مدينة حلب بأمره سنة ٦١١ بعد المسيح ومن أبعد مايتصوّر أن يعمر القلعة ويزيد

فى تحصينها من يخرب المدينة و يأمر باحراقها ثم انها محاطة من جميع جهاتها بخندق عميق يمكن غمره بالمــاء . ويقــال انه بلغ من العمق بحيث يستغرق المسافر الى قراره مسافة تقرب من نصف الساعة ويوجد على هــذا الخندق قنطرة جميلة مصنوعة من الخشب توصل الى القلعة وليس الدخول فيها مباحا مطلقا بل هو محظور عادة الا لمن حصل على اذن الحربيــة التى لاتزال صاحبة السلطة والسيطرة عليها الى اليوم على الرغم من أن هــذه القلعة صارت خربة مهدّمة ولهــذه المناسبة وجدنا اثنين من ضباط الجيش فى انتظارنا هناك وقد وصلنا من هــذا المعبر الخشــبى الى برج خارجى دخلناه من باب حديد مزخرف بأبدع حلية وأجمل نقش وقد أخذمنى الأعجاب بمنظر ذلك الباب مأخذا بلغ منه أنى صممت على تقليد شىء من شكله فى بيتى الذى أسكنه فى منيل الروضة ثم دخلنا فى بهو يلاحظ المــارّ به أن فى أعلى الباب الحديد من الجهة اليمنى من الداخل نقوشا على الجدار ومرسومات حفرية بديعة من شجر الريحان وكتابات ينتهى تاريخها الى سـنة ٦٠٥ هجرية الموافقة سـنة ١٢٠٩ ميلادية على عهد الملك الظاهر: ويلاحظ أيضا على يمين ويسار الباب الثانى رسومات حفرية أخرى تمثــل رؤس الفهود تمثيلا متقنا. ومن ذلك البــاب خرجنا الى

صحن متسع مغطى بكومات من الأتربة والأنقاض وفيه آثار جملة
طرق وقد دار فى نفسى وقت ما كنت ماشيا فى ذلك الصحن أنه لابد
أن يوجد تحت الحجارة والردوم شىء عظيم من الآثار التاريخية العجيبة،
وبعدئذ ذهبت منى التفاتة الى باب مخفى بعضه تحت أطباق التراب،
فسألت عنه بعض الملمين بذلك الأثر العتيق، فقال لى ان من ذلك
الباب يدخل الانسان الى مسجد صغير كان يصلى فيه بعض العسكر
المتمرضين، فمالت نفسى للاطلاع عليه شأن السائح الذى يريد أن
يستطلع طلع كل شىء غريب يقع تحت نظره فدخلت هذا المسجد
ورأيت فيه محرابا وكان فى دوائره وزرة من خشب عليها نقوش
مانظرت عينى الى اليوم أجمل منها، ولقد رأيت من الرسوم الناتئة
والحفرية والنقوش العربية مالست أحصيه عددا خصوصا ماشاهدته
من ذلك فيما يوجد عادة فى أوائل الكتب الاثرية ومع ذلك لم أذكر
فى مرة من المرات أنى اطلعت على أعجب وأتقن من تلك النقوش
المحكمة والرقوش الدقيقة وهذا مااقتضانى اذ ذاك أن أتأسف كثيرا من
اهمال ذلك المسجد الجليل وتركه بدون أقل مراقبة ولا بدّ أن شيئا
عظيما من صناعاته البديعة وزخارفه المدهشة قد ضاع ومحى أثره لأن
فى وجود مثل الآثار التى شاهدناها على الجُدْران وغيرها مايستدل منه

على أن المسجد كان قبل أن تفتك به عاديات الزمان حافلا بالمصنوعات العربية التى من هذا القبيل ولسنا نعرف لعفاء هذه الأشياء النفيسة سببا سوى عدم العناية فى مبدإ الأمر بحفظ آثار المتقدمين وأعمالهم التاريخية النبيلة وبعد ذلك مررنا بالآبار وقال مرشدونا فى ذلك المكان انها عميقة الى قرار بعيد ولا يبعد أنها تكون فى عمق الخندق ثم إن فى صحن القلعة الذى اسلفنا ذكره عددا كبيرا من الأقبية وفى وسطه قبة نخمة قائمة على أربعة أعمدة من البناء ، ويستدل من شكلها على انها كانت فى أول عهدها فوق بئر محفورة فى نفس الصخر وهناك رأينا منارة جميلة الشكل بهيجة المنظر وفى الجهة الشمالية الغربية يوجد مدفعان قديمان صنعت فوهتهما من الحديد الممزوج بالرصاص وبعد ما اطلعنا على أهم ماتشتمل عليه تلك القلعة من الداخل والخارج صعدنا الى أعلى نقطة فيها وأشرفنا منها على المدينة وضواحيها فرأينا بين الأشجار والمزارع وما يتخللها من العيون والأنهار منظرا ساحرا فتّاّنا لاندرى وقد أخذتنا من حسنه روعة أهو أبهج أم ذلك المنظر الذى كنا شاهدناه على دمشق من فوق الصالحية ،

بيت جابرى باشا

ثم برحنا القلعة متجهين نحو بيت صاحب السعادة جابرى باشا

اجابة لدعوته حيث كان سيرنا اليه من داخل البلد الذى تطوّفنا فيـه على جملة جهات بقصد أن نطلع على مالم يسبق لنا الاطلاع عليه حتى وصلنا الى المنزل ، وهنالك رأينا فى انتظارنا على بابه سعادة الباشا فى لفيف من أقاربه فاستقبلونا بأكبر حفاوة واحترام ودخلوا بنا الى البهو فاستقبلنا فيه أيضا جم غفير من حضرات المدعوين يتقدّمهم الى ذلك عطوفة الوالى وما جلسنا الا نحو خمس دقائق ثم دعينا جميعا الى غرفة المائدة فتناولنا عليها جملة ألوان من ألذ الطعام وأشهاه ، وكان أحسن ماتذوّقناه منها ثلاث صحاف من طعام البلد الخاص بها والمشهور بين أهلها ، وبعد ماانتهينا من الأكل والشرب عدنا الى مجالسنا فى ردهة الاستقبال وكان عدد المدعوين معنا يبلغ نحو ١٨ نفسا من أشراف الناس فى المدينة وقد قدّم لكل واحد منهم نارجيلة يدخن فيها كما هو المعروف فى عوائد هــذه البلاد واذ ذاك كان المنظر فى ذاته غريبا وأغرب منـه ما كنا نسمعه من قرقرة النارجيل التى لم نجد لوصفها أبلغ وأظرف من قول الشــاعر :

ولابسة من الياقوت تاجا ۞ تقهقه كلمـا قبلت فاهـا

ويظهر لى أن هذه القعقعة فى مسمع أرباب الكيوف ألذ من رنات المثانى ودقات الدفوف . وكان فى الحفلة جوقة موسيقى وترية جميلة

تطرب الجالسين بألحانها الشجية وفيها اثنان يغنيان من أشهر المغنيين في مدينة حلب .وبينما نحن في تلك الحفـلة جاءنا جماعة من مشاهير التجار ومعهم بضائع وأصناف شتى من المنسوجات الحريرية والقصبية وما أشبه ذلك ممـا يصنع في نفس البلد وبعـد أن اطلعت عليهـا وأعجبني حسن نسيجها ودقة صنعتها اشتريت منها بعض الشئ الذي يلزم لي ، وعلى أثر ذلك أخبرت بحضور حصانين من أشهر خيل العرب في تلك الجهات فنهضت لرؤيتهما وكانا حقيقة جوادين كريمين أعجبني حسنهما حتى رغبت فيهما رغبـة تامة وهممت بشرائهما لولا أنه ظهر لي أخيرا بالبحث الدقيق أن فيهما من العيوب الخفيـة مالا يرجى زواله بسهولة وبعد ذلك رأينا جواد صاحب الدولة ناظم باشا وهو أدهم جميـل المنظر يشبه كل الشبه حصاني الأسود الذي كنت أُهْدِيتُه من قبل السلطان عبد الحميد ،

الى النزل

ثم خرجنا من عند سعادة الباشا وأصحابه ونحن لا نقدّر ما كان داخلنا من الجذل والسرور بما استقبلنا به أوّلا وودّعنا به آخرا من الترحيب العظيم والحفاوة التامة ،وقصدنا الى الضواحي المباشرة للمدينـة .فقضينا ردحا من الزمن في التروّض بين المزارع والبساتين ثم عدنا من هنـاك

الى النزل لنستعد للدعوة الثانية عند عطوفة الوالى ثم مالبثنا الا حيث أخذنا أهبتنا ثم ركبنا عرباتنا ووصلنا الى نادى الاتحاد فوجدناه آخذا من الزخرف والزينة ما لابد أن العمال تعبوا فيه تعبا كبيرا .

في نادى الاتحاد والترقى

وكان عطوفة الوالى وجماعة من رجاله المخلصين ينتظروننا على مدخل النادى فاستقبلونا بما أنطق ألسنتنا بشكرهم أجمعين . وبعد أن دخلنا غرفة الاستقبال الواسعة وجلسنا برهة ريثما تناولنا القهوة قام حضرة الخور فسقفوس جرجس سلحت نائب مطرو بوليت السريان وأنشد قصيدة فى المدح والتهنئة بالقدوم ثم دعينا لتناول الطعام على مائدة كان يحيط بها نحو خمسين نفسا من المدعوين وكلهم من علية القوم وكرام الناس فى حلب فأكلنا وشربنا ألوانا وأصنافا شهية لذيذة بينما كانت الموسيقى تشنف الآذان بألحانها المطربة حتى اذا انتهى الأكل وجلسنا فى مجالسنا قام عطوفة الوالى فى ذلك المحفل الحافل وألقى على مسامع الحاضرين خطبة رشيدة العبارة جميلة الاسلوب شرح فى أولها سروره وسرور قومه بزيارتنا لبلدهم . وأطال فى آخرها بالدعاء لجلالة سلطان المسلمين وسمو الجناب العالى الخديوى، وقام على أثره حضرة بشير أفندى رئيس البلدية وخطب خطبة كانت

تطوف معانيها حول الترحيب بنا والشكر لنا، ثم تلاه الشيخ محمد بدر الدين افندى النعسانى أحد علماء حلب وألقى خطبة أيضا, وهكذا كان يقوم مصاقع الخطباء وفطاحل الكتاب والشعراء بعضهم تلو بعض حتى كان يخيل الينا أننا محتشدون فى مجتمع علمى أو ناد أدبى وكلهم كانوا يضربون على نغمة واحدة, وهنا نذكر مما قالوه قصيدتين احداهما لحضرة الخور فسقفوس المذكور والأخرى لحضرة جورجى افندى خياط

قصيدة الخور

غدت من بنات الماء جارية تسرى ❁ على عجل والقلب منها على جمر

تضاهى فؤادى فى تأجج شوقه ❁ الى رؤية المصر الذى عز من مصر

أريد به مصر التى فى ابتدا الدهر ❁ بدت بهجة الدنيا بيوسفها البر

به فاقت الأمصار قدما وحسنها ❁ كسا آلها الأمجاد أردية الفخر

على الفلك العلوى جرّت ذيولها ❁ وأزرى سناها اليوم بالأنجم الزهر

بعباسها الغطريف يوسف عصره ❁ من البشر منه مخجل طلعة البدر

اذا قام فى دست الإمارة حاكما ❁ يشير اليه القوم بالأنمل العشر

فلا عجب وهو العظيم فعاله ❁ اذا كان فيها صاحب النهى والأمر

فمن خيمه تلفيه فى روضة بكر ❁ ومن نفسه القعساء فى عسكر مجر

ومن كفه قد ينبط الماء فى الصخر ۞ ومن رفده النيل المنيف على البحر
يضارع قيسا فى أصالة رأيه ۞ ومعنا بجود زانه الحلم فى الصدر
فاصبحت فى إطرائه بلبل القطر ۞ وان لم أكن قبل المجلى فى الشعر
كشوقى ومطران وصبرى وحافظ ۞ وصدقى ومعروف ذوى الطرف الغر
وحامل بند الشعر فى وقتنا الى الـ ۞ ـفتوحات بستانينا الذائع الذكر
أيا قادما شهباءنا جئت موطنا ۞ بزورتك افترت ضواحيه عن بشر
وفيك رأينا اليوم شخص محمد ۞ على عزيز المشرق الطيب النشر
أمولاى ان الشعر يسكر كالخمر ۞ ويغنى عن الدر المنضد فى النحر
فهذى مبانيه حكت قطع التبر ۞ وهذى معانيه حكت أخذ السحر
ولكنها عن مدح ذاتك قصرت ۞ الا استجلها عذراء تفصح عن عذر
ودم يا أخا العباس مرتفع القدر ۞ على صرحك العالى يرى علم النصر
ولا برحت جدواك تنهل كالقطر ۞ فتزجى اليك الشكر فى النظم والنثر

قصيدة جورجى افندى خياط

أيا من زار هذا القطر أهلا ۞ وسهلا فيك يا أسمى سرىّ
تفاخر فيك مصر كل قطر ۞ أجل يا نجل توفيق الأبىّ
وعباس الحليم عزيز مصر ۞ أخوك دعوته بالاريحىّ
فتى حكم البلاد بعدل كسرى ۞ وأحكم قبل ضرب المشرفىّ

لقد طابت مغارسكم قديما ❁ فانت الفرع من أصل زكىّ
وأنت محمد للمجد تهدى ❁ لذا سماك آلك بالعلىّ
فسبحان الذى سوّاك يامن ❁ يذكر بالجمال اليوسفىّ
وان شئنا نقول اليوم شمنا ❁ تباشير الكمال الآصفىّ
ألا آهنأ ياأخا العباس واصعد ❁ ذرى العلياء ياأولى ولىّ

وهنا لاأستطيع أن أصف كيف كان تحرجى فى هذا الموقف الضيق اذ كنت منه بين عاملين عظيمين يتنازعانى ايجابا وسلبا فبينما أرى أنه من حق القوم علي أن أحييهم وأشكر لهم مجاملتهم ومروءتهم فى خطبة مثل خطبهم قياما بالواجب المفروض على الانسان للانسان من جهة دينه وأدبه خصوصا فى مثل هذه الظروف. وقد قيل من صنع معكم معروفا فكافئوه، وقيل أيضا من لم يشكر الناس لم يشكر الله، وفوق هذا وذاك قول الحق جل شأنه (واذ احييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها)، اذ أجد أن مقتضى السياسة الحاضرة يحظر على مثلى أن يقف خطيبا فى هيئة عامة كهذا المحفل الكبير مخافة أن ينقلب الاجتماع من عادىّ بسيط الى سياسىّ محض فانه ماأسرع ماتحيط الظنون والأوهام بالاحاديث التى يلقيها الأمراء والحكام فى المجالس الرسمية أو الشبيهة بها و يتناقلها الناس بعضهم عن بعض وقلّ فى الناقلين

من لم يشوه وجوه الأخبار ويمسخ صورها،ومن لم تحمله نزعته على أن يذهب بها وفاق الأغراض والغايات ولا على مثل هذا أن يفعل غير مبال اذا هو وافق المصلحة العامة أو خالفها بل اذا ترتب على فعله شقاء أمة بأجمعها، وكثيرا ماينتفع سماسرة السوء وأعوان الشر من مثل هذه الفرصة وينتهزونها لالقاء الدسائس واثارة الوساوس بما اعتادوه من الشغب وإقلاق الخواطر، ومن العجيب أن هولاء يستطيعون أن يرتبوا أخطر الأعمال على أوهن الأسباب ومتى أرادوا أن يحاولوا أمرا من الأمور لايعدمون له وسيلة ولا يفقدون فيه حيلة ،اذن فماذا عسانى أن أصنع ولا محيص من الكلام مع هؤلاء الخطباء الكرام لاسيما وان فيهم عطوفة الوالى وقومندان الجيش وأركان الولاية الى غير ذلك ممن عرفت أنه لايحسن السكوت فى اجابتهم نعم انى قمت وأجملت فى أقل مايمكن من الكلام ما كان يجول فى نفسى من اظهار عواطفى نحو الجماعة وشكرهم على مالاقيته من كرمهم ولطفهم ،وقلت فى ختام مقالتى بعدأن دعوت الله لهم ولجلالة السلطان انى أرجو لبلدكم هذا مستقبلا جميلا فى عهد عطوفة الوالى وانكم بهمته ونشاطه ستبلغون ان شاء الله أسمى المقاصد وأعلى المطالب فانه من خير الرجال المخلصين والحكام العاملين دائما على سعادة بلادهم وراحة شعوبهم

ثم عدنا الى الفندق مودّعين من لدن صاحب العطوفة فخرى باشا بكل تجلة واحترام ،وقد بيتنا النية على الرحلة من حلب فى صباح يوم الثلاثاء ٢ ربيع الثانى سنة ١٣٢٨ ولا بُدّ لنا ان شاء الله من ذكر كلمة عن حلب الشهباء وفاء بحقها وقد كانت من أجمل بلادالشام وأعظم مدائنها عمارة وحضارة لاسيما وقد رأينا من معروف أهلها ووداتهم مالا ننساه لهم على طول الحياة وما لعلنا اذا ذكرنا شيئا منه نكون قد أدّينا بعض الواجب علينا تلقاء ماصادفناه من شهامة هؤلاء القوم ومروءتهم العالية .

حلب

هذه المدينة واقعة على الدرجة ٣٦ و ١١ دقيقة و ٣٢ ثانية من العرض الشمالى ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر نحو ٣٢٠ مترا وهى قائمة فى سهل منخفض على حدود الصحراء تحيط بها تلول كثيرة ويرى حواليها آثار أبنية قديمة تدل على أن هذا البلد كان محاطا بسور كبير ضخم بل ان أثر السور نفسه لايزال قائما فى بعض نواحيها الى الآن وله أبواب عدّة تسمى بأسماء مختلفة فمنها باب النصر وباب الفراج وباب الجنين وباب انطاكية لأنه قائم على طريق انطاكية التى هى على مسافة نحو ستين ميلا من مدينة حلب وباب الكنسرين

وباب المقام وباب التراب وباب الأحمر وباب الحديد وفى الجهة الشمالية الغ[illegible]بية يجرى نهر قويق وهو نهر جميل كثير السمك ويكثر فيه على الخصوص نوع من هذا يسمى بالثعابين وهناك يجرى نهر آخر يسمى شالوس وهو ينبع على بعد بضعة أيام من الجهة الشمالية ويصب فى مستنقع يبعد عن جنوب المدينة بنحو خمس ساعات ونصف تقريبا .

تاريخ المدينــــة

أما المدينة فقديمة جدّا واختلف فى بانيها على جملة آراء منها أن حلب بن المهر أحد بنى الحان بن مكنف من العماليق هو الذى اختط هذه المدينة وسميت باسمه سنة ٣٩٩٠ لآدم وذلك بعد ورود ابراهيم الى الديار الشامية بمدّة ٥٤٩ سنة هاربا من راميس ملك أسور وأن العمالقة كانوا جعلوها حصنا لأنفسهم وأموالهم بعد أن فتح يشوع بلادهم ولم يزالوا عليها الى أن أخذها منهم داود . وكثر ذكرها فى تاريخ العرب وشعرهم . وهى بما حوت من جمال الجوّ وحسن البقعة وجودة الهواء جديرة بذلك الذكر والاطراء ثم انه يحيط بها فى ضواحيها المباشرة حدائق غناء وبساتين بهيجة أكثر غرسها من شجر الدلب وشجر آخر يسمى لسان العصفور وشجر الحور الأبيض وشجر العرب وكذلك النبق والجوز والسفرجل والفستق والزيتون وهذه الخضرة المتجاوزة حدّ

الجمال تبتدئ على بضع ساعات من الجهة الشمالية وتنقسم الأرض فى ضواحيها الى ثلاثة أقسام. الأول الجهة التى يكثر فيها الطمى الرملى من الوادى والثانى أرض محمرّة فى لون الطوب وفى هذه الجهة ينبت صنفا القمح والفستق وينجحان نجاحا مدهشا وأحسن ماينبت الفستق ويفلح اذا كان فى الجهات الشرقية حيث كان يستجلبه الامبراطور فيتليوس أحد امبراطرة الرومان فى عصر نيرون صاحبه وشريكه فى مظالمه المشهورة النوع الثالث الطمى الاسود الذى بمجرد ماجف يتفكك كلية ويتحول الى تراب ناعم. وتستقى المدينة وما يحيط بها من المزارع والبساتين من قسم من ماء نهرقويق ومن قسم آخر يفرق عند وصول النهر المذكور الى قرية هيلانة وهى قرية بنتها قديما الملكة هيلانه أم الملك قسطنطين الأول وهذه المياه تصل الى داخل المدينة وتتوزع على جملة جهات فيها بواسطة قناة. أما الجو فى تلك الجهة فهو بارد فى فصل الشتاء ويقال انه يكثر سقوط الثلج والبرد فى هذا الفصل أيضا ومن ثم لاتعيش هناك أشجار البرتقال. وفى الصيف ترتفع الحرارة وتشتد أكثر منها من مدينة بيروت ولكن الهواء جاف تلطفه كثيرا نسمات الشمال العليلة. ثم ان حلب هى مركز الولاية التى تشمل الشام الشمالية كلها وحدودها تصل الى نهر الفرات. ويقدر

عدد سكانهـا الآن بنحو ٢٠٠ ألف نفس؛ والثلثان من هذا العـدد مسلمون والثلث الباقى من طوائف مختلفة فمنـه: ١٢ ألفا من الروم ومثلهم من اليهود و ٤ آلاف من الأرمن والباقى بعد ذلك خليط من الأرمن المتحدين والمارونيين والكاثوليك، ويوجد فيهـا جمعية بروتستانتية للانجليز وفيها عدّة مدارس ابتدائية وثانوية بعضها لطائفة الفرنسيسكان وفيها أيضـا مدرسـة للبنات تديرها راهبات القديس يوسف. وعلى مسافة أربعين كيلو مترا من شمال المدينة يبتدئ خط الانفصال بين اللغتين العربيـة والتركية ثم ان أهل المدينـة يتكلمون بالعربية وهم مع ذلك يجيدون اللغة التركية نطقا وفهما أكثر من أهل دمشق ولعل ذلك لأنهـم قريبون من جهة الأناضول وقد يلاحظ أن اللهجة العربية فى حلب لا تفترق كثيرا عن لهجات سائر مدن الشام وعدد الافرنج فيهـا أكثر من عددهم فى مدينة دمشق ولعل السبب فى ذلك هو أن حلب بمثابة مستودع لكثير من متاجر الأوربيين بحكم مركزها الجغرافى اذهى واقعـة بين جملة طرق وقد أخذت هـذه المدينة تتحول قليلا عن شكلها الشرقى وصناعتها الوطنية تكاد تتلاشى فى جانب الصناعة الاوربية ولا سبب لهذا فيما يغلب على الظن الا تلك العلاقات التى كانت ولا تزال بين هذه المدينة وبين الغرب

منذ العصور القديمة .وهى فى مقابل ماتستورده من مصنوعات أوربا وتستجلبه من بضاعتها تصدّر اليها الأشياء الأولية الآتية وهى الغلال والصوف والقطن (الذى لاتزال تزداد زراعته سـنة بعد أخرى) ، والعصف والصمغ والسمسم والجلد على اختلاف أصنافه.ويقال ان صادرات هذا البلد بلغت الى نحو مليون ونصف من الجنيهات وقد علمنا أن أكثر مايصنع من الأنسجة الحريرية والصوفية وغيرها يصدّر معظمه الى جهة الاناضـول .ومن تاريخ حلب أيضا أنه جاء ذكرها فى الآثار المصرية منذ ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد وقد ذكرها سلمنذار ملك أشوريا وهو الذى فتح مدينـــة سامرا وفرض الجزية على بنى اسرائيل ثم محاملكهم حيث أخذهم وملكهم أسرى فى سنة ٨٥٤ قبل الميلاد وقد قرب فيها قربانا الى الاله حداد وزاد فى اتساعها بعده الملك سـيلوكوس نيكاتور، حكم هـــذا الملك على بابل بعـــد وفاة الاسكندر وجمع تحت لوائه الشام وأرمينيا والعراق وقسما من آسـيا الوسطى وهو مؤسس الأسرة الملوكية التى حكمت الشام زمانا وكانت تلقب باسمه (نيكاتور) وهو أيضا الذى أطلق على حلب اسم بيرواه وفى سنة ٦١١ بعد المسيح دهمت هذه المدينة بحريق عظيم ويقال ان احراقها فى ذلك العهد كان بأمر من كسرى الثانى ملك العجم ثم

وقعت فى أيدى العرب تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح بدون أدنى مقاومة فى سنة ١٥ للهجرة وذلك أن أبا عبيدة رضى الله عنه لما فرغ من قنسرين سار الى حلب فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا وغدروا فأرسل اليها جماعة وسار هو حتى وصل الى ظاهر حلب وهو قريب منها بجمع أصنافا من العرب وصالحهم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك وأتى حلب وعلى مقدّمته عياض بن غنم الفهرى فتحصن أهلها وحاصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد ومن هذا الحين أخذت البلد تتقدّم وتزداد أهميتها وكانت عاصمة ملك سيف الدولة بن حمدان من سنة ٩٣٦ الى سنة ٩٦٧ ميلادية . وفى سنة ٩٦١ استولى عليها البيزانطيون تحت رياسة نيشغور ولكن لم يستطيعوا الاستيلاء على حصنها ثم جاءت بعد ذلك الحروب الصليبية وفى سنة ١١١٤ هدمتها الزلازل ، وفى سنة ١١٢٤ حاصرها الملك بيدوين أحد ملوك الصليبيين ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، وفى سنة ١١٣٩ عاودتها الزلازل ثانية ثم رجعت ثالثة وكانت فى الأخيرة أشد منها فى الأولين وذلك فى سنة ١١٧٠ ، فجدد عمارتها وأعاد اليها سيرتها المرحوم السلطان

نور الدين الشهيد كما أنه بنى القلعة،ثم هدمها المغول تحت رياسة هولاكو فى سنة ١٢٦٠ ثم أعادوا الكرة عليها فى سنة ١٢٨٠ وفى عهد سلاطين المماليك بمصر كانت حلب عاصمة الشام الشمالية . وفى سنة ١٤٠٠ خرب المدينة تيمورلنك بعد واقعة هائلة على الأبواب هزم فيها السوريون شر هزيمة وفى سنة ١٥١٦ افتتحها السلطان سليم ومحا آثار سلطة المماليك منها ومنذ ذلك العهد وهى قاعدة ولاية . واذا كانت حلب قد استطاعت على الرغم من كل هذه الحوادث المتكررة والمصائب المتتابعة أن تقوم من وهدتها لامّة شعثها رافعة راسها حافظة لكيانها ومكانها فذلك انما هو بفضل مركزها الجغرافى والتجارى ،أما مركزها الجغرافى فلأنها قائمة على طريق العجم والهند وأما مركزها التجارى فلأن تجارة الحرير والأقمشة والاجواخ والأحجار الكريمة كل هذه التجارات فى ذلك البلد نامية زاهرة .وعلى الجملة فان حلب هذه هى أحسن نقطة فى كل الولاية ولذلك اتخذها أكثر الملوك الفاتحين عاصمة ملكهم .ويقال ان جدّنا المرحوم ابراهيم باشا كان قد اتخذها مركزا للجنود والعساكر

بيوت المدينة

وقد كنا نشاهد أثناء مرورنا فى طرق المدينة وشوارعها أن البيوتات

فى معظم الجهات مبنية من حجارة منقوشة مزخرفة لافرق فى ذلك بين طبقاتها العليا وأدوارها السفلى،وقد أعجبنى كثيرا مارأيته من تلك النقوش البديعة المحفورة فى نفس الأحجار بغاية الدقة والاتقان ومن ذلك عرفت أن لأهل هذا البلد مهارة فائقة وحذقا عجيبا فى صنعة النقش الحفرى الذى يظهر فضل الصانع فيه على الأحجار أكثر مايظهر على غيرها فكان ذلك مصدقا لما اشتهر عنهم منذ زمان بعيد،ثم رأينا فى بعض أحياء البلد أبنية حديثة العهد على النمط الأوربى ولم نستغرب أن نمر من شوارع البلد فى بيوت على الطراز الجديد وأن سكانها أكثرهم من ثراة المسيحيين، وهناك حى آخر يسكنه جماعة اليهود

السفر من حلب

وانه ماكادت تشرق علينا شمس يوم الأربعاء ٤ ربيع الثانى سنة ١٣٢٨ حتى كنا تأهبنا للسفر وكان قد حضر لدينا جم غفير من أهل المدينة فركبنا العربات من باب الفندق الى المحطة وهناك كان فى انتظارنا زحام شديد من المودّعين الكرام يتقدمهم جميعا عطوفة الوالى وأركان الولاية وأصحاب الحيثيات الكبيرة وبعد أن تبادلنا السلام والشكر، وودّعنا من حضراتهم جميعا بما لايتسع المقام لشرحه من التجلة والتفخيم نزلنا فى الصالون الخاص وكانت المحطة لاتزال

تموج بالناس موجا وما هى الا لحظة وتحرك القطار فى طريق حمص واذ ذاك لا أستطيع أن أعبر عن سرورى وابتهاجى بأولئـك الحلبيين الافاضل الذين لم يتركوا فى سبيل راحتنا وانبساطنا شيئا الا فعلوه وقد نزل معنا فى القطار الوفد الذى كان قد عين لاستقبالنا فى طرف الولاية عنـدما حضرنا، وما فتئ ابن البخار يتابع السير على عجل الى ان وقف على محطـة حماه التى كان ينتظرنا على افريزها صاحبا الوجاهـة والفضل زعيم أسرة الكيلانية الشهيرة ورئيس أسرة الازهرى مظهرين لنا مزيد الأسف لمـافاتهما أوّلا وآخرا من نزولنا فى بلدهم وقد كانا يودّان كثيرا أن ننزل ضيوفا عليهما ولو زمنا يسيرا، فشكرتهما واعتذرت اليهما بضيق الوقت وفى تلك الاثناء عرضت على جملة خيل من التى اشتهرت عندهم بالقوّة والجلد والصبر على احتمال المتاعب والمشـاق فما وجدت فيها مايروجها من المحاسن والميزات التى تعشق بها الخيل وتقتنى من أجلها الجياد، وهنا ودّعنا حضرات أصحاب السـعادة والفضل مرعى باشا وقومندان الجندرمة وبقية الوفد وكررنا لهم شكرنا وعدنا بأجمل الثناء على عطوفة الوالى الذى بذل كل عنايته فى ادخال السرور علينـا من كل طريق، ثم تحرك القطار متجها الى حمص التى وصلنا اليها دون أن نشعر من هذا السفر بتعب أو قلق بل كان ارتياحنا

الى تلك المدينة لا يقل عن ارتياح الانسان الى مسكنه ووطنه لما كنا نجده دائما من لطف سعادة عبد الحميد باشا الدروبى وكرمه خصوصا بعد ماترددنا على هذه البلد وأوينا اليها مرة بعد أخرى وحينما وصلنا الى المنزل الذى وصفنا جماله فى الدفعة الاخرى حضر الينا زائران أحدهما شيخ كبير من المعروفين فى ضواحى حمص بالصلاح والتقوى والثانى أمير من أمراء المغرب وهو نجل الامير محمد المنبهى الذى كان ناظر الحربية فى مملكة مراكش فاستقبلناهما بما يليق بمقامهما من الاحترام ،

حديث الامير المغربى

وما كاد يستقر بالامير مجلسه حتى أخبرنا عن قصته فى أيامه الاخيرة فقال انه كان قائدا من قواد الروجى الذى كثيرا ماألح فى حرب سلطان المغرب واشتد عليه وأنه كان من أجل ذلك يحارب فى الجملة والده ضرورة أنه كان اذ ذاك وزير الحربية وفى جند السلطان وعسكره الى أن قال ان الروجى كان أرسله الى السلطان عبد الحميد فى مهمة تخصه، وبينما كان فى اسلامبول لأداء تلك المأمورية اذ فجع بخبر قتل الروجى فى واقعة . فما زال بعد ذلك مقيما هناك متحير الفكر لا يدرى ماذا يصنع به وقد عدم وليه ونصيره ثم قال ومن سوء حظى أيضا أنه كان معى فى تلك الرحلة

ولداى الصغيران وامرأتى ولما أن ضاقت فى وجوهنا أبواب المعاش وأسباب الرزق اضطررنا الى الهجرة من اسلامبول الى مدينة حمص وما فتئنا مقيمين بها الى هذا اليوم فى احد المنازل الصغيرة هذا طرف من حديثه معنا وكان أخبرنى سعادة عبد الحميد باشا الدروبى أن هذا الامير رفيع النفس وقد حاول بعض المحسنين أن يصله ببعض المال فأبى وما علمنا أنه نزلت به نفسه وقتاما الى قبول صدقة الناس ولا احسانهم وأنه من وقت أن جاء هذا البلد وعرفناه الى الآن وهو انما يعتاش من فضل مكسبه الذى يستحصله من كده وعمل يده فاستغربت قصة هذا الامير من حديث الباشا وقلت فى نفسى لله هذه العفة النادرة من رجل غريب فى تلك البلاد البعيدة وان مثله لو مدّيده لأهل المروءة واليسار لنال من مالهم مايجعله فى غنى عن الكد والكدح طول حياته لأن الناس مدفوعون بطبيعتهم الى معاونة أمثاله وفى المجلس ناولنى ذلك الامير عريضة يرجونى فيها أن أتكلم مع والده فى طلب العفو عنه. أما أنا فما كدت أقرأ هذا الطلب فى عريضته حتى ارتبكت وتحيرت فى مسألته اذ لم يكن يرضينى أن يعيش هذا الامير وهو لايزال غض الشباب تلك العيشة المرة ويقضى حياته الطويلة بعيدا عن بلده وأهله وأصحابه متجشما مصاعب

العيشة معانيا متاعب الحياة أشد مما يعانيه الفقراء البائسون وانى لأرأف الناس به وأشفقهم عليه من حين بلغنى تاريخه ومن ذا الذى يكون فى قلبه مثقال ذرة من الشفقة ولا يتألم لهذا الامير أولا يريد أن يكرمه وقد أصبح بعد العز ذليلا وبعد الغنى فقيرا وصار يعدّ من أفراد الناس وعامتهم بعد أن كان لايحسب الا فى أمرائهم وسادتهم وعظمائهم وقادتهم، ولكن ماذا عسانى أن أصنع فى مسألته اذا كان لايقبل منة أحد عليه صغيرا أو كبيرا كما أنه ليس من المستطاع بوجه من الوجوه أن أخاطب والده فى طلب العفو عنه بعد أن جرى بينهما ماكان جرى من المحاربة والمخاصمة وما يدر بيننا لعل فى المسألة سرا أبعد من كل ذلك فان والدا يقسو على فلذة كبده الى حدّ أن لايفرض له وجودا طول هذه المدّة ليس مما ينبنى على أسباب بسيطة أو يترتب على حوادث هينة ولهذا لم أجد لى جوابا سوى السكوت وقد كنا بحسن المصادفة مطلوبين لتناول الطعام ٠

السفر من حمص

وحين بزغت شمس اليوم الثانى جهز لاجلنا أربع مركبات كان من ضمنها مركبة سعادة عبد الحميد باشا الدروبى الخاصة وثلاث من مركبات الايجار فركبت العربة الاولى ومعى سعادة الباشا المذكور

وركب حضرة عزيزنا أحمد بك العريس ومعه محمود خيرى أفندى عربة بعدنا أما العربتان الباقيتان فقد ركبهما اثنان من توابعنا ومع كل واحد منهما بعض المتاع الخاص بنا وقصدنا الى طرابلس، حيث انه لم يمد الى الآن خط حديدى يربط بين حمص وبين طرابلس ولا يزال المسافرون من هذه الى تلك يركبون اما العربات أو الدواب وعلى كل حال فان السفر فى هذا الطريق سهل بل هو فى المعنى أشبه بالفسحة الرياضـية لمـا يصادف المسافر فيه من الاغراس اليانعـة والأحراش الجميلة. ثم اننا قبل أن نتحرك ودّعنا سعادة متصرف المدينة وحضرات الحكام وأكابر القوم الذين كانوا قد حضروا الى دار سـعادة الباشا لهذا الغرض وشـكرناهم وذكرنا لهم معروفهم فى غير مرة بغير عبارة وبعد ذلك ابتدأنا السير وكان أمام عربتنا أربعة من عساكر الجندرمة وأربعة آخرون مثلهم من خلفها. وما برحنا نواصل السـير فى ذلك الطريق حتى وصلنا الى سرادق جميل كان قد أعده لأجلنا بالخصوص حضرة المفضال محمود بك أحد زعماء مشايخ الدنادشة، وكانت مسافة مسيرنا منذ خرجنا من حمص حتى وصلنا الى هذه النقطة لا تبلغ أكثر من نصف الساعة ،

فى الطـــــريق

وهنـاك كان ينتظرنا حضرة البك المـذكور مع لفيف من اسرته الكريمة بينما كان نحو مائة وخمسـين فارسا مصطفين على خيلهم أمام تلك الخيمة بغـاية النظام، وقد كان بين ظهرانيهم فتاتان من بنـات العرب مثقلتين بالحلى على لبوسهما العربى اللطيف، وفى احدى يدى كل واحدة منهما سيف وفى الاخرى منديل ثم هما كانتا تغنيان بين هؤلاء الفرسان لاجل تشجيعهم وتهييج عاطفة الفروسـية فيهم وقد نزلنا من العربات ودخلنا ذلك الصيوان وبعد أن أخذنا منـه مجالسنا قدمت لنا القهوة ثم الشراب ولم نلبث بعـد أن شربناهما الا مسافة عشر دقائق ثم قمنا فمررنا أمام أولئك الفرسان الذين كان يركب أغلبهم أفراسا تتبعها أولادها المهارة. واذ ذاك أخذ العـرب الخيالة يتبارون فى اللعب ويتغالبون على الخيل وفى أيديهم بنادقهم على نحو ما يرى فى الملاعب والميادين مما يسمى فى عرف العامة بالبرجاس. وقد خفت حينئذ أن ينفلت رصاصهم على غير عمد فيصيب أحدا لأن بنادقهم كانت من الطراز الحديث وهى من النوع الذى لابد لاطلاق عبوته الهوائية من وجود الظروف الرصاص فيها أوّلا ولذلك طلبت اليهم أن يكفوا عن الضرب فى ذلك الملعب. وفى تلك الاثناء كانت البنتان

تدوران حول الخيالة من هنا ومن هناك وتترنمان بأناشيد الحرب ونغمات الطعن والضرب فكانتا تنبهان بذلك الغناء المؤثر عواطف الفوارس وتحركان فيهم غريزة الحمية والشجاعة حتى أخذت الحماسة من نفوسهم مأخذا عظيما وما زالوا كذلك حتى ركبنا العربات وركب حضرة محمود بك فرسا وسار بجانب عربتنا وتبعه جميع الخيالة من خلفنا وأمامنا وعلى جانبينا أيضا وهم بين أن يعدوا سراعا و يعودوا بطاء و يتنوعوا فى ألاعيبهم الحماسية جريا ووقوفا ودفاعا وهجوما الى غير ذلك مما لايدرك وصفه الا بالرؤية والمعاينة وقد كنت حين ذاك أعجب بشجاعة أولئك القوم ومهارتهم فوق ماكنت أعجب وأعجب أيضا من أبناء الافراس الصغار التى كان عمرها فى الغالب لا يزيد عن أسبوعين ومع ذلك كنت اشاهدها تتبع امهاتها فى تلك المسافات البعيدة على هذا السير الحثيث وتتحمل مشقة السفر والجرى وقد أخذتنى بها من أجل ذلك رأفة شديدة فطلبت من أولئك الراكضين أن يخففوا السير و يتئدوا لكيلا يشقوا على تلك المهرات المساكين وهى فى ذلك السن الصغير ثم مافتئوا يركضون على طول المسير و يلعبون بأعظم مهارة وأكبر حذق. وكان فيهم فارس كبير السن يلبس ملابس دندشية قديمة يسمى عثمان أغا وهو يمتاز عن اخوانه بحب الظهور

عليهم فى الفروسية وخفة الحركة وحقيقة كان هذا الفارس العجيب
يبدى أمامنا من ضروب المهارة فى الغدو والرواح والصعود والهبوط
على الصخور الجبلية ما كنا نعجب منه غاية العجب وكذلك كان له
حذق غريب فى عبور النهر وهو فوق حصانه الذى كان يعدو تارة
فى الارض وأخرى فى الماء أسرع من الطير وأخف من الهواء
حتى استغربنا أىّ استغراب من جسارة هذا الرجل الفارس وجراءته
المدهشة على ركوب الخيل بتلك الكيفية التى كانت فوق التصوّر
وما زلنا كذلك حتى دخل بنا الطريق فى مضايق بين جبلين فكنا بين
أن نصعد مسافة الى فوق ونهبط أخرى الى تحت.وكان لا يزال على
جانب عربتنا حضرة محمود بك وهو ممتلئ رجولية وشهامة لاسيما وانه
طويل القامة عظيم الشارب كبير الأهداب تتجلى فيه الفروسية
بأخص أوصافها وأجلى معانيها وهو مع ذلك مهيب وقور .

حادثة فى الطريق

وقد حدث فى أثناء السير أن فرسا من أفراس الركب لا أدرى لمن
كان ضرب فرس ذلك البك فى ذراعه الايمن بجرحه جرحا بليغا مازال
يشخب دما حتى صبغ ساق ذلك الفرس المجروح بالدم فاحمرّ بعد
أن كان أزرق اللون.وقد خفت على هذا الفرس المصاب أن يهلك

تحت راكبه لأن الجرح كان خطرا حيث كان النزيف مسترسلا بقوة، ومن ثم طلبت الى محمود بك أن ينزل عنه اشفاقا عليه ورحمة به أما هو فما كان ليهمه أصلا أن يموت الفرس أو يعيش مادام فى صحبتنا وضمن رفاقنا، حتى قال حفظه الله مامعناه انى لأجعل فداءك نفسى وما فرسى بأعز علىّ منها. ثم تأخر عنا نحو دقيقة وقد كنا حسبنا أنه نزل عن الفرس ولكنه مالبث أن جاء الى جانبنا كما كان ورأينا أن ليس على فرسه أثر الجرح ولا ذلك الدم الذى رأيناه وقت الحادثة وكان ينزف نزيفا ففهمنا أنه كان فى تلك المسافة الصغيرة يعالج الفرس ولكن لست أدرى بما ذا عالجها وأىّ دواء يصل مفعوله من السرعة الى هذا الحد، وقد عرفت أن بعض الفرسان المهاجمين كانوا من أبناء البكوات الدنادشة وهم أحداث تتراوح أعمارهم بين السابعة والعاشرة ومع ذلك فانهم كانوا يحسنون الركبة مثل مايحسنها آباؤهم وكبارهم، كما كانوا يتقنون اللعب ويتفننون فيه كأنهم مارسوه من زمان كبير، ولا بدع أن يكونوا كذلك اذ قد تربوا على الشجاعة منذ نشأتهم واعتادوا على الفروسية وركوب الخيل بكثرة التدرّب والتمرين . ثم دخلنا فى ميدان فسيح وكان لم يمض على سيرنا أكثر من ثلاثة أرباع الساعة وهناك كان ينتظرنا عدد كبير من الخيالة ومعهم

البكوات الباقون من عشائر الدنادشة فاجتمع الفريقان وصاروا ركبا واحدا ونحن لانفتأ نتابع السير حتى وصلنا الى تل كلخ وهو واقع فى الحدود الفاصلة بين ولايتى بيروت ودمشق وفى آخر حدود الدنادشة واذ ذاك كنا قد دخلنا فى وقت الظهر وحان ميعاد الغداء فذهبنا الى بيت حضرة محمد بك محمد وهو زعيم مشايخ عربان الدنادشة ونزلنا عليه ضيوفا بعد أن طلب الينا ذلك بالحاح الكرماء وكان ينتظرنا هناك بعض مستخدمى الحكومة وقد قدم الينا الطعام على مائدة كبيرة تسع عشرين نفسا وكانت على النمط الاوربى وفيها ألوان عديدة وأصناف كثيرة متنوعة، فأكلنا متلذذين من حسن الطعام واجادته أما الركب الذى كان معنا وقد عرفت كثرتهم فقد كانوا يأكلون جميعا موزعين على عدة موائد وطعامهم كان قاصرا على الارز واللحم ولم يكن ذلك ليدهشنى لانى لاأستغرب أن يجتمع على موائد هؤلاء العرب عدد كبير كالذى رأيناه أو أكثر وأنا أعلم أن العرب قوم جبلوا على الكرم وطبعوا على البذل والسخاء وانما الذى كنت أعجب منه عجبا شديدا هو تجهيز مائدة على الطراز الغربى الصرف وان القوم عرب شرقيون من سكان الجبال، ثم بعد أن تهيأنا للسير شكرنا لحضرة محمد بك محمد تلك العناية العظمى وأثنينا كذلك على عشائره الكرام لمابذلوه من

الهمة والمعروف وقد اجتذبنى الى هؤلاء العرب جمال هندامهم وحسن بزتهم وكان بودّى لو أن تطول عشرتى بينهم لأتمتع كثيرا برؤية منظرهم الجميل لولا أن الوقت قصير محدود على أنى لم أبارحهم حتى عمدت الى أخذ صورتهم بواسطة الفوتوغراف لأحتفظ بها تذكارا لهم على طول الزمان وبعد ذلك أخذنا نسير بين الفرسان على الهيئة التى بيناها أوّلا وانى على قدر ما كنت فرحا مسرورا بهذه المظاهرات الجليلة كنت آسفا من أنى راكب عربة ولم أكن فارسا ضمن أولئك الفوارس الشجعان فأركض فرسى لتعدو سريعة فى ذلك الميدان وكان يكثر نزوعى الى مباراتهم كلما كنت أنظر اليهم فأشاهد خفتهم على الافراس وهم يذهبون بها هنا وهناك تارة يهجمون وأخرى يدافعون وآونة يسرعون وأخرى يبطؤن

استطراد فى السياحة

يسافر الانسان الى أقاصى البلدان ويرحل عن وطنه أحيانا لباعث مخصوص وقصد معلوم ثم يتفق أن يعترضه فى طريق رحلته شئ أو أشياء كثيرة لم تكن لتدور من قبل فى خلده أو تخطر له ببال ثم كثيرا مايصادف أن يكون بعض الشئ من ذلك هاما خطيرا الى درجة أن ينسى معه الانسان غرضه الذاتى وربما لم ينسه ولكن يهمله

اهمالا ويُعنَى بذلك الشئ العارض ويحصر كل عمله فيه وهكذا تتفاوت الامور وتتباعد مراتبها وكل أمر يأخذ من عناية الانسان واجتهاده بقدر أهميته فى نفسه أو مركزه من الفائدة والمنفعة فى اعتقاد صاحب العمل وقد قيل احترام كل شئ انما يكون بقدر الحاجة اليه عرف القارئ من مجمل ماتقدم بالضرورة أن سياحتنا فى بلاد سورية كان القصد منها أوّلا يدور حول ثلاثة أغراض.لا يخلو منها جملة مسافر فى الغالب الاوّل تبديل الهواء طلبا للصحة والعافية ـ الثانى مشاهدة معالم المدن الشهيرة فى سهول الشام وعلى جبال لبنان ـ الثالث الاطلاع على كرائم الخيل العربية والشامية التى تمتاز بها هذه البلاد منذ العصور القديمة وقد كان هذا المقصد الاخير من أهم بواعث السفر وأعظم أسبابه ولقد بحثنا جُهْدَنا وَنَقَّبْنَا آخر ما كان يمكننا عن تلك الخيل لعلنا نصل منها الى غايتنا فلم يتفق أن نرى فى نتيجة هذا البحث سوى الخيل العادية التى لم تطابق رغبتنا ولم تكن لتمتاز فى نظرنا بوجه من الوجوه.ذلك كان على الرغم من أن الصدفة خدمتنا كثيرا فى هذا الموضوع وساقت الينا فيما ساقته من ذلك النوع أكثر مما سعينا اليه وتعرفناه بأنفسنا فى غير مرة وغير مكان هذه كانت مقاصدنا الذاتية وأغراضنا الجوهرية الاولى ولكننا صادفنا فى غضون

السياحة من أخطر الامور وأجل الاعمال ما اتفق أن نجده فى طريقنا عرضا مما لانرى فى استطاعتنا بيانه على وجهه بأكثر من أن نحيل القارئ عليه فى هذه الرحلة فيرجع اليه رجوعا خاصا ويدركه حينئذ واضحا مفصلا فى مواضعه بالاسباب والمناسبات وما كنا لنورده اقتضابا وان الحديث يتفرق بالانسان شعبه ووجهه ويتشبث بعضه ببعض وأرانى بحمد الله قد استفدت من تلك الامور على ما فيها فوائد جمة ما كان أشد حاجةَ مثلى اليها وانه ما كان يتيسر لى بحال أن أستفيدها جملة وأنتفع أو أنفع بها أبدا إلا من هذا الطريق طريق الصدفة العجيبة التى كثيرا ما كانت تفاجئنا على غير حساب سابق وموعد متقدم ورب صدفة خير من ميعاد ولولا أن وقتى الذى حتمته المقادير لهذه السياحة كان شهرا واحدا وهو وقت قصير بالقياس الى ما كان يلزم للتجول فى مناكب الشام الواسعة وجوانبها الشاسعة لكنت استفدت أكثر من ذلك كثيرا ولكانت تكون رحلتى هذه كتابا ضخما يحوى فى طوايا صحائفه مجموعة صحيحة صريحة من أنواع متفرقة وفنون متنوعة أما ما كنت شرحته من حياة القوم الاجتماعية وأخلاقهم وآدابهم وشجاعتهم وسياستهم فانه لم يكن بالشئ القليل ولا بالأمر الغامض بل لعل فيما ذكرته من هذا القبيل كفاية لمن أراد أن يعرف على وجه

الاجمال ماذا كان تكوين ذلك الشعب الشامى الجليل ، وما هى أحواله العمومية أو أراد أن يفهم كيف كان شأنى فيما بينهم من أوّل السفر الى آخر خطوة خطوتها فى أرض تلك البلاد نعم ان الظروف التى وجدت فيها كانت تأبى علىّ فى غالب الأحيان أن أجتمع الا بكبار القوم وخاصتهم ولهؤلاء صفات وشمائل لا توجد فى مطلق الناس وعلى الرغم من أنى كنت أتحين الفرص من وقت الى آخر لكيما أختلط بالعامة وأمارسهم شأن من يهمه الوقوف على المبادئ والعادات لم يصادف أن يجتمع لى وقت كاف أو تتيسر لى معهم ممارسة طويلة انما كنت أختلس بعض الزمن وأجد منهم ذلك غرارا مثل حسو الطير ماء الثماد وانه ليصعب مع هذا جدّا أن يحيط الانسان بتفصيل موضوع أخلاقىّ فى مجموعة كبيرة تختلف من وجوه كثيرة وأن يلم من ذلك بما لو أراد أن يعطيه للمستفيد موضوعا وافيا ودرسا كافيا تحت عنوان أخلاق الشعب وعوائده لجاء فيه على الكفاية من كل شعبه وأطرافه لاسيما وانه موضوع دقيق يحوج الى نظر وروية ريثما يدعو الى عشرة طويلة واحتكاك عظيم، ولعل الحاكم بعد ذلك على أخلاق القوم وعوائدهم يغلب الحكم عليهم تغليبا أو يبنى رأيه على القياس. وهو على كلا الحالين لا يتجاوز موقف الظن ولا يتعدّى

وجه الشك فى كل الذى يدّعيه ايجابا أو سلبا غير أن ذلك لم يكن ليحول بينى وبين ماأردته من تعرّف عامة الشعب الشامىّ ودرس أخلاقهم على وجه الاجمال بالقدر المستطاع مما عساه أن يعود ببعض الفائدة وما لايُدرك كله لايُترك جله وذلك بالطبع كاف لمن كانت مدة سفره ذهابا وايابا شهرا واحدا بل هذا مالايطمع فى أكثر منه الا من كان ينقطع للشئ لايفرغ منه حتى يتغلغل فيه ويحيط بجميع أطرافه وحدوده وعلى ذلك اذا نحن ادّعينا الآن ما ادّعيناه أوّلا من أن الشاميين فى مجموعهم قوم حميدو الخصال رقيقو الشمائل فيهم وداعة ولطف وسماحة لا نكون قد أكبرنا الدعوى أو أعظمنا الحكم ثم نحكم ونحن مطمئنون بأن أخلاق الخاصة منهم وأحوالهم غاية فى الرقى والكمال ونخص بالذكر من بين هؤلاء جميعا ذلك المفضال الاكرم والسرى الكبير الانخم سعادة عبد الحميد باشا الدروبى الذى كان قد انتهى دوره معنا فى تل كلخ بعد أن طلبنا اليه أن يعود مع سلامة الله الى بلده حمص وما كان يريد الا أن يرافقنا الى طرابلس مجاملة منه ولطفا فوق لطفه السابق ومعروفه الكبير ولكنى أبيت عليه الا أن يرجع لمباشرة مصالحه التى غاب عنها منذ استقبلنا حتى صرنا فى تل كلخ وهو فى تلك المسافة كلها كان يلازمنا ملازمة الظل

للشاخص فما كان يبارحنا ولا طرفة عين الا اذا اقتضته الى ذلك ضرورة من نوم وخلافه، وقد كان مع هذا رجلا كبير السن يشق عليه السفر وتتعبه كثرة الحركة والركوب، لذلك على الخصوص أشفقت عليه وما زلت به حتى ودّعنا وعاد بالصحة والسلامة تاركا فى قلوبنا أعظم حب ووداد .

السفر من تل كلخ

وبعدئذ قدّمت لنا عربة سعادة عمر باشا الخاصة التى كانت تنتظرنا فى التل فركبناها وركب معنا حضرة عزيزنا أحمد بك العريس ،وكان أمام عربتنا ومن ورائها ثلة من عسكر الجندرمة على الترتيب الذى أسلفناه، وكان خلف ركابنا مباشرة عربة حضرتى الفاضلين علم الدين بك وشقيقه اللذين جمعنا بهما حسن الحظ فى ذلك الموضع وهما يقيمان الآن فى مدينة طرابلس فى جهة الميناء وقد كانا قبل ذلك فى مصر. ولهما نسبة خاصة بالبيت الخديوى منذ حياة المغفور له ساكن الجنان والدنا، ولذلك كان لعلم الدين هذا أمل وطيد فى أن نكون ضيوفه مدة اقامتنا فى بلدهم حتى انه ألح كثيرا فى دعوتنا الى ذلك ولكننا كنا أجبنا سعادة عمر باشا العكارى، الذى كان قد سبقه بالدعوة، وهو الرأس الاكبر فى قبائل العكاكرة والزعيم الوحيد الذى

اليـه الرجع فى شؤونهـم وأمورهم.فلم يبق فى الوسـع اذ ذاك سوى
الاعتذار الى علم الدين بك العذر المقبول، غير أنه أبى مع هـذا أيضا
الا أن نتناول لديه طعـام الغـداء قبل مبارحة طرابلس، وقد أجبناه
حيث لم يكن ثمت مانع وشكرنا له معروفه ثم كان وراء عربتهما عربات
أخرى يركبها أتباعنا مع المتاع فسرنا تكلؤنا رعاية الله وتحوطنا عنايته بينما
كان الفرسان المتسابقون يحيطون بركابنا من جميـع الجهات، وما برحنا
بين هؤلاء الجمـوع ننحدر على طريق التل والمناظر الطبيعية البديعـة
كانت حولنا فى طول ذلك الطريق المنحدر وما بعده من أبهج مانظرته
العيون وانتعشت به الارواح، الى أن بدت لنا معالم طرابلس قائمة على
شاطئ البحر وكنا ونحن سائرون نستنشق فى نسمات الشمال روائح ذكية
تفوح علينا من أزاهير اللارنج والبرتقال على مسافة ساعة من البلد
تقريبا. وعند ما كنا والمسافة بيننا وبين المدينة تقرب من نصف الساعة
وجدنا فى استقبالنا جمهورا عظيما من فرسان العكاكرة حيث كانوا
ينتظروننا فى تلك الجهة، وعلى مقدمتهم ذلك البطل الباسل سعادة عمر
باشا العكارى ممتطيا جوادا أزرق اللون محكم الحلقة، فجاء الى جانبنا وتبعه
قومه فالتقى الجمعان على هيئة الجيشين يلتقيان فى ساحة الوغى وميدان
النزال، ومن ذلك الحين أخذ الاحتفال صورة جديدة ومظهرا رهيبا

مهيبا وقد استمرّ بنا السير على تلك الحال حتى ترجلنا عن مركباتنا عند بيت خارج المدينة وهو منها على مسيرة بضع دقائق اذ كان قد خرج عن البلد لاستقبالنا فى ذلك البيت سعادة عاكف بك متصرف مدينة طرابلس فى مقدمة عدد كبير من رجال الحكومة وأعيان المدينة وعلمائها و وجهائها وهناك مكثنا بعد أن تصافحنا وتبادلنا السلام والتحية ريثما تناولنا القهوة والمرطبات اللذيذة،وفى تلك الاثناء تقدمت الينا كريمة سعادة المتصرف وأهدتنا باقة ورد جميلة كانت تحملها بيدها اليمنى لذلك الغرض فتقبلناها منها بقبول حسن وشكرنا لها هديتها كما شكرنا لوالدها وجميع الحاضرين اذ ذاك عنايتهم وكرمهم ثم عمدنا الى عرباتنا وانتظم الموكب كما كان أو أحسن وأخذنا نسير من ذلك المكان بين صفوف الالوف من أهل المدينة والضواحى الذين كانوا يختلفون بين رجال ونساء وكبار وصغار وكلهم كانوا يتزاحمون على رؤيتنا و يتسابقون اليها على نحو ما يشاهد فى الاحتفالات الكبيرة التى تشهدها الناس و يجتمعون لها من قريب و بعيد حتى كان يخيل الينا وقتئذ أننا نمرّ فى حفلة المحمل المصرى، وكذلك كان سيرنا طول المسافة حتى وصلنا الى بيت صاحب السعادة عمر باشا الذى كان قد سبقنا اليه ليستقبلنا عنده هو وشقيقه و بقية أسرته الكريمة التى كانت

كلها من ذوات الرتب السامية والالقاب العالية. وقد وجدنا عند مدخل البيت من حفاوتهم وترحيبهم ماأنطق ألسـنتنا بالثناء الجميل على أفراد هذه الاسرة الفخيمة من رأسها الى ذنبها

بيت عمـــر باشا

أما البيت فكان من أبدع البيوتات منظرا وأجملها موقعـا وأحسنها ترتيبا ونظاما.وقد زاده بهاء وحسنا ما كان عليه من الزخرف والزينـة . وهو قائم فى ناحيـة من المبانى عن وسط ميدان واسع يرى من ورائه هيكل البلد فى أحد قسميه قائما على تل مرتفـع.وأنه ما كان تمرّ لحظة وتأتى بعدها لحظة أخرى حتى كنا نحس من أنفسنا بفرح مزيد وسرور جديد وارتياح ونشاط، سبب هذا ما كنا نشاهده آنا بعد آن من حسن وفادة القوم واخلاصهم الذى كان يتجلى مثل فلق الصبح فى أقوالهم وأفعـالهم نعم انى لاأزال أذكر معروف هؤلاء الأفاضل زعماء العكاكرة وسادة قضائهم فأشكرهم عليـه دائمـا أبدا ثم ما كدنا نجلس فى ردهة الاستقبال وتستقرّ بنا مواضعنا حتى توافد علينا جميع الاعيان والحكام والعلماء والرؤساء الروحيين فسلمنا عليهـم وشكرنالهم تكرر المقابلة وتبادلنا بعض الأحاديث جريا على العادة ثم صعدنا الى غرفتنا التى خصصنا بها فى هـذا البيت. وحينئذ أشرفنا من النـافذة

لنرى ما كان يحيط بنا من الزحام الهائل واذا بذلك الميدان الفسيح الذى يبلغ بأقل تقدير ثلاثة أضعاف ساحة عابدين فى مصر كان مكتظا بالناس الى حدّ أن أحدهم كان لايجد فى الارض أكثر من موضع قدميه، ولا فى الفضاء ما كان يسعه يحرك رأسه بل لم أبالغ اذا أنا قلت كما تقول العامة فى أمثالهم المشهورة (ترش عليهم الملح ماينزلشى) وبعد أن تناولنا الطعام الشهى على مائدة سعادة الباشا واسترحنا قليلا قصدنا الى الحديقة العمومية فى هذا البلد حيث كان دعانا سعادة المتصرف لتناول الشاى فيها ولقد رأيناها مزدانة مزخرفة وكانت الطرق التى سلكناها الى تلك الحديقة غاصة بالاهالى الى درجة لم تعهد الا فى الاحتفالات العظيمة، وما كان منهم من أحد الا وكنت أشاهد السرور يتألق على وجهه. وقد لبثنا هناك نتحدث نحن وأصحابنا فى شؤون عامة الى أن شربنا الشاى وتناولنا ما لذّ لنا وطاب مما كان أعدّ على تلك المائدة الشائقة وأطلقت أمامنا الألعاب النارية الجميلة وعزفت الموسيقى بالسلام وتمت الحفلة فوق مايرام. ثم عدنا الى بيت سعادة الباشا وأقمنا فيه ليلتنا مستأنسين بحديثه وسمره مسرورين مبتهجين بما رأيناه من سامى عناية القوم ولطفهم وحين ظهرت شمس اليوم التالى وكان يوم جمعة، نمى الينا ونحن فى البيت أن خيلا

كثيرة وجمالا عدة آتية لأجلنا من ناحيـة الجبال عليها فوارس عكار بمزاميرهم، وجمهور من بنـات العرب غفير وما لبثنا أن رأيناهم جاءوا فى الميدان وكان يلتف بهم عدد كبير من أبناء البلاد ثم شرعوا يزمرون ويلعبون أمام البيت فى ذلك الميدان الرحيب الذى غص بهم حتى لم يبق فيه متسع لغيرهم بينما كان معظم أهل المدينة فوق التل يشرفون منه ومن البيوت على ألاعيب أولئك العرب الخيالة ونسائهم وينظرون مهارتهم المدهشة فى المغالبـة والمضاربة بالجريد والرماح هجوما ودفاعا وكرّا وفرّا. وحقيقة كان هؤلاء الفوارس مهرة حذاقا يحسنون اللعب على متون الصافنات الجياد بمختلف أنواعه وأشـكاله. وقـد كان بين أظهرهم ثلاثة فرسان ظهروا على الكل وامتازوا بالخفة والبراعة فكان لهم فوق ما كان للجميع من العجب والاستحسان واستمر الحال كما وصفنا حتى قربت صلاة الجمعة وحينئذ تأهبنا لها وذهبنا ومعنا سعادة المتصرف وبقية أصحابنا الى الجامع الاكبر المسمى بجامع طيلان

مسـجد طيـلان

هذا الجامع واقع فى الجنوب الغربى من المدينة فأدينا الفريضة فيه، وكنا نلاحظ أن المسجد على اتساعه العظيم كان غاصا بالناس بل رأينا أن كثيرا منهـم كانوا يصلون خارجه لضيقه عليهم ثم عمدنا الى زيارة

المخلفات المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فقبلناها مرارا متبركين بها لنسبتها الشريفة بينما كان رجال من أهل الطريق يقرؤن الأدعية والأوراد بصوت جهورى . ومن هناك خرجنا مشاة فى أول السبيل والناس مصطفون على حافتى الطريق كأنهم بنيان مرصوص وأقدرهم اذ ذاك الذى كان يظفر برؤيتنا ويظهر عليهم فيها ثم جىء الينا بالعربات تشق غمار المحتشدين وتأخذ طريقها من بينهم غصبا فركبناها وقصدنا بيت حضرة الفاضل علم الدين بك لتناول طعام الغداء عنده اجابة لدعوته السابقة . وهذا البيت كان فى الميناء التى يوجد فيها جزء عظيم من المبانى لان المدينة التى يطلق عليها اسم طرابلس تتألف من الأبنية الواقعة على شاطئ البحر ومن تلك الأبنية التى ذكرنا أنها على الهضبة بالقرب من بيت عمر باشا العكارى . وبين التل والميناء مسافة ربع الساعة تقريبا بمسير العربات ، ويربط بينهما خط الترام العريض فى طريق جميل يجد فيه المسافر على اليمين واليسار بساتين كثيرة وحدائق غناء غرسها فى الغالب من شجر اللارنج والبرتقال الذى كان يملأ الجو بعبير زهره الفياح . وقد عرجنا فى هذا الطريق على بيت جناب القومندان فزرناه وشكرنا له همته وجميله . وبعدما أكلنا هنيئا وشربنا مريئا لدى حضرة علم الدين بك قصدنا الى مياه الميناء

ومنهـا نزلنا فى زورق حتى وصلنا الى احدى بواخر الشركة الخديوية وقبـل ذلك كنا ودعنـا أصحاب السعادة المتصرف وعمر باشا وأخاه وغيرهم ممن كانوا يرافقوننـا فى تلك المرة وشكرنا لهم جميعا معروفهم ومجاملتهم مدة اقامتنا عندهم، وحينما وصلنا الى الباخرة وجدنا فيها خدمنا مع المتاع حيث كانوا قد سبقونا اليها، وبعد بضع دقائق من نزولنا أقلعت على بركة الله وكانت الساعة وقتئذ اثنـين ونصفا بعـد الظهر، وممن كان نزل معنا حضرة علم الدين بك وشقيقه لمناسـبة أن الاوّل كان مندوبا من قبـل الشركة من جهة ولكى يجد من مرافقتنا فى طريق البحر الى بيروت عوضا له مما فاته من تلك الضيافة التى كان ألح علينا فيها الحاحا وهو يتمناها من صميم فؤاده، وبعد ماتحركت الباخرة ذهبت منى التفـاتة الى الشاطئ فوجدت على بعد بعيد سـعادتى الفـاضلين عمر باشا العكارى وأخاه آتيين الى مرسى السفينة بسرعة يظن منها أنهما كانا يقصدان مرافقتنا فى هذا السفر، ولكننا كنا قطعنا مسافة طويلة وبهـذا السبب لم يدركا غرضهما، وعلى كل حال فانى شاكر لهما هذه الهمة القعساء والمروءة الشماء أما وقد وصلنا الى هنـا فلا بد لنـا من كلمة على مدينة طرابلس حيث هى من المدن الكبيرة والمراكز الشهيرة ،

طرابلس

هى مركز أحد ألوية ولاية بيروت وعدد سكانها ٣٠ ألف نسمة؟
يبلغ عدد المسلمين منهم نحو ٢٤ ألف نفس والباقى من طوائف
مختلفة أغلبهم من الروم الارتدكس، ويوجد فى المدينة ١٤ مسجدا
ومعبد لليهود و ١٤ كنيسة للمسيحيين لكل مذهب عدد يخصه ثم ان
للراهبات الفرنسيات ملجأ للاطفال ومدرسة للبنات وللقسس
الامريكيين مركز للتبشير ومدرسة) ويقال ان فيها للمسلمين مكتبات
جميلة. أما تجارتها فقد كانت نامية رابحة ولكنها أخذت فى الضعف
والانحطاط منذ تمت السكة الحديدية بين حماه ورياق ويقال ان
الواردات من الأقطان والمصنوعات قد بلغت نحو عشرة ملايين
وسبعمائة ألف فرنك؟ وان الصادرات من الغلال والصوف والحرير
والصابون والاسفنج بلغ تقريبا من سبعة ملايين ومائة ألف فرنك.
وأهم ما فيها من الصناعات صناعة الحرير التى اشتهرت منها جدا المناطق
الحريرية وكذلك صناعة الصابون حتى ان الباعة يروجون بضاعتهم
من هذين الصنفين بنسبتها الى طرابلس. أما ضواحيها فخصبة التربة
جيدة المعدن وفيها كثير من شجر الزيتون والبرتقال والليمون وشجر
التوت وهو أكثر من كل المغروسات لتربية دود الحرير؟ وفيها أيضا
تزرع الدخان الذى لاتزال زراعته تتقدم شيأ فشيأ

تاريخ طرابلس

لم يعلم الى الآن ماهو الاسم القديم الذى كان يطلقه الفينيقيون على مدينة طرابلس وقال بعض المؤرخين انه يغلب على الظن أن بناء هذه المدينة لايتجاوز سبعمائة سنة قبل الميلاد، وهى باعتبارها مدينة من مدن الجمهورية الفينيقية لم يظهر عليها أنها كانت شغلت مركزا مهما فى تاريخ تلك الجمهورية، ويقال انها بنيت فى ذلك الوقت على شاطئ البحر وقد بنى فيها الأشوريون والرومانيون، بعد ذلك، مبانى نخمة تكون منها اذ ذاك جمال المدينة وحسنها. ولكن الزلازل التى توالت عليها خربتها ولم تبق شيئا يذكر من آثار تلك العمائر الجميلة. وقد فتحها المسلمون بدون مقاومة منها مطلقا، ثم توالت عليها حوادث الحروب الصليبية وغيرها كما تعاقبت عليها مصائب طبيعية كثيرة وهى تتألف كما قلنا من قسمين قسم الميناء البحرية، وقسم المدينة الداخلية التى بناها المسلمون وازدادت عمارتها وكثر عدد سكانها فى القرن السادس عشر، وقد اشتهرت طرابلس فيما بين الناس بأنها مدينة غير صحية بسبب ما يظهر فيها من الحميات مع أن هذه الأمراض لاتظهر هناك الا قبيل فصل الخريف وهى مع ذلك قليلة الخطر جدا، وتسمى هذه المدينة عند أهلها بدمشق الصغرى وشوارعها مرصوفة ومرصوصة بالحجارة، وعليها

أقبيـة وعقود يذكر منظرها بالقرون الوسطى، وفيها سوق للحرير الذى يصنع بها، وعدد كبير من الخـانات، وأجملها كلها خان الصاغة وأحسن موضع يرى منه الناظر جمـال طرابلس فى مجموعه هو القصر الحصين المبنى على الجبل المقـابل لها. ويقال ان الذى شـيد هذا القصر هو الكنت ريموند ديسانجيل، ويسمى عند المسلمين الى الآن ساندجيل ويوجد خارج المدينة غابة من أشجار الفاكهة عظيمة المساحة جميلة المنظر. أما المدينة البحرية فانها قائمة على لسان داخل فى البحر تحيط بها عدة أبراج قديمة، وعدد سكانها يبلغ خمسة آلاف نفس تقريبـا وهذا العدد محسوب من جملة العدد المتقدم . هذا وقد قدرنا المسافة من طرابلس الى ميناء بيروت بنحو أربع ساعات قضيناها كلها والحمدلله فى راحة تامة وسرور عظيم، لأن سير السفينة فى طول هذا السفر كان قريبا من الشاطئ، وناهيك بمنظر الطبيعة البديع الذى كنا نشاهده على الساحل من شاطئ البحر الى جبال لبنان فقد كان من أحسن ما اتفق أن يراه الانسان فى بلاد الجمال

الوصول الى بيروت

وصلنا الى بيروت حيث كانت الساعة ستا ونصفا بعد الظهر تقريبا فوجدنا فى استقبالنا على المرفأ حضرات أصحاب السـعادة والفضيلة

رجال الحكومة يتقدمهم دولة الوالى ثم العلمـاء والرؤساء الروحيون فالاعيان والوجهاء وبالجملة فان الاحتفال كان بالغا حدّ الأبهة والوقار لاينقص عمَّا فى المرة الأولى ان لم يكن قد زاد أمرا معنويا هو ما كان يدور بين القلوب من المحبـة والاخلاص، وبعد أن تبادلنا السـلام والتحية ركبنا قاصدين الى الفندق الذى كنا نزلنا فيه أوّل مرة، ولم يمض علينا الا قليل من الزمن حتى توافد الينا جميع الذين كانوا ينتظروننـا على مرسى السفينة فاستقبلناهم شاكرين لهم ما أبدوه نحونا من العناية واللطف، وكان فى ضمنهم وفد من التلاميذ المصريين فى كلية الأمريكان جاؤا ليتعرفوا منَّا الوقت الذى نحدده لزيارة مدرستهم، وقد وعدتهـم بذلك فى صباح اليوم الثانى ان شاء الله

وكيل البـطريك

وكان قد جاءنا على أثر نزولنا فى الفندق أيضا جناب وكيل غبطة بطريك الطوائف المـارونية يحمل الينا سـلام غبطته ويدعونا عن لسانه الى زيارته فى بيته الذى فى الجبل حيث هو لم يستطع الخروج منه وقد بلغنى أنه يميل كثيرا الى الاسرة الخديوية لمـا يعرفه من رعايتهـم لأبناء الشام، وما يبلغه من حسن معاملة الحكومة الخديوية لهذا الشعب ومن ثم كان غبطة البطريك يودّ من صميم قلبه أن نعده

بزيارته كيما يستعدّ بعمل زينة باهرة واحتفال نخيم حتى قال محدثنا فى هذا الشأن انه قد صمم على أن يبالغ فى تكوين الزينة ورونقها الى مالم يسبق له نظير لسوانا من كل زائريه وضيوفه ولقد كنت أحب كثيرا أن ألبي دعوة هذا الرئيس الدينى الكبير وأصعد لزيارته فى الجبل غير أنه مع مزيد الأسف كانت مدة اقامتنا لاتسمح بهذه الزيارة ولذلك قلت لجناب الوكيل مايتضمن هذا العذر ووعدته أن أستبدل من زيارة غبطة البطريك زيارة مدرستهم فشكر لنا ذلك وانصرف مشيعا بما يليق به من الاحترام محملا منا الى رئيسه الكريم عاطر التحية والسلام، وعلى ذلك انقضت سحابة هذا اليوم

زيارة المــــدارس

ولما أن أصبح الصباح ذهبنا الى زيارة المدارس التى كنا بيتنا النية على مشارفتها، فابتدأنا بزيارة المدرسة الاهلية وحين وصلنا اليها وجدنا فى استقبالنا عند مدخلها جناب ناظرها الفاضل وهو رجل هندى الجنس غاية فى الأدب والنشاط فسلمنا عليه ورحب بنا وكان يعجبنى منه زيادة عن كل شئ احتفاظه بدينه وتمسكه به تمسكا شديدا ثم انه عرض علينا ما كانت تشتمل عليه المدرسة من الأعمال والأدوات بعد أن طاف بنا على جميع مداخلها وغرفها وعرض علينا أيضا بعض

التلاميذ ممن كانوا لا يزيد عمر الواحد منهم عن أربع سنوات وامتحنهم أمامنا فيما كانوا يتدارسونه من المسائل والمواضيع المختلفة، فسررنا غاية السرور من نتيجة التعليم وآداب التلاميذ، وشكرنا ذلك الاستاذ الناظر الذى يرجع اليه الفضل فى بلوغ هؤلاء الاحداث الى مثل هذه النتيجة المحمودة. ومن هناك قصدنا توا الى زيارة الكلية الامريكانية

كلية الامريكان

وكانت هذه الكلية من ضخامة العمارة وسعة المساحة وجمال الموضع والبناء بحيث تنطبق تمام الانطباق على شهرة الامريكان وما يعرف لهم من الغنى الواسع والثروة الطائلة، على أنه قيل لنا ان تلك الكلية لم تقف حتى الآن عند حدّ محدود سواء من كثرة البساتين أو من الاقسام والعمائر، بل هى لا تزال تزداد فى كل سنة زيادة محسوسة بفضل ولاة الامر فيها وتواصل عنايتهم بها. وعند ما نزلنا من مركباتنا وجدنا على مدخل المدرسة جناب رئيسها المحترم الذى كان قد خرج الى هذا المكان ليستقبلنا عنده، وقد اصطف بجانبه التلاميذ المصريون فاستقبلونا جميعا بالحفاوة والاحترام، ثم ما كدنا نخطو أول خطوة من الباب حتى خاطبنا ذلك الرئيس بعبارات تدل على كرم أخلاقه ووداعة نفسه فقال انى أتشرف كثيرا بزيارة دولتكم هذه كما يتشرف تلاميذ المدرسة

عموما خصوصا التلاميذ المصريين، وقبل أن تتفضلوا بزيارة المدرسة أستميحكم العفو فيما أريد أن أتشرف بابلاغه الى دولتكم وإنباهكم اليه . فقلنا له نحن مستعدون أن نفهم من جنابك ما تريد فقال أتشرف بتفهيم دولتكم أنه قد جرت العادة فى زيارة هذه الكلية بأن الزائر لابد أن يبدأ قبل كل شئ بزيارة المعبد حيث تقام فيه الصلاة كما أنه من الضرورى أن الزائر لا يبرح يشهد تلك الصلاة ويسمعها حتى تنتهى لذلك أرجو دولتكم أن تتفضلوا بحضور الصلاة فى المعبد وفاق العادة فقلت له ياجناب الرئيس انى وان كنت امرأ مسلما محتفظا بدينى متمسكا به دائما ومُحِبًّا له جدا غير أنى مع هذا نشأت منذ صغرى على حرية الضمير واطلاق الفكر ولست أذكر فى كل عمرى الذى عشته أنى خضعت لشئ حيث كان الا بعد أن أتبين أنه حق صحيح، هذا هو مبدئى مادام يوافق دينى لذلك ترانى لا أبالى أن أزور بيع النصارى وصوامعهم وأجتمع بقسسهم ورهبانهم، كما لا أخشى أيضا أن أشاهد عبادتهم وصلاتهم، بل قد طالما دخلت المعابد والكنائس فى بلاد أوروبا عند ما كانت تقام فيها الحفلات الكبيرة لتتويج القياصرة والملوك وعند غير ذلك أيضا وقد زرت الفاتيكان فى رومه ومواضع كثيرة من هذا القبيل وأصحابى من النصارى وغير النصارى كثيرون

جدا وماذا عليّ لو أزور المعابد وأحضر الدعاء وأنا معتقد ملء صدرى
أن دينى لايخالفنى على شئ من ذلك، بل ان استكناه الاشياء والوقوف
على حقائق الامور وماهياتهـــا مما يحث الدين الاسلامى عليه بلا نزاع
فلا تظن اذا يا جناب الرئيس أنى اذا لم أوافقـــك على ذلك الطلب
أكون متعصبا دينيا أو أنى أخشى شيئا آخر معاذ الله، ولكن اذا أردت
أن تفهم منى علة امتنـــاعى من دخول المعبد وحضور الصلاة فيه
فأنا أقول لجنابك، بما اعتدته من الصراحة، اننى اليوم فى بلاد شرقية ثم
أنا أمير مسلم شرقى أيضا ولا يتفق أن أكون كذلك وأن أجرى على
العوائد والتقاليد الغربية، وانه اذا صح أن الانسان يصبغ نفسه فى بعض
الاحيان صـــبغة غير صبغته ويجرى على غير مبدئه وعادته، فذلك انما
يكون عند ماتحيط به ظروف مخصوصـــة، وتقتضيه الى ذلك دواع
قوية لا يجد له منهـــا مفرا دون أن يفعل. أما والانسان له من الشئ
مندوحة وســـعة وسواء عنده أن يكون ذلك الشئ وأن لا يكون فانه
بالطبع فى حل من أن يختار لنفســـه ما يلائم فطرته ويتفق ومصلحته
فقال انى أوافق دولتكم على فكرتكم هذه وهى عندى سديدة صحيحة
لو أنه كان هناك عبادة وصلاة حقيقة أما وليس ثمت الا مجرد مقالة
عادية تتلى على مسمع من دولتكم فى ذلك المعبد فانى لاأرى فى تفضل

دولتكم باجابتى الى ملتمسى ما لعله يؤخذ عليكم أمام ضميركم أو أمام المسلمين ولاماعسا كم تنفرون منه وتكرهون حضوره. فقلت له ياجناب الرئيس انى قلت وما زلت أقول لجنابك لم يكن من عادتى أن أتكلف فعل ما لاأريده، وان اقامة الصلاة على هيئتها الحقيقية لم يكن هو المانع لى من تلبية مطلبك فانه سواء عندى أن تكون الصلاة حقيقية أو صورية أو أن لا تكون صلاة أصلا وانما يمنعنى من ذلك أولا أنه ليس لى فائدة من زيارة معبد قد زرت كثيرا مثله فى أوروبا وغيرها ؛ كما أنه لامعنى لأن أحضر حفلة صلاة كثيرا ماشهدتها ورأيتها، وثانيا ما أنبهتك اليه من أنه لامعنى لأن أميرا مسلما شرقيا فى بلاد اسلامية شرقية وفى ضيافة وحماية المسلمين الشرقيين وهومنهم بالنظر الذى لايستوى فيه كل الناس، ثم هو ينسلخ عن تقاليده وعوائده وربما تساهل بعض الشئ فى دينه كل ذلك هو يفعله لغير سبب الا مجرد الخضوع للعادة فى زيارة كلية. أما أنا فلست ممن يقدّس العادة أو يخضع لحكمها كائنة ما كانت فلتكن هذه عادتكم فى مدرستكم أما أنا فمخير فى أنى لا أزور الا ما أشاء، فانظر يا جناب الرئيس بعد ذلك ماذا أنت صانع. أما هو فلما يئس ولم يجد بعد الجهد والاحتيال الا اباء شديدا رجع عن فكرته مقتنعا بما قلناه ثم ذهب الى المعبد وترك

معنا أربعة من التلاميذ المصريين ليرشدونا الى مكتبة المدرسة ريثما يؤدى رئيس الكلية صلاته فذهبنا ومعنا أولئك الطلبة الى دار الكتب الخصيصة بتلك الكلية فاطلعنا عليها وكان التلاميذ يرشدوننا الى ما كانت تحويه تلك المكتبة النفيسة ومنها ذهبنا الى المتحف الذى توجد فيه مجموعة كبيرة من حيوانات محنطة مختلفة أنواعها فاطلعنا عليها وقضينا منها مأربنا ثم توجهنا الى معمل الكيمياء والطبيعة والى جملة معامل أخرى فزرناها وكنا فى غاية السرور بما كنا نجده من أدب التلاميذ ولطفهم، وبينما نحن نسير بين تلك المعامل اذ حضر الينا جناب الرئيس وراودنا الى زيارة المدرسة فمررنا من الطريق المؤدى اليها أولا بحديقة متسقة فسيحة وشاهدنا فى خلال ذلك الطريق دوائر كثيرة وغرفا للتلاميذ حتى انتهينا الى قاعة واسعة كانت هى التى أعدت لاستقبالنا وكان فيما تشتمل عليه تلك القاعة صورة سمو الجناب العالى الخديوى مكبرة محفوفة باطار كبير جميل وكراسى متعددة، وهناك كان ينتظرنا جناب قنصل أمريكا وعدد عديد من أساتذة الكلية ومعهم نساؤهم فرحبوا جميعا بمقدمنا واستقبلونا بكل حفاوة واحترام وبعد أن تبادلنا التحية واستقرت بنا مجالسنا قام جناب ناظر المدرسة وتلا على مسامع الموجودين خطابا رشيق العبارة استهله بالكلام على فضل مصر

والمصريين ثم امتدح الاسرة الخديوية بأعمالها الجليلة فى تاريخها الغابر والحاضر وبعد ذلك رحّب بنا وأهّل شاكرا لنا زيارتنا لمدرستهم وما أوشك أن يفرغ من مقالته حتى قام أحد التلاميذ المصريين بالنيابة عن جميع اخوانه فى تلك الكلية وخطب أيضا خطبة جميلة كانت لا تخرج عن نفس الموضوع وقد أعقبها بقصيدة ظريفة وهى :

فى مثل ذا اليوم العظيم ❁ تهتز بالفخر النفوس
ولمثل ذا الضيف الكريم ❁ بجلة تحنى الرءوس
بك يا محمد قد زها ❁ صرح به تجنى العلوم
بلقاك نلنا المشتهى ❁ يا حبذا شرف القدوم
يا فرع عائلة سمت ❁ فى المجد بين العائلات
وبعهدها مصر نمت ❁ فتجددت فيها الحياة
ما الزهر فى فصل الربيع ❁ أذكى وأعطر من شذاك
مالونه الزاهى البديع ❁ أبهى رواء من سناك
لسمو عباس الامير ❁ بقلوبنا أسمى مكان
ندعو الى المولى القدير ❁ بدوامه طول الزمان
نحن الذين على الوطن ❁ وقفوا النفوس الغاليه
ولأجله من كل فن ❁ نجنى الدروس العاليه

قد كان فى ماضى العصور ۞ نبع التمدن والفنون
وبفضل عباس الغيور ۞ اليوم يوشك أن يكون
وطن لنا أبدا يسود ۞ بقوى المعارف لا القراع
عنه اذا قمنا نذود ۞ فسلاحنا هذا اليراع
يامن أتانا زائرا ۞ متفقدا منا الشؤون
سيظل كل ذاكرا ۞ للفضل ماانقضت السنون
أوليتنا نعما على ۞ نعم بتشريف المقام
لجميعنا نهدى الى ۞ علياك شكرا والسلام

هذا وقد قدم لنا صورة هذه القصيدة مكتوبة بخط جميل عليها امضاؤه وامضاء كاتبها فشكرناه وكانت الموسيقى اذ ذاك تعزف بالسلام الخديوى وحينئذ نهض حضرات المحتفلين عن آخرهم يدعون لعزيز مصر بتأييد عرشه وحفظ ذاته الكريم. فما وسعنى عند ذلك سوى أن قمت وابتدأت خطابى له بشكر من كان حاضرا من الأمريكان وغيرهم، وبعدئذ تكلمت باختصار على روابط المودة الوثيقة بين الشعب الامريكى والشعب المصرى، وبينت ما كان للشعب الاول من الثبات والاخلاص فى أعماله وذكرت على الخصوص نفرا من الضباط الذين كانوا قد انتظموا فى سلك الجيش المصرى وأبنت لهم صادق

خدماتهم التى لاتزال حتى اليوم تتردد على ألسنة المصريين مشفوعة بالشكر العاطر والثناء الجميل وما كدت أجلس حتى دوى المكان دوى النحل بعبارات الامتنان والاستحسان ، وعلى أثر ذلك قدمت لنا صحاف الحلوى وفناجيل الشاى فتناولنا منها ماطاب لنا وشكرناهم ثم قمنا مودّعين من حضراتهم جميعا بغاية الاجلال والتعظيم • ومن هناك عدنا توا الى الفندق وبعد أن تناولنا طعام الغداء ركبنا سيارة ومعنا حضرة الامثل سليم بك ثابت حيث قصدنا الى التنزه فى جهات الضواحى ، وكان سيرنا فى هذه المركبة السريعة على شاطئ البحر من شمال بيروت ، بين المناظر الطبيعية الجميلة حتى وصلنا الى بلدة تسمى سوق مصباح ومنها عدنا فى نفس الطريق الى الفندق حين لم يبق من الوقت الا ريثما يسعنا للعشاء والنوم وعند الصباح توجهنا الى زيارة معمل الخواجه خورى السيوفى ، وهو معمل كبير للمصنوعات الخشبية وحركاته الصناعية تجرى كلها بواسطة الادوات والآلات التى تختلف على حسب اختلاف أدوار العمل واجزائه ، وهناك شاهدنا من العمال مهارة فائقة ونشاطا عجيبا ولهم دقة غريبة فى الصناعة خصوصا صناعة الدواليب التى كانت لاتقل فى نظرنا عن الدواليب التى تصنع فى أهم فبريقات أوربا وأشهر معاملها . وبالجملة فان هذا المصنع كان حافلا بالعدد المتينة

والآلات المكينة التى تلزم لصناعة الخشب بجميع أنواعه من المبدإ إلى المنتهى على نحو مايتصوره زائر المصانع فى البلاد الغربية ، وقد طفنا فى هذا المعمل على كل ما كان يدور فيه من العمل وسررنا جدا من تلك النهضة العملية الشريفة التى تبشر بحسن مستقبل الصناعة فى بلاد الشام ، وتعدّ خطوة واسعة فى طريق الحضارة الشرقية ، واذ ذاك امتدحنا مؤسس هذا العمل المفيد الذى كان أكبر مشجع لتلك الصناعة البديعة فى بلاد الشرق حتى أصبحنا نرى فى مثل بيروت مصنوعات مهمة تضارع مصنوعات الغربيين فى أعظم مصانعهم ، ولابد على طول الزمان أن تنشأ المعامل لمثل هذه الصناعة وغيرها فى كثير من حواضر البلاد الشامية وحينئذ يتوفر للبلاد شئ كثير من ثروتها يتبادل بين أهاليها و يصرف منها فيها وذلك هو الاساس الاول الذى عليه يبنى استقلال البلاد وترتكز سعادتها، وانه بقدر ما كان سرنى أن أرى تلك الحركة العظيمة والنهضة السامية من أبناء سورية لقد ساءنى أنى لم أجد مثل ذلك لاحد أبناء مصر وفيهم الاغنياء المثرون والعقلاء المفكرون ، وقد أخبرنى جناب الخواجه خورى بأن لأخيه تجارة واسعة فى مصر تصدر اليه من بيروت وهى اذا كانت من الاتقان بالدرجة التى شاهدناها لا جرم كانت قمنة بأن تحرز ثقة

المصريين وتروج فى أسواقهم رواجا عظيما. ولما أن قضينا مآربنا من رؤية مافى المعمل واطلعنا على جميع أدواته وتعهدنا دوائره ومصنوعاته شكرنا للرئيس همته ونشاطه وشجعناه وحينئذ دق الجرس فوقفت حركة العمل فى كل جهة من جهات المعمل وجاء العمال عن بكرة أبيهم وأحاطوا بنا احاطة الثوب بالبدن وكان يبلغ عددهم ٣٠٠ نفس تقريبا ثم تقدم نحوى أصغرهم وقدم باقة زهر وجاء آخر وأخذ يهتف لنا بالدعاء بعد الترحيب والثناء وعلى أثر ذلك قدم لنا الشاى والحلوى فتناولنا منهما ماوافقنا ثم خرجنا وكان ينتظرنا فى غضون الطريق مصوّرون معهم آلة التصوير (الفوتوغراف) فأخذوا رسمنا حال مرورنا ثم توجهنا الى الفندق لنتهيأ من هناك للذهاب الى مدينة صيدا حيث كنا دعينا لتناول الغداء فيها من قبل صاحب السعادة نسيم بك جنبلاط أحد أمراء الدروز وعظمائهم

صيدا

مدينة صيدا الحالية وهى سيدوم القديمة قائمة على هضبة وهى من هذا تشبه جميع المدن الفينيقية. ثم هى محاطة بحدائق غناء تمتد على طول الشاطئ خصوصا فى الجهة الشمالية وأكثر ما فيها من الاغراس أشجار البرتقال والليمون والخوخ واللوز والموز والنجيل

ولكن يقال ان هذا الأخير أقل من غيره .أما عدد سكان المدينة فيقال انه يبلغ نحو ١١ ألف وخمسمائة نسمة منهم ٨ آلاف مسلمون و ٢٥٠٠ من اللاتين و ٨٠٠ من اليهود و ٢٠٠ من المذهب البروتستانتى . وهى مركز قضاء باسمها وفيها اسقفان للروم الارثذكس وأسقف للمارونيين وفيها مدارس اسلامية بعضها للبنين وبعضها للبنات ومدرسة للاسرائيلين تسمى مدرسة الاتحاد الاسرائيلى كما أن فيها للبعثة الانجليزية مدرستين احداهما للذكور والاخرى للاناث وللاتين دير لجمعية الفرنسيسكان وكنيسة ومدرسة للبنين ولراهبات القديس يوسف مدرسة وملجأ للايتام وللجزويت بعثة تبشير وكنيسة وعدة مدارس .وكذلك يوجد فيها للمارون وللروم الاتحاديين وللروم الارتذكس كنائس ومدارس خاصة .أما تجارتها وهى تدور فى الغالب على محاصيلها ومصنوعاتها فقد تقدمت فى السنين الأخيرة خصوصا فى تصدير الليمون والبرتقال فانه يقال انها تصدر من هذين الصنفين الى الخارج أكثر مما تصدره من الاصناف الاخرى

تاريخ المدينة

ذكر الشاعر المشهور هوميروس فى بعض قصائده تلك المدينة بنوع خاص مسماة باسمها القديم سيدوم وأسهب فى الكلام عليها من جهة

صناعتها ومهارة صناعها، وعلى ماأمتازت به عن بلاد الشام وغيرها من صناعة النحاس وكثرة معادنه حتى سمى أهلها (السيدوميون النابغون فى الصناعة) ومع أن هذه المدينة افتتحت عدّة مستعمرات منذ عهد قديم جدا حتى قيل ان ذلك كان قبل قرطاجنة القديمة، فان مدينة صور تقدمت عليها فى هذا السبيل حتى قيل انها لم تدع نفس تلك المدينة تخرج من تحت سلطتها أيضا، وان كانت صيدا مع هذا مازالت حافظة لاستقلالها، وقد اشتهر الصيدانيون بالعلوم الرياضية والفلكية والملاحة الليلية، وعلى الرغم من أن هذه المدينة كانت فى بعض الازمنة تابعة لبعض الممالك الآسيويه، فان ذلك لم يؤثر أقل تأثير فى تجارتها التى كانت ولا تزال الى اليوم نامية زاهرة، وفى سنة ٣٥١ قبل الميلاد ثارت هذه المدينة ضد ملك العجم (ارتجزرسيس) الثالث فهدمها سنة ٣٥٨ وافتتحها بعد ذلك اليونانيون بدون مقاومة، ولكنها عادت فحافظت على شئ من استقلالها فى عهد الرومانيين . فكان فيها مجلس قضاء يتألف من تسعة أعضاء كانوا فى أول الامر ينتخبون مدّة حياتهم ثم عدلوا الانتخاب فجعلوا مدته عشر سنين فقط . وكان لها أيضا مجلس شيوخ ومجلس نواب . ويظهر أن المسيحية هاجمتها مبكرة جدا ولا يبعد أن تكون قد دخلت فيها أول عهدها

وقد انتدبت عنها أسقفا حضر مجمع نيسيه وهى مدينة فى آسيا الوسطى وذلك كان سنة ٣٢٥ بعد الميلاد، وفى هذا المجمع وضعت أصول الديانة المسيحية والتأم شمل عقائدها بعد الشتات ، وبعدئذ جاء الفتح الاسلامى فافتتحها المسلمون دون أن يجدوا أدنى مقاومة منها وقد توالت عليها مصائب جمة منذ عهد الحروب الصليبية ففى سنة ١١٠٧ حاصرها الصليبيون حصارا ضايقها فلم تستخلص منه الا بعد أن اشترت نفسها بمبلغ من المال وكان قد تم على ذلك الصلح بين أهلها وبين المحاصرين الا أن عدم وفائها بشروط الصلح اضطر الملك بدوين الاول أن يفتتحها عنوة سنة ١١١١ ، وما زالت كذلك حتى افتتحها السلطان صلاح الدين الايوبى سنة ١١٨٧ وهدم جميع حصونها، الا أن مدتها فى هذا الدور كانت قصيرة لأن الصليبيين عادوا فأخذوها سنة ١١٩٧ ، وفى نفس هذه السنة كرّ عليها الملك العادل فأخذها عنوة ثم هدمها وخرب ديارها ، وفى سنة ١٢٢٨ أعاد الفرنج بناءها وعمروها وما زالت كذلك الى أن جاءت سنة ١٢٤٩ فهدمها السلطان أيوب ولكن الملك القديس لويس عمد الى اعادة بنائها وتحصينها فى سنة ١٢٥٣ ، ثم لم يمض عليها وهى كذلك الا سبع سنين وجاء تيار المغول القوى بجرفها فى سنة ١٢٦٠ ، وبعد ذلك

بمدّة ٣١ سنة أى فى سنة ١٢٩١ افتتحها السلطان الاشرف ومن ذلك الحين الى الآن وهى تحت سلطة المسلمين . وقد ابتدأ تقدمها فى القرن السابع عشر من وقت ما كان اتخذها فخر الدين أمير الدروز عاصمة له، لأنه فتح أبوابها فى وجوه الأوربيين فزهت اذ ذاك تجارتها واتسعت عمارتها، وبنى فيها ذلك الأمير قصرا جميلا لنفسه . وفى سنة ١٨٤٠ قصدتها أساطيل الدول المتحدة فهدمت قلعتها، هذا ولا يزال فى تاريخ البلد ووصفها كلام كثير الا أن المهم ما ذكرناه . ولذلك نكتفى به ونعود الى ما كنا بصدده

السفر الى صيدا

ركبنا مركبة سياره (أتوموبيل) من باب الفندق وذهبنا متجهين نحو ذلك البلد فى طريق كان يمتد معظمه على شاطئ البحر، وكانت هذه أول مرة مررنا فيها من تلك السكة التى وجدناها مثل أكثر سكك الضواحى فى بلاد الشام اذ كانت مغروسة على الجانبين بالزروع والاشجار، وكنا نشاهد أثناء السير شجر التوت يمتاز بالكثرة عن كل الشجر وقد قدمنا أن سبب ذلك هو أن ثروة أكثر المدن والقرى فى تلك الجهات معظمها من محصول الحرير الذى يتغذى دوده من ورق التوت، فهم لأجل ذلك يكثرون من زراعته فى البساتين وفى الطرق

أيضا . ويقال ان صـيدا ازدادت ثروتها كثيرا بسبب اتجارها بالحرير ومنسـوجاته وحينما كنا على مسافة قريبة من البـلد ألفينا فى انتظارنا سعادة نسيم بك جنبلاط ومعه عدّة رجال من مسـتخدمى الحكومة وثلة من عساكر الجنـدرمة فاستقبلونا بغاية الحفاوة ثم ساروا بنا الى هضبة تبعد عن البلد قليلا حيث على تلك الهضبة تقوم دار سعادة البك التى وجدنا على مدخلها حين وصلنا اليها أنجال سعادته واقفين ينتظروننا فرحبوا بمقدمنا واسـتقبلونا بمـا دل على تهذيب نفوسهم وحسن تربيتهم ثم دخلنا الى ردهة الاسـتقبال وما كدت أستقر فيها حتى ذهبت منى نظرة الى الحائط فرأيت على دائره صور جميع أفراد الاسرة العـلوية من الجدّ الاكبر الى الحضرة الفخيمة الخـديوية ، وكانت تلك الرسوم البـديعة متقنة الى درجة أنها تكاد تمثل أشخاص المرسومين لأنها على اتقانها العجيب كانت مكبرة وملونة بالزيت فانشرح صدرى من رؤية هذه المجموعة أيما انشراح وحينئذ أظهرت لاصحاب البيت سرورى وجذلى من ذلك العمل الذى كنت أستشف منـه اخلاص أسرة جنبلاط الكريمة نحو البيت العـلوى القـديم ، ثم انى ما كدت أبدى عجبى واسـتغرابى من أنى أرى رسم الاسرة الخديوية كلها على حائط هذا البيت وهو قائم على تل من تلول الشام حتى كان

قد أدرك ذلك منا سعادة الامير نسيم بك وقال لنا على الفور لا تعجبوا دولتكم أن تجدوا أمام أعينكم الآن صور أسرتكم الفخيمة، فما هو الا بعض الواجب تؤديه لكم أسرة شامية كانت ولا تزال تستمد عزها وقوتها من بيتكم الكريم وعرشكم الفخيم منذ عهد المرحوم ابراهيم باشا جدكم العظيم، فلا يستكبر مولاى أن ينظر حائط بيتى هذا محلى ومزينا برسوم حكام مصر وأمرائها الفخام وانى لست الا أثرا من آثار احسانهم وغرسا من غراس نعمتهم وكذلك كان والدى من قبلى لأن جدكم المرحوم ابراهيم باشا هو الذى أسس مجد بيتنا وشاده ورفع قواعده وعماده منذ تفضل فولى والدنا امارة الدروز واذ ذاك كان فى يد البك ورقة فناولنا اياها، وقال وذلك هو الفرمان العالى الذى صدر من المغفور له جدكم الى والدنا عندما ولى هذا المنصب الكبير، فمثل هذا الاحسان يامولاى يجعل آل جنبلاط كلهم أسرى لذلك البيت العظيم شاكرين لأنعمكم مادامت أنفاس الحياة تتردد فى صدورهم . فشكرت لهذا الامير شعوره واخلاصه . وبعد ذلك بقليل دعينا الى غرفة الطعام فأكلنا من طعامهم الشرقى الشهى ألوانا كثيرة ثم خرجنا من تلك الغرفة الى ردهة جميلة الموضع كانت تطل على البحر من ناحية، وتشرف على صيدا من ناحية أخرى وكان معنا بعض أعيان

المدينة وقد أظهروا لى شدّة ميلهم فى أن أزور بلدهم وأتطوف على آثارها وعلى بيوت الكبراء فيها فشكرت لهم حفاوتهم وعنايتهم معتذرا اليهم بضيق الزمن ثم ودّعناهم وشـكرنا لحضرة البـك أمير الدروز وأنجاله أدبهم وكرمهم .

الى بـــيروت

ومن هنالك ركبنا السـيارة حيث كانت الساعة اثنتين بعـد الظهر عائدين مدينة بيروت التى لم نلبث أن نقيم فيها الا قليلا ثم قصدنا الى زيارة مدرسة المارونيين وهى تلك المدرسة التى كنا استبدلنا بها زيارة غبطة البطريك

المدرســة المـارونية

وصلنـا اليها وعنـد ذلك وجدنا فى انتظارنا على بابها جناب وكيل البطريك وعددا كبـيرا من حضرات القسس فسلمنا عليها ورأينا من استقبالهم لنا وترحيبهم بنا ما أنطق لساننا بشكرهم ثم دخلنا الى المدرسة بينما كانت الموسيقى المدرسية تصدح بالسلام الخديوى وكان التلاميذ جميعا مصفوفين صفوفا منتظمة وكلهم يترنمون بالاناشيد والادوار التى كانت تتضمن الدعاء للحضرة الفخيمة الخـديوية فمررنا على صفوفهم

يحيوننا ونحييهم الى أن دخلوا بنا فى قاعة واسعة جميلة كانوا أعدّوها لاستقبالنا و زخرفوها ووضعوا فيها كراسى متعددة وجعلوا فى صدرها كرسيا خاصا ممتازا فأجلسونى عليه وجلس على يمينى حضرات وكيل البطريك وكبار القسيسين والرهبان ولما أن استقربنا المجلس قام قسيس من هؤلاء وألقى خطبة باللغة العربية ضمنها أوّلا مدح مصر وذكر فضائلها ومدح الاسرة الحاكمة الخديوية ثم تكلم على مناقب المغفور له محمد على باشا ومحاسنه فى الشرق وقد أفاض فى هذا الموضوع تمهيدا منه للرد على بعض شبان الأتراك الذى كان كتب مقالة ضافية فى احدى الجرائد جعل لحمتها وسداها الانتقاد على أسرة محمد على باشا واختصنا منها بجانب عظيم لاندرى ماذا كان سببه. فقال الخطيب ما ملخصه انه لاينكر أحد من الشرقيين والغربيين ما كان للامير الكبير المرحوم محمد على باشا من الاعمال الجليلة والفضائل الكثيرة التى نهضت بالشرق الى ماجعله مع الغرب فى مستوى واحد ولولاها لما كان يقوم الشرق من وهدته ويستيقظ من رقدته، وهى التى لاتزال تمر عليها الأزمان ويراها الناس آنا بعد آن وتترسل بها الانباء بين الآباء والأبناء الى أن قال مامفاده وانى لاأعجب من شئ فى الدنيا عجبى من واحد تكون الحقيقة واضحة أمامه يراها بعينه ويلمسها بيده

ومع ذلك ينـكرها وهو يحسب أن انكاره هـذا يؤثر فى تلك الحقيقة ويجعلها فى نظر الناس مثل ماهى فى نظره .

الشئ الثابت لا يضره فرض عدمه مطلقا ، ولكن الذى استطاع أن يخدع نفسـه ويفرض عدم الموجود أو وجود المعدوم ليعيش فى عالم الفروض والتقادير هو ذا حقيقة المسكين الذى مااستفاد من عمله سـوى أنه شوش دماغه وملأه خيالا باطـلا كالأروى الذى غرته قوته فحسب أنه اذا نطح الصخرة أوهنها ونفـذ بقرنه فى أحشائها ، فلما فعـل ونظر الى الحجر ليعلم هل نال منـه وأثر فيه نطحه لم يجد الا أن مجاهدته عادت عليـه بكسر قرنه بعد خفوق سعيه وخيبة ظنه .

كناطح صخـرة يوما ليوهنهـا ❁ فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

بينما الناس جذلون مسرورون بوجود سمو الامير الجليل محمد على باشا فى بلادهم ، واذا بشاب من أبناء الترك قام فى هذه الأيام وكتب فى احدى الجرائد مقالة ذم فيها رجل الشرق الوحيد مؤسس العائلة العلوية وأكبر فخر للمصريين وهذا عمل لا يوافقه عليه أحد من العقلاء وانه اذا كان أبناء الترك لا يريدون أن يعترفوا بجميـل محمد على باشا وفضله فان أبناء الشام لا ينسون ما كان لهـذا الامير الكبير من الاصـلاحات الهامة والمنافع العـامة التى عادت على الأمة فى كل

ما تستدعيه ضروورياتها وحاجياتها بالفوائد الكثيرة والثمرات الكبيرة أجل ان تاريخ مصر منذ عهده ينطق عليه بالفضل ويشهد له بالمهارة والنبل ويؤيد ماأتفق عليه المصريون والشاميون بل الشرقيون جميعا من أن هذا المصلح العظيم هو الذى طير المدنية الى مصر وهناك وضعها حيث عرف كيف يستفرخها وينتفع منها بما لاتزال تتدرج به البلاد فى طريق رقيها وسعادتها من يوم الى يوم حتى كانت قد بلغت فى ابان عهده من الحضارة والعمران الى ماصارت به وردة زاهية فى يد الشرق يتيه بها ويعجب حتى ان الغرب نفسه كان يحسد الشرق عليها وينظر اليها من بعيد وهو لايستطيع أن يشم لها ريحا . هذا كان خلاصة ماقاله الخطيب على مسمع منا ومن اخوانه أما أنا فلست أقدر أسفى من أنى أرى واحدا من أبناء المسلمين يهجو ويذم محمد على باشا وينكر فضله بينما المسيحيون لايزالون يقدرونه حق قدره ويعترفون له بالجميل ثم يقومون فى المحافل ويدافعون عنه وكان مثل هذا التركى المسلم أولى وأحق بالمدح والدفاع هذا . وقدكان فى ضمن ماتفوه به حضرات المحتفلين ذكر المارونيين المستخدمين فى مصر والمقيمين بها وبيان عناية الحكومة المصرية بهم خصوصا الجناب الخديوى وبعدما شكرناهم وأبدينا لهم سرورنا ذهبنا متجهين الى

الفندق وهناك تجهزنا للسفر ثم خرجنا فأدينا ما كان علينا من الزيارات حيث زرنا دولة الوالى ودولة متصرف لبنان وحضرة القومندان وقبل قيامنا من بيروت بلغتنا حادثة ازعجتنا وكدرت صفونا وهى خبر وفاة المأسوف عليه الخواجه سرسق فقد كان لهذا الخبر أشد تأثير فى أنفسنا بعدما أنه كان دعانا لتناول الطعام فى منزله وكنا أجبناه الى ذلك ولكننا مذ بلغنا نعيه عدلنا عن الذهاب لهذا الخصوص على الرغم من أن أسرته كانوا قد استعدوا بالفعل وقد ذهبنا لتعزيتهم وشكرهم على همتهم الكبيرة التى لم يكن ليمنع منها هذا الحادث وهو أشد ما يكون على نفوسهم ثم توجهنا الى الباخرة الفرنساوية بعد الظهر مودّعين من حكام المدينة وأعيانها ومظاهرها بما كان لا يقل فى الرسميات عن الاستقبال

خاتمة

فى هذه الخاتمة نذكر لحضرات القراء قانون جمعية الاتحاد المصرى بالكلية الامريكية فى مدينة بيروت وفاء بسابق الوعد فى نشره وهو

المقدمة

دخلت جمعية الاتحاد المصرى هذه السنة طورا جديدا من حياتها وبلغت شأوا لم تبلغه فى السنين الماضية من النظام فى اجتماعاتها والدقة

فى أعمالها وقد قامت بعدّة مشاريع مفيدة منهاهذا الكتيب وهو يحتوى على ماينبغى للاعضاء معرفته من قوانين الجمعية وأسماء موظفيهاوغير ذلك وقد صدّر برسم الحضرة الفخيمة الخديوية تيمنا بطلعته وقد اتفقت الجمعية مع أهم الصحف المصرية على ارسالها باسم الجمعيةلتوضع فى مكتبة الكلية ليطلع عليها كل مصرى ويقف على ماهوسائر فى بلاده

أسماء الموظفين

الرئيس	عبد الغفار افندى جمجوم
نائب الرئيس	انيس افندى ساويرس
السكرتير	أميل افندى زيدان
أمين الصندوق	بولس افندى علم

اللجنة الادارية

عبد الغفار افندى جمجوم . أنيس افندى ساويرس . أميل افندى زيدان . بولس افندى علم . محمد افندى أنور روحى . مصطفى افندى زكى . شعبان افندى مصطفى

قانون الجمعية

أولا ــ غاية الجمعية هى التعاون والتضامن بين أعضائها وترقية الافكار الادبية والعلمية بين طلبة الكلية المصريين

ثانيـا ـ لاتتعرض الجمعية مطلقا لقوانين المدرسـة ولا تتحزب لأى عقاب تصدره على أحد من المصريين

ثالثـا ـ تتكون الجمعية من أعضاء ورئيس ونائب رئيس وسكرتير وأمين صندوق ولجنة ادارية تقوم بأعمال الجمعية

رابعـا ـ تتكون اللجنة الادارية من رئيس الجمعية ونائبه والسكرتير وأمين الصندوق وثلاثة أعضاء ينتخبون

خامسا ـ اللجنة الادارية يمكن اجتماعها كلما مست الحاجة بطلب من الرئيس أو بأغلبية أصوات أعضائها

سادسا ـ الاستدعاآت للانتخاب يشـترط أن لاتصدر الا من تلاميذ الدوائر العليا

سابعـا ـ يشترط أن يكون الرئيس والنائب من الدوائر العليا

ثامنـا ـ يجدّد انتخاب الموظفين فى كل سنة مدرسية

تاسـعا ـ تلتئم الجمعيـــة مرتيـــن فى أول وثالث خميس من كل شهر

عاشرا ـ لايسمح لأحد بالتكلم فى مسألة أكثر من مرتين

حادى عشر ـ على كل عضو أن يدفع خمسة بشالك رسوم عضويته على دفعتين الاولى فى أول السنة المدرسية والاخرى فى منتصفها

ثانى عشر – تصرف المصاريف المتحصلة فيما يفيد الجمعية بقرار منها فى جلسة رسمية

ثالث عشر – على أمين الصندوق أن يقدّم تقريرا شهريا للجمعية بالوارد والمنصرف

رابع عشر – فى آخر خميس من شهر مايو تجتمع الجمعية لجلستها الاخيرة وتكون تلك الجلسة قاصرة على انتخاب رئيس ونائب رئيس وسكرتير وأمين صندوق للسنة المدرسية التالية ثم تعين لجنة برآسة الرئيس لمقابلة الطلبة الجدد ومساعدتهم مع اعلان ذلك فى الجرائد المصرية ان أمكن

خامس عشر – كل من يخالف بندا من هذا القانون يرفت من الجمعية فى جلسة رسمية ولا يكون له أىّ حق فى استرداد ما دفعه للجمعية الى هنا

وقد انتهت رحلتنا الشامية وعدنا بسلامة الله الى الديار المصرية وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

تكملة الرحلة الشامية

سبق أننا أشبعنا الكلام فيما يتعلق ببلاد سورية من جهات متعددة، فمن ذلك ما ذكرناه من خصوبة أراضيها وطيب مناظرها ونضرة بقاعها وحسن عمائرها الى غير ذلك مما له مساس بوجودها ومقوماتها والآن نريد أن نبدى للقراء بعض ملاحظاتنا على حالة تلك البلاد من الوجهة الاقتصادية والوجهة الاجتماعية لعلنا نصيب من قلوب السوريين مكان الناصح المجرب الذى يريد بذلك الشعب الكريم وبلاده العامرة دوام السعادة وعميم الخير والسلام، ذكرنا قبل الآن أن أراضى سورية فى غالب الجهات من الأراضى الزراعية الخصبة التى تغل جميع الأصناف الحبوبية وغيرها وريها سهل متوفر من الأمطار والانهار الكثيرة وكذلك الينابيع والعيون والجداول التى تتخلل تلك الأراضى الجيدة بكثرة بليغة ولا شك أن مناظر سورية الطبيعية التى يشاهدها المسافر بين حين وآخر قد فاقت كثيرا غيرها من المناظر الجميلة، ولست أجدنى مبالغا اذا قلت انها بلغت من البهجة والحسن مالا يدرك وصفه شاعر مهما اتسع خياله وانفسح مجاله. أما البلاد الشامية فى مجموعها فهى بلاد شرقية على معنى أنها لا تزال الى اليوم محافظة على القديم من كل تقاليدها وعوائدها فتجارتها

فى معظم البلاد تدور غالبا على منسوجاتها ومصنوعاتها ومحاصيلها الزراعية بمختلف أنواعها وأصنافها، ويسر الانسان أن يرى لهذه التجارة البلدية ربحا كبيرا ورواجا عظيما بين سكان المدن والضواحى لأن جميع الحاجيات متوفرة فى أسواق هذه البلاد وكلها والحمد لله من البضائع الشرقية الجميلة . وأما مايوجد من التجارات الأجنبية فى بعض المدن ويكون له رواج فيها بحكم مركزها الجغرافى فهو قليل فى جانب التجارات المحلية بنسبة محسوسة . أما أراضى هذه البلاد سواء الزراعية منها وغير الزراعية فانها لا تبرح حتى الآن فى أيدى الوطنيين يتبادلونها ملكا وانتفاعاً لاحظت ذلك فى أغلب الجهات التى شارفتها، وما علمت أن لأجنبى ملكا بين أملاكهم ولا ضيعة وسط ضياعهم كما يشاهد ذلك فى غير تلك البلاد خصوصا فى مصر وأما اللغة التى يجرى بها تخاطب القوم وتستعمل فى محاوراتهم فهى اللغة العربية التى لاتفتأ سائدة على جميع اللغات فى تلك البقاع، وان كنا لاحظنا أن لهجات الناس تختلف قليلا باختلاف الجهات فلهجة الدمشقيين كانت غير لهجة الحلبيين غير لهجة البعلبكيين بفرق غير كبير . وقد تقدم مثل هذا فى الرحلة مع مايفيد أن الخطاب بين السوريين والأجانب يحصل غالبا باللغة الفرنساوية . وأما عوائد

الناس وأخلاقهم وأزياؤهم فانها لم تختلف عن حالتها الفطرية الا قليلا فى بعض الجهات التى يكثر فيها وجود الأجانب كالشواطئ والمراسى التجارية الشهيرة، وبديهى أن الاختلاط الذى أساسه المعاملة والأخذ والرد يكون مدعاة الى تحول الطبائع وتغير الأخلاق، ان الارتياح الكبير الذى يدب فى نفس الراحل عند مايشاهد حالة تلك البلاد الحاضرة واحتفاظ أهلها بما كان عليه آباؤهم وأسلافهم من التقاليد والعوائد ينبه الانسان فى الوقت نفسه الى مايدخره المستقبل لهذه البلاد، فلا يلبث أن تساوره الأحزان وتواثبه الالام خوفا واشفاقا عليها أن تقع لا قدر الله فيما يعقب الحسرة والندامة لاشك أن الانقلاب العظيم الذى أدركناه ولا نزال ندركه كل يوم فى جزء كبير من الشرق ونتألم منه، خصوصا فى مصر بسبب كثرة الأجانب وانتشارهم فى عموم القرى والحواضر تقريبا، حتى أصبح معظم البلاد الشرقية يضاهى بلاد الغرب فى غالب الأحوال، هذا الانقلاب يبدل من طمأنينتنا قلقا ومن صبرنا جزعا ويجعلنا دائما فى خوف شديد على مثل بلاد سورية، وانه ليس الا هى وحدها البقية الباقية التى تذكرنا الى اليوم بتاريخ الشرق القديم بل ان الخطر الخطير الذى يتهدد تلك العوائد الأصلية والتقاليد الشرقية العتيقة مابين آن وآن هو أن يروق

التمدن الأوروبى فى عيون أهل هــذه البلاد فيفتحوا أبوابها فرحين به مرحبين بمقدمه، كما فعل غيرهم من قبــل. فقد شاهدنا أن التمدن الغربى مادخل جهة من الجهات الا وغير معالمها وبدل شؤونها وقضى على أخلاقها وعوائدها وتقاليـــدها. وأوّل ما ينال منها تغيير الملابس والأزياء التى يروجها الرخص ويسوّلها حب التقليـد المفطور عليه الانسان، هو يفرح حينما يشترى ثوبه رخيصا من البضاعة الأجنبية ويظل ثملا بنشوة الرخص غافلا عما يعتقبه من فشل تجارة بلده التى لاتلبث الا ريثما تروج البضاعة الخارجية ثم تتلاشى ويذبل عودها ثم يمحى أثرها من الوجود بالمرة، وفى ذلك من الخسارة العظمى مالا يخفى خصوصا عند مايصبح تجار البلد معطلين بعد العمل وفقراء بعد الغنى وأدهى من ذلك وأمرّ أن تفقد البــلاد أعظم ركن ترتكز عليه ثروتها واستقلالها، وكل ذلك فى نظير شئ تافه يظن المبتاع أن له منه وفرا وثراء، لا يفهم القارئ مما قدمناه أن مقصدنا هو أن تغلق البلاد الشرقية أبوابها فى وجه التجارة الغربية حتى لايدخل منها شئ فى تلك البلاد فانى أقدر بعض المصنوعات الأوربية وأعترف بحسنها ومنفعتها فى بلاد الشرق ولا انى أكره التمدن الغربى وأمقت دخوله فى أرض سورية أو غيرها من البلاد، كما ربما يفهمه تعبيرى السابق لأنى أعتقد

أن الحياة الراقية فى كل مكان انما هى معقودة بلواء ذلك التمدن وأفهم تماما أنه مامن عمل نراه مفيدا فى الحياة الاجتماعية الا وهو شعبة من شعب الحضارة الأوربية ونعت من نعوتها ولا يفهم غير ذلك أحد الا كان مخطئا فى فهمه .

ان كل بلد دخلها شئ من التمدن الأوربى لاشك تمتاز عن غيرها وتحس بحياة جديدة أرقى بالطبع من حياتها الأولى ضرورة أن البلدة التى تتمتع بمنافع البخار والكهرباء وتستفيد من استخدامهما تجد لها حياة غير ماتجده البلدة الخالية من ذلك، وانما الشئ الذى أكرهه حقيقة ولا أحب أن يكون أبدا هو أولا أن تأخذ التجارة الأجنبية من نفوس أهل الشام مأخذها من نفوس المصريين مثلا، لأن ذلك ان تم أفضى ولا بد الى أن تحل تلك التجارة محل التجارة المحلية وثانيا ـ أن تتألف شركات أجنبية لاحتكار بعض الامتيازات التجارية والصناعية فانها وان أفادت البلاد كثيرا من ناحية الاجتماع الا أنها تضرها ضررا بليغا من جهة الاقتصاد، انى أميل كثيرا الى الشركات وأعرف بكل تأكيد أن مايقدر عليه الاثنان قد لا يقدر عليه الواحد، بل يمكن للجماعة الاتيان بما يستحيل على الفرد مهما توفرت له الأسباب والوسائل، أفهم هذا، وأفهم كذلك بجانبه أن بلاد

الشرق خصوصا بلاد الشام تحتاج كثيرا الى تأليف الشركات لايجاد
المرافق والمصالح التى تستدعيها حالة البلاد ، غير أنى لا أحب أن تتكون
هذه الشركات من الأجانب متى كان يمكن أن تتألف من أهل
البلاد نفسها وقد يوجد والحمد لله رجال سوريون وعندهم ثروة
طائلة سواء المقيمون فى بلادهم أو فى مصر وغيرها لا أحسب أن
هؤلاء يضنون على أوطانهم بايجاد الشركات اللازمة منهم أنفسهم
ليدوم للبلاد مجدها ويحفظ لها سعدها ، ان من أسباب الأزمات المالية
فى البلاد وفرة المال وهى لا تتيسر فى الغالب الا من وجود أغنياء
الأجانب فيها وتساهل المصارف أيضا ، يجيء الأجنبي ليشترى أرضا
يزرعها أو يبنى فيها بيتا فيفرح الوطنى ببيع جزء من أرضه عندما ينقده
ذلك المبتاع ثمنا زائدا عن المعتاد الذى تسواه قيمة الأرض وهو
لا يدرى ماذا سيجلبه له ولمواطنيه هذا الربح من الشقاء المستمر
والخسارة الكبيرة ، الأجنبي ثرىّ ولا يبالى أن ينقد عُمّاله أجرا عظيما
ليصطنعهم لنفسه ويستخلصهم لخدمته ، فالعامل الذى نفرض أنه
كان يتقاضى فى خدمة سيده الوطنى ثلاثة قروش عند مايجده يأخذ
أجره من ذلك الأجنبي عشرة قروش مثلا لابد أن يطمح الى الزيادة
أو بالأقل لا تهبط به نفسه يوما أن يعود فيشتغل عند الوطنى بدون

ذلك المبلغ، بل هو يفضل اذا اقتضته الى الشغل ضرورة أن يموت
على أن يعيش بهذا المكسب القليل، أو أن يرتزق من الوسائل التى
يأباها الشرف وتنكرها العفة والمروءة. وعلى ذلك ترتفع أجر العمال
أضعاف ما كانت عليه حتى لايسع صاحب المزرعة الا الرضوخ
لطلب عماله، ثم لايخرجه من هذا الحرج سوى أن يعلى هذه
الزيادات على أثمان المحاصيل وذلك يستعقب غلو أسعار الاشياء
كلها تقريبا لارتباطها بعضها ببعض الى حدّ أن يستغرق هذا الغلاء
ما كان ربحه البائع وأضعاف أضعافه، ذلك فضلا عن الخسارة التى
تعود على غيره من أهل بلاده ومواطنيه، ضربنا لك بهذا مثلا ما كنا
لنخترعه ولكن نقلناه عن الوقائع التى شاهدناها بأنفسنا فى بلادنا، وهذا
ماخطر بالبال متعلقا بحالة البلاد من الوجهة الاقتصادية. أما حالتها
من الوجهة الاجتماعية فلا مندوحة من الاشارة الى مايجول فى
النفس بسببها ويكون غالبا مثارا لأسفها ومصدرا لألمها وذلك لما
يشاهده الناظر المستطلع للاحوال التى ترتبط بين كبار البلاد وأشرافها
وبين الأفراد (الذين هم السواد الأعظم فى كل أمة) من الانحلال
وعدم الوئام، حتى انك اذا رددت الطرف لترى تلك الرابطة بينهما
لاتجد الا أن الحالة أصبحت ولا أثر لمعالم الوفاق بين الوضيع والرفيع،

فلا تجد هيبة عند مسود لسيد ولا احتراما ولا وقارا لذلك لايسع
الغيور على مصلحة أمته الا الاشفاق على مثل هذه الحال ، وهنا لابد
وأن القارئ تتوق نفسه لمعرفة الأسباب التى أنتجت مثل هذه النتيجة
المحزنة والدواعى التى أوجبت مثل هذا الانقلاب فأقول : ان رجال
الحكومة وأولى الأمر فى هذه البلاد سلكوا مع الكبراء والعظماء فيها
مسلكا وعرا وركبوا معهم مركبا خشنا ذلك لأنهم ماراوا ذا نفوذ
وشوكة الا وعملوا للكسر من شوكته والضغط عليه بيد غير لينة
وعندى أن مثل هذه المعاملة لا تلتئم مع مصلحة البلاد وأهلها بوجه فان
هذه الأعمال أو تلك السياسة ان حسبوها نجحت مرة فلسوف تخطئ
مرات . وعلى كل حال هى لا تنتج الا عكس المطلوب منها لان رجال
الحكومة اذا استطاعوا اليوم ابادة نفوذ هؤلاء السادة ومحوه من صحيفة
الوجود فلن يستطيعوا أن يقفوا أمام كل من يقوم خلفا لهم من نابتتهم
وأولادهم ذلك الخلف الذى يملك من نفوس العامة بحكم الطبيعة
صفة الرضوخ والانقياد بسهولة تساق بحكم ماتأصل فى النفوس من
السالف القديم وأنت خبير بما للاحترام السائد لذوى البيوتات الرفيعة
فى كل أمة من التفوق والرجحان هذا فضلا عما يعرف بحكم الطبيعة
على الميول والعواطف من التأثير والقوة وانه اذا صح مايقال من أن

بعض أرباب الرتب وأصحاب الحيثيات والمقامات قد ارتكبوا مالا يحسن بأمثالهم حتى ساءت سمعتهم، فلا ينبغى أن يؤاخذ الكل بذنب البعض، ولا أن يعاقب البرىء بذنب المجرم على أنى تقابلت مع كثير من أصحاب البيوتات الكبيرة وأرباب المقامات العالية فى بلاد الشام فوجدت منهم رجالا يتفانون فى حب الدولة مخلصين فى وطنيتهم، وفيهم غيرة قوية وشهامة شديدة، فضلا عن أنهم ممتلئون مروءة ووفاء . فأمثال هؤلاء مالهم ولأولئك الذين أساؤا الى أنفسهم حتى ينضافوا اليهم وينسحب حكم الشقاء عليهم . العدل أن يحافظ على كرامات ذوى البيوت الكبيرة ماداموا محتفظين بشرفهم واحترامهم . أوجه خطابى هذا الى السوريين وأذكر أنى رأيت أن مصر كانت منذ ثلاثين سنة تقريبا حافلة آهلة بالذوات والكبراء الذين كانوا يغارون على البلاد ويحبونها حبهم لانفسهم حتى قضت الدخلاء وبعض من كان من ذوى النفوذ أن يحطوا من كرامتهم ويعملوا لكسر نفوذهم وشوكتهم، فأصبحوا لاترى الا مساكنهم، وأصبحت البلد محرومة من اخلاصهم وفضلهم. فعلى كل غيور على مصلحة قومه أن يوضح الطريق لهؤلاء الذين يريدون أن يقفوا لمقاومة الطبيعة وعبثا يحاولون .

الى هنا وأعود مكررا ثنائى الجميل وشكرى الجزيل لحضرات السوريين

الأفاضل الذين أكرموا ضيافتي وأحسنوا وفادتى وأظهروا لى من اخلاصهم ووفائهم ماعرفت منه حقيقة أن فى الشام رجالا يرجع اليهم ويعول عليهم بجزاهم الله على صنيعهم بنا خير مايجزى العاملين المخلصين وبعد فانى أحمد الله جل شأنه على ما ألهمنى اياه من هذه الجولة الجميلة التى استفدت فى أثنائها زيارة بلاد طالما تاقت لهانفسى وأشكره سبحانه على سلامتنا من المبدا الى النهاية ومن الباعث حتى الغاية وأصلى وأسلم على رسوله وصفوته من خلقه سيدنا ومولانا محمد وعلى آله ماتحدث الناس أو جرى قلم على قرطاس

فهارس كتاب
الرحلة الشامية

فهرس مواد الكتاب

فهرس الاعلام

ـ ا ـ

ـ ب ـ

فهرس الاماكن